كتاب الاعتبار

للأمير أبي المظفر مؤيد الدولة بهجة الدين أسامة بن مرشد بن علي
ابن منقذ الشيزري الكناني الكلبي
٤٨٨ - ٥٨٤ هـ

تحقيق وتقديم
الدكتور قاسم السامرائي

مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION

Marfat.com

Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

Marfat.com

جميع الحقوق لهذه الطبعة محفوظة
لمؤسسة دار الاصالة للثقافة والنشر والاعلام
الرياض

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

ص ب: ٤٢٢٤٨ الرياض ١١٥٤١

Marfat.com

كتابُ الاعتبار

للأمير أبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي
ابن منقذ الشيزري الكناني الكلبي
٤٨٨ - ٥٨٤ هـ

تحقيق وتقديم
الدكتور قاسم السامرائي

مؤسسة
دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام
DAR AL ASSALA FOR CULTURE PUBLISHING AND INFORMATION

Marfat.com

132343

بسم الله الرحمن الرحيم

Marfat.com

بين يدي الكتاب

بقلم : عبدالعزيز عبدالكريم التويجري

تحقيق التراث وضبط أمهاته رسالة علمية سامية ليس في ذلك ريب . . كذلك فإن نشره والعناية ببعثه وبثه بين العالمين رسالة لاتتضاءل بحال عن الرسالة الأولى بل هي متممة لها ومساندة في مجال خدمة الثقافة العربية الإسلامية .

ولعلنا لا نتجاوز حد الصواب ولا نركب سفن المبالغة حينما نقول : إن التراث الإسلامي في لغة العرب لم يخدم الخدمة المثلى . . بل ولا حتى الخدمة العادية على الـرغم مما تقذف به أفواه المطابع من غث وسمين على طول وعرض بلاد العروبة والإسلام من مطبوعات لا نملك إمكانية إخراجها من حقل التراث أو تخليصها من إطلاق المصطلح التراثي عليها .

ذلك ان هذه المطبوعات لايراد بأغلب ما يصدر منها وجه الله ثم خدمة حضارتنا وميراثنا، قدر مايراد من ورائها خدمة الناشر أولا ثم المحقق أو المراجع أولاً وأخيراً .

ومعنى ذلك ان التراث ـ ذلك الكنز المغمور أكثره في بحار الإهمال ـ أضحى نهبا لكل مغير، ومطمعا لكل مغامر . . ولكل وجهة هو موليها ومع أني لا أود ـ والله على ماأقول شهيد ـ ان أقلل أو أضعِّف من جهد أحد إلا أني أرى أن خدمة التراث لايمكن أن تتم على الوجه الأمثل من خلال هذا الطريق .

ومن المؤسف أن ينهض المستشرقون ـ ومعظمهم موضع طعن وريبة ـ فيحققوا ـ من الأمهـات التراثية ويضيفوا في استاذية إلى ماحققوا مما يشعر الدارس والباحث بالجهد المبذول، بل ويضعوا أسسا لمناهج التحقيق العلمي الدقيق بصرف النظر عن

Marfat.com

مواقفهم التشويهية أحيانا، والتي سرعان ما كشفها علماؤنا الأفذاذ ـ وهم قلة نادرة ـ وصححوها. . والقضية تحتاج إلى نقاش طويل ليس هنا موطنه.

ومن هنا فقد أردنا ـ والله من وراء القصد ـ أن تقوم مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والاعلام بالتعاون مع مؤسسة دار الكتاب السعودي الدخول بحماس وصدق إلى ميدان تحقيق التراث ونشره وخدمة الحضارة والثقافة لابهدف الربح والمضاربة وانجاح الصفقة ـ مع اننا لانبرىء أنفسنا ـ فليس الربح مكروها ولا ممقوتا ولكن طغيانه على الهدف الأسمى وتحويل الأعمال العلمية الجليلة إلى أعمال تجارية ذات بريق ولمعان هو المكروه بل هو الآفة المستنزفة. . إن رؤيتنا تتلخص في أن نسهم على قدر استطاعتنا وامكانياتنا المحدودة و ـ ذلك الفضل من الله ـ مع دور النشر الأخرى على طول وعرض وعمق الوطن العربي سواء أكانت حكومية أم أهلية فخدمة التراث ـ كما أومأنا ـ رسالة يتعين أن يتعاون الناشر والعالم المحقق في العناية بها ومحاولة اشاعتها بين جمهور المثقفين. . وليس معنى ذلك أن تتحول دور النشر في الوطن العربي والإسلامي إلى دور تراثية تقف نفسها على خدمة هذا الهدف دون غيره. . وإنما المراد أن تلتفت هذه المؤسسات الثقافية نحو هذا الوجه الحضاري لتقدم كل دار ماتستطيع تقديمه بصورة علمية مشرقة ومشرفة كضريبة أو فريضة تؤديها هذه الدور في سبيل الإسلام والعلم والعروبة والإنسانية.

ولو أن أمور النشر كلها تحولت إلى غاية ربحية ـ كما يحاول البعض أن يفعل ـ لنصحنا القائمين عليها ممن جعلوا الكسب غاية همهم أن يوجهوا أموالهم نحو تجارة الحديد والصلب، أو الأسهم والعقارات، أو حتى الحليب وأكياس الحلوى. . ولكننا ندرك عن يقين أن معظم الذين وجهوا أموالهم وجهدهم لنشر الكتاب في الوطن العربي بالذات (!!) إنما يقصدون ـ والله أعلم ـ تقديم خدمة حقيقية للحرف وللكلمة وللغة العرب وتراث الأمة وفكرها. . ومعظمهم ـ وايم الله ـ يقفون على ثغر من ثغور ثقافة العرب، وحضارة الإسلام.

* ـــــ * ـــــ *

وكتاب «الاعتبار» للأمير الفارس أسامة بن منقذ (٤٨٨هـ ـ ٥٨٤هـ) له من

Marfat.com

الشيوع والشهـرة مايجعـل القـارىء لايجهله . . ولـه من الاعتبـار لدى جماعـات المستشرقين قدر كبير ذلك أنه يؤرخ من خلال السيرة الذاتية لمؤلفه القائد ـ لفترة من أهم وأخصب الفترات التاريخية ذات الملامح المشتركة بين المسلمين وبين الأوروبيين الذين جاءوا إلى ديار العروبة والإسلام وهم يحملون السيف والصليب والحقد على حضارة دين الإسلام وانجازات العرب والمسلمين وتاريخهم الحافل بألوان العطاء والنبل.

ومن ثم فقد ترجم الكتاب من العربية إلى الإنجليزية والألمانية والروسية ثم إلى الـدانـماركية والبولندية والفرنسية أيضاً . . حتى ان المحقق ليقول في المقدمة ـ كما سيعرف القارىء ـ أنه لم يترجم كتاب عربي إلى اللغات الأوروبية المختلفة باستثناء القرآن الكريم ـ مثل ماترجم كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ـ رحمهما الله ـ والمحزن أن يلقى الكتاب هذا الاهتمام كله من قبل الأوروبيين ودوائر الاستشراق العالمية . . بينما لايجد في لغته الأصلية غير الاهمال أو الصمت . . وهذه واحدة من آفاتنا . . وما أكثر الآفات لدينا!.

بل إن الطبعة العربية الأولى جاءت من عمل المستشرق الفرنسى المعروف «دير نبورج» الذي حقق الكتاب ونشره لأول مرة في «لايدن» خلال أواخر القرن الميلادي المنصرم (١٨٨٤م) عن نسخـة وحيدة في العـالم كله تقريبا. محفوظة في مكتبة دير الاسكوريال بأسبانيا.

ثم كانت ترجمة «فيليب حتي» اللبناني الأصل ـ لكتاب «الاعتبار» إلى الإنجليزية ونشر الترجمة في أمريكا سنة ١٩٢٧م والتي ألحقها بتحقيق جديد للكتاب اعتمد فيه على مخطوطـة الاسكـوريال الفـريدة . . واستعـان بنشرة ديرنبورج . . وبذلك يسّر «فيليب حتي» الكتاب للقارىء العربي بعد أن نفذت طبعة ديرنبورج من الأسواق أيضـا فقد صحح الكثير من الأخطاء التي شاعت في مطبوعة ديرنبورج كما يذكر المحقق الفاضل . . وعلى الرغم من طعن العلامة «محمد كرد علي» في جهد «فيليب حتى» واتهامه له بأنه لم يضف جديداً إلى عمل ديرنبورج . . فإن الرجل ـ في رؤيتنا ـ قدم جهـدا مشكـورا لايدركـه بحق إلاّ من عانى السهـر وبذل الجهد والعرق في تصويب كلمة واحدة جاءت مشوهة في مخطوطة نادرة.

Marfat.com

ومـع الجهـد غير العادي الذي بذله «فيليب حتي» بقي الكتاب مصابا بعلل علمية كثيرة فاتت الناشر الأول أو المحقق الأول «ديرنبـورج» والمحقق الثاني «حتي»!

وكـان لزاما علينا وقد ارتأينا إعادة نشر الكتاب «الاعتبار» محققاً تحقيقاً علمياً جديراً به. أن نبحث عمن يستـطيع عن علم ودراية وفقه وبصر تحقيقه ويصحح الأخـطاء الشـائعة في الكتاب نتيجة عبث الزمان والظروف به إذ أن هناك بعض الصفحات الناقصة حتى الآن من المخطوطة الأصلية في الاسكوريال، إلى جانب الأخطاء الشائعة التي فاتت المحققيْن السابقيْن كما أسلفنا.

وقد وقع اختيارنا على العلامة الدكتور قاسم السامرائي فهو خير من يتصدى لهذا العمل التصحيحي والعلمي الضخم وذلك لما يملكه من موهبة وخبرة وعلم واطلاع على معظم المخطوطات في مكتبات العالم المختلفة هذا فضلاً عن ثقافته الموسوعية التي تؤهله للتصدي عن يقين لحمل أعباء هذا العمل العلمي البارز والدكتور السامرائي معروف لدى كوكبة الباحثين والدارسين والأكاديمين ممن يتعاملون مع المخطوطات، ومع الكنوز التراثية التي مازال معظمها نائماً في بطون مكتبات ومتاحف العالم تنتظر من ينقب عنهـا ويفصح عن مكنونات صدورها ليضيف إلى تراث الفكر الإنساني محصولا جديداً كتب بأقلام عربية صادقة لم يلونها مداد غير عربي.

ولقد وجدنا الدكتور السامرائي على وعي تام واطلاع واسع وبصيرة نافذة تضعه في مصـاف كبار المحققين الموثوقين في العالم العربي الآن.. ويكفي أنه يدرك عن صدق طبيعة الرسالة التي يحملها المحقق حينما يضيِّع من عمره سنوات وسنوات في سبيل تحقيق وتدقيق مخطوطة نادرة قد لايتجاوز حجمها الصفحات المعدودات وكأنه يذكرنا ـ أمد الله في عمره ـ بمن كانوا يضربون آباط الأبل من الأوائل بحثا عن جذر كلمة واحدة أو تصحيح حديث نبوي شريف.

أما أني كنت استنجزه ماوعد بعد أن قررنا تحقيق ونشر كتاب الاعتبار واتفقنا على أهمية هذا الكتاب. وضرورة تعاوننا معاً على تحقيقه ونشره ـ فقد كان هذا الاستنجاز المتتابع من باب حرص الحريص والتذكير بعنصر الزمن وكيف أنه يأكلنا جميعاً دون أن ندري.

Marfat.com

وأني مهما أوتيت من حسن القول لن أستطيع أن أوفيه حقه من الثناء العاطر والامتنان الجزيل فالرجل ـ بارك الله فيه وفي علمه وفضله ـ أهل لكل خير، مادام يقدم من جهده وعلمه ونور بصره وبصيرته ماينفع الناس.

* ـــــ * ـــــ *

ولم يبق غير كلمات قلائل أود أن أسوقها بين يدي الكتاب.. وهو اننا حينما ننبش صدور المكتبات العالمية بحثاً عن تراثنا المفقود أو «المحبوس» والذي هو جزء من حضارتنا الغائبة أو الغائمة فأننا ندرك عن وعي أبعاد الربط بين التراث كقيمة حضارية، والزمن الذي نحياه كقيمة واقعية، فالتراث الحضاري لأمتنا ليس كماً منفصلاً عن نبض العصر وحركة الزمن، وإنما هو انعكاس فكري لحدث وواقع وزمن وتاريخ إذ أنه ليس مجرد تراكمات كمية ومعرفية وإنما هو إضاءات تبصيرية حية.. ونحن لا نود أن نستخلص من التراث مجرد هذه الإضاءات المعرفية وحدها وإنما نود أن تتسلل قيم التراث الحضارية إلى وجدان الأمة فتحييها بعد جمود.. وتوقظها بعد سُبات، وتضيف إلى رصيد ثقافتها الجديد الغائب، أو القديم المتجدد والناضر على مر الزمن وتعاقب العصور.. بحيث لايظل هكذا (نعني التراث بقيمه وفضائله واشعاعاته) ـ مجرد كنز ثمين محبوس في صناديق المتاحف ومحابس الأدراج والخزائن في مكتبات العالم.

وحسبنا الله فيما نقول، وفيما نفعل، وفيما نقصد، والله من وراء القصد وهو وحده المستعان،،،

الرياض في غرة رجب ١٤٠٧هـ
١ (مارس) ١٩٨٧م.

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حمد معترف بالتقصير في عبادته والشكر على نعمائه وآلائه، ومقرّ بربوبيته ووحدانيته وأشهد أن محمداً ـ ﷺ ـ عبده ورسوله، أما بعد:

فلم تحظ شخصية إسلامية ولا كتاب إسلامي بالدراسة والتحليل والتحقيق والترجمة في حلقات المستشرقين أو عند المعنيين بعصر الحروب الصليبية في جوانبه الثقافية والحضارية المتعددة من العرب أو المسلمين أو غيرهما من الأوربيين، مثل ما حظي الأمير مؤيد الدولة، مجد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني الشيزري وكتابه الاعتبار.

فلم يكتب أحد في الشرق أو الغرب في أدب الحروب الصليبية أو في تاريخها أو في العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى أو في تأثير الحضارة الإسلامية بضروبها المختلفة في الثقافة الأوربية دون أن يعتمد بصورة مباشرة أو غير مباشرة على المعلومات الأصيلة التي أوردها أسامة في كتابه هذا، بل ولم يترجم كتاب عربي إلى اللغات الأوربية المختلفة ـ باستثناء القرآن الكريم ـ مثل ما ترجم كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وكتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي[1].

بل إن الأمر الغريب في هذين الكتابين يكمن في أنهما اشتركا في الحظ والتاريخ مثلما اشتركا في إهمال أهليهما لهما حيث تولى المستشرقون

---

(١) انظر دراستي لتحقيقات وترجمات كتاب طوق الحمامه لابن حزم في مجلة
Arabica, Tome XXX (Paris 1981) pp. 57-72

Marfat.com

تحقيقهما ونشرهما ودراستهما وبالتالي ترجمتهما إلى لغات متعددة. فإن كتاب ابن حزم وصل إلينا في نسخة فريدة مختصرة[٢] كثيرة الأخطاء والتحريف، ووصل إلينا كتاب أسامة في نسخة فريدة أيضاً[٣] إلا أنها ناقصة إحدى وعشرين ورقة من أولها ومطموسة النص في ورقاتها الأولى بفعل الماء الذي أصابها ـ على ما يبدو ـ أثناء الحريق الذي شب في الأسكوريال سنة ١٦٧١ م والتهم أكثر من أربعة آلاف مخطوطة عربية.

ويحدثنا ديرنبورج الذي حقق كتاب الاعتبار ونشره لأول مرة في لايدن سنة ١٨٨٤ أنه أثناء عمله في تكملة فهرس الغزيري للمخطوطات العربية في الأسكوريال عثر على قطع وأوراق متفرقة مدسوسة في ثنايا مخطوطات أخر، ولم يفطن لها أحد فلما درسها أدرك أنها كتاب الاعتبار الضائع، فتتبع سائر المخطوطات وجمع منها ما تفرق من أوراق الكتاب وضمها إلى بعضها وأعطاها رقم: ١٩٤٧. وقد حاول ديرنبورج أن يجد القسم المفقود من المخطوطة فلم يفلح. وهنا يقول ديرنبورج في مقدمة تحقيقه لكتاب الاعتبار: «وبعد تفكير طويل قررت أن أنشره على علاته بالرغم من صعوبة ما ورد فيه من أخبار وأعلام ولذلك لا أدعي أنني توصلت إلى حل ما فيه من صعوبات»، وقد صدق، فنشره محققاً[٤] ثم ألحقه بدراسة موسعة بالفرنسية تقع في ٧٢٧ صفحة نشرها في باريس[٥]. وقد حوت هذه الدراسة معلومات واسعة عن حياة أسامة وأسرته استقاها ديرنبورج من المخطوطات العربية التي لم تنشر إذ ذاك مثل تاريخ الإسلام للذهبي وبغية الطلب لابن العديم وتاريخ دمشق لابن عساكر وخريدة القصر للعماد الأصفهاني وغيرها، إضافة إلى دراسة الكتاب نفسه. ثم ألحق بهذه الدراسة نصوصاً من كتاب العصا

---

(٢) محفوظة في مكتبة جامعة لايدن برقم: ٩٢٧ شرقي.

(٣) محفوظة في مكتبة دير الأسكوريال برقم: ١٩٤٧.

(٤) Ousâma ibn Munkidh, un Emir au Syrien au premier siècle des croisades (1095-1188), par Hartwig Derenbourg, Leiden - Paris 1884-1886.

(٥) Derenbourg, H..: Ousâma ibn Munkidh, un Emir syrien au premier siècles des Croisades, 1095-1188, 1) Vie d'Ousâma, 2) Texte arebe de l'Autobiographie d'Ousâma, Paris 1889.

Marfat.com

الناقص[٦] ومختارات من ديوان شعر أسامة إضافة إلى ترجمة أسامة التي ذكرتها هذه المخطوطات. ثم ألحق ديرنبورج بكل هذا ترجمة فرنسية للنص العربي نشرها في باريس أيضاً[٦أ].

ولقد أردت أن أتأكد من أن مكتبة دير الأسكوريال لا تحوي بالفعل شيئاً من القسم الضائع من الكتاب حين أخبرني زميلي المستشرق الهولندي بيتر شورد فان كوننكزفيلد في لايدن أنه رأى في الأسكوريال صندوقاً مليئاً بأوراق سقطت من المخطوطات المختلفة، فرجوته أن يبحث لي فيها عن أية ورقة من كتاب الاعتبار، وقد بحث بالفعل أثناء سفره إلى الأسكوريال في شتاء هذه السنة ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م)، وأكّد لي بعد عودته من اسبانيا أنه لم يجد شيئاً في هذه الأوراق.

فحاولت أن أتتبع كتب التواريخ والتراجم التي يمكن أن أجد في ثناياها بعض النصوص الضائعة من كتاب الاعتبار، فوجدت فعلاً بعض هذه النصوص التي ذكر مقتبسوها صراحة أنها من كتاب الاعتبار إلا أنها غير موجودة في ما وصل إلينا من الكتاب. ووجدت نصوصاً أخرى ذكر مقتبسوها أنها من كتاب الاعتبار إلا أنها موجودة في النص الذي وصل إلينا، ووجدت نصوصا لم يذكر مقتبسوها صراحة أنها من كتاب الاعتبار بيد أنهم عزوها إلى أسامة نفسه أو إلى تاريخ أسامة الذي لا نعرف عنه شيئاً، فرجحت أن تكون هذه النصوص من القسم الضائع مع شكي في أنها قد تكون من كتاب آخر لأسامة لم يصل إلينا بعد. ولما كانت هذه النصوص تتفق تماماً مع حوادث كتاب الاعتبار وأسلوبه ولغته وأنها تكمل بعض ما عراه من نقص آثرت إضافتها وإثباتها في قسم منفصل عن نص المخطوطة إلا حكاية الإسماعيلية ومحاولتهم الاستيلاء على حصن شيزر فإنني نقلتها من ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (توفي سنة ٥٥٥ هـ) لأنني وجدتها غريبة في تفاصيلها من روايات

---

(٦) حققه ونشره الأستاذ حسن عباس على ثلاث نسخ مخطوطة في الإسكندرية وباريس في سنة ١٩٨٧ و ١٩٨١.

(٦أ) Derenbourg, H., Souvenirs historiques et recits de chasse, par un Emir syrien du douzieme siecle. Autobiographie d'Ousâma ibn Munkidh intitulee l'Instruction par les exemples. Traduction francaise d'apres le texte arabe par H. Derenbourg. Paris 1895.

Marfat.com

أسامة الأخرى حول هذه الحادثة في كتاب الاعتبار، مع علمي أن ابن القلانسي كان قد توفي قبل أن يكتب أسامة كتابه أو يُمليه في حدود سنة ٥٧٨ هـ بعد أن توقل ذروة التسعين من عمره كما قال في الاعتبار.

لقد ذكرت ما رواه الذهبي في تاريخ الإسلام المخطوط حيث ذكر الحروب والمصافات التي حضرها أسامة بنفسه وشارك فيها، فتتبعت ما ذكره الذهبي في النص الذي وصل إلينا من الكتاب فظهر لي أن القسم الضائع من النص كان يشتمل على حديث أسامة عن المصافات الآتية:

١ ـ وقعة بين أهل شيزر والإسماعيلية الباطنية في سنة ٥٠٧ هـ:

أشار أسامة إلى هذه الوقعة في حكاية رقم: ٦٦ من الكتاب، فقال في حديثه عن نمير العلاروزي: «وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الإسماعيلية من حصن شيزر، وقد تقدم ذكرهم». وقد ذكر أسامة حوادث أخر جرت في وقعة الإسماعيلية هذه مراراً في كتاب الاعتبار وكتاب لباب الآداب، وقد أشرنا إلى كل ذلك في مواضعه من الكتاب.

٢ ـ وقعة بين عسكر حماة وعسكر حمص في سنة ٥٢٥ هـ:

ذكر أسامة اشتراكه في هذه الوقعة: فقد جرح وقتل حصانه وكان قد ترك شيزر ثامن شهر رجب من سنة ٥٢٥ هـ مفارقاً عمه ووالده إلى حمص بعد النفرة التي طالت بينهما، فحضر حرباً بين عسكر صاحب حمص خير خان بن قراجا وعسكر عماد الدين زنكي صاحب حماة تحت إمرة حاجبه صلاح الدين الياغسياني، فجرح وأخذ مأسوراً إلى حماة حيث اعتقل في قلعتها، ثم أطلق من الاعتقال فذهب إلى الموصل[٧]. وهناك نراه في سنة ٥٢٦[٨]. وفي السنة نفسها نراه مع عماد الدين زنكي في حربه للإمام المسترشد بالله على عقرقوف[٩].

---

(٧) مخطوطة ديوان أسامة (مجلس شواري ملي ـ طهران) برقم ٣٢٢ طباطبائي. وانظر حكاية رقم: ١٤٣ فقد أشار أسامة إلى وقعة حمص وجرحه فيها.

(٨) انظر: كتاب العصا (تحقيق حسن عباس) ٤١٨ ـ ٤١٩.

(٩) مفرج الكروب ١/ ٥٠ ـ ٥١.

Marfat.com

٣ ـ وقعة على تكريت بين عماد الدين زنكي وبين قراجا الساقي صاحب فارس سنة ٥٢٦ هـ:

وهي الوقعة التي نقلناها من كتاب مفرج الكروب لابن واصل في قسم «نصوص ضائعة من كتاب الاعتبار». . وهي غير وقعة الخليفة المسترشد بالله على عقرقوف مع زنكي ودبيس بن صدقة. ومع أن ابن واصل لم يذكر صراحة أنها من كتاب الاعتبار فإن لغة الوقعة وأسلوب روايتها تتفق مع أسلوب أسامة إضافة إلى أن ابن واصل كان قد نقل صراحة من كتاب الاعتبار ولهذا السبب فإنني رجحت أن تكون هذه الوقعة مقتبسة من كتاب الاعتبار أيضاً.

٤ ـ وقعة بين الخليفة المسترشد بالله وبين أتابك زنكي على بغداد في سنة ٥٢٧ هـ:

أشار أسامة إلى هذه الوقعة في كتاب الاعتبار فقال في حديثه عن ظلم صلاح الدين الياغسياني: «وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد»(١٠). وذكر أسامة هذا المصاف أيضاً في حديثه مع ابن السمعاني فقال: «دخلت بغداد وقت محاربة دبيس والمسترشد بالله ونزلت بالجانب الغربي وما عبرت إلى شرقيها»(١١). ونقل ابن واصل حوادث هذا المصاف من كتاب الاعتبار، وقد أثبتناه في قسم «نصوص ضائعة». وكان ابن واصل قد ذكر أن: «السلطان سنجر قد كاتب الأمير عماد الدين ودبيس بن صدقة وأمرهما بقصد العراق، فقصدا بغداد وبلغ الخليفة المسترشد ذلك فأسرع العودة إليهما وعبر إلى الجانب الغربي، وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين زنكي بالمنارية من دجيل. ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عقرقوف، واقتتلوا قتالاً كبيراً فحمل الأمير عماد الدين على ميمنة الخليفة وفيها جمال الدين إقبال فانهزموا وحمل نظر الخادم وكان في

---

(١٠) كتاب الاعتبار ١٧٦.

(١١) ملاحق ديرنبورج ٥٩٥ نقلاً من تاريخ الإسلام للذهبي (مخطوطة المتحف البريطاني، رقم ٧٣٩ ب).

Marfat.com

ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودبيس وحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال، فانهزم دبيس ورأى الأمير عماد الدين تفرق الناس فانهزم. وقتل من العسكر جماعة وأسر جماعة. وبات هناك الخليفة ليلة وعاد إلى بغداد»[١٢].

٥ ـ وقعة بين أتابك زنكي وبين الأرتقية وصاحب آمد على آمد في سنة ٥٢٨ هـ:

أشار أسامة إلى هذه الوقعة في ديوانه المخطوط[١٣] وفي القسم الذي وصل إلينا من كتاب الاعتبار، في حديثه عن حصار أتابك زنكي لحصن الصور فقال: «وذلك بعد كسرته على آمد»[١٤]. وقد أكد المؤرخون فشل عماد الدين زنكي في الاستيلاء على آمد في سنة ٥٢٨ هـ، بعد أن حصرها وقطع شجرها فلم يحصل منها على طائل فرحل عنها. وهنا يظهر نص أسامة أوضح رواية من رواية المؤرخين الآخرين أمثال ابن القلانسي (صفحة ٢٤٣) وابن الأثير (١ / ٥) وابن واصل (١ / ٥٤) وغيرهم حين أظهروا أتابك زنكي وكأنه قد انتصر على الأرتقية في حصاره مدينة آمد.

٦ ـ وقعة على رفنية بين أتابك وبين الإفرنج في سنة ٥٣١ هـ:

وقد أشار أسامة إلى هذه الوقعة في القسم الذي وصل إلينا من الكتاب، فقال: «كنت يوماً عند أتابك وهو يحاصر رفينة...»[١٥]. والعجيب أننا لا نجد لهذه الوقعة ذكراً عند المؤرخين.

٧ ـ وقعة على قنسرين بين أتابك وبين الفرنج في سنة ٥٣١ هـ:

وهي الوقعة التي قتل فيها بشر بن كريم بن بشر الجزري رسول الخليفة الراشد بالله إلى أتابك عماد الدين زنكي. فلعل وفادته هذه كانت الثالثة إلى

---

(١٢) مفرج الكروب ١/ ٥٠، وضعها الذهبي في حوادث سنة ٥٢٧ هـ ووضعها أسامة وابن الأثير وابن واصل في حوادث سنة ٥٢٦ هـ.

(١٣) مخطوطة طهران ورقة ١٨٥.

(١٤) كتاب الاعتبار: ١٧٤.

(١٥) كتاب الاعتبار: ٦٨.

Marfat.com

الشام وذلك لأننا نعرف أن الخليفة المسترشد بالله أرسله صحبة سديد الدولة الأنباري إلى الشام سنة ٥٢٥ هـ يطلب من تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق تسليم دبيس بن صدقة لخروجه على الخليفة مراراً. وقد كان دبيس قد ضل الطريق إلى صرخد فوقع في بني كلاب فقبضوا عليه وحملوه إلى صاحب دمشق إلا أن أتابك زنكي اشتراه أو فاداه قبل وصول رسول الخليفة. فلما سمع ابن الأنباري بمصير دبيس إلى زنكي سار إلى دمشق ووقع فيه وذمّه. وكان أتابك زنكي قد أخذ خبر عودة ابن الأنباري من دمشق وبلغه ما قيل فيه فبعث سرية من عسكره فقبضوا على ابن الأنباري وابن بشر ونهبوا القافلة في كياد الخليفة وحملوهما إلى زنكي فأطلق ابن بشر وسجن ابن الأنباري ثم أطلقه بعد حين بشفاعة السلطان السلجوقي(١٦).

أما الوفادة الثانية فقد كانت في سنة ٥٢٩ هـ حين كان زنكي يحاصر دمشق، فذكر ابن القلانسي هذه الوفادة، قال: «ووافق ذلك وصول الرئيس بشر بن كريم بن بشر رسولاً من الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين إلى عماد الدين أتابك بخلع أعدت له والأمر بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له»(١٧).

وانفرد ابن واصل برواية تختلف عن رواية المؤرخين الآخرين فهو يروي: «وبينما عماد الدين يحاصر البلد (دمشق) إذ ورد عليه أبو بكر بن بشر الجزري رسولاً من الراشد بن المسترشد ليتوجه إليه وينجده على السلطان مسعود ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحهم وخطبوا بدمشق للملك الب أرسلان بن محمود، وكانت الخطبة له في جميع بلاد عماد الدين»(١٨). وأكّد ابن واصل روايته هذه في موضع آخر من كتابه فقال: «وأما الراشد فإنه لما بويع له ببغداد بالخلافة بعد مقتل أبيه أرسل إلى عماد الدين

---

(١٦) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق علي سويم (أنقرة ١٩٧٦) ٢٥٤ ـ ٢٥٦، ابن واصل: مفرج الكروب: ١/٤٥.

(١٧) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٨، الكامل لابن الأثير ١١/٢٥.

(١٨) مفرج الكروب ١/٥٨.

Marfat.com

زنكي يستدعيه لنجدته. . . فوردت الرسالة على عماد الدين زنكي وهو بظاهر دمشق محاصرها»[١٩].

بينما نرى ابن القلانسي يؤكد علي أن ابن بشر لما جاء رسولاً من المسترشد بالله دخل والقاضي بهاء الدين الشهرزوري إلى دمشق لتقرير الأمر ولإحكام القاعدة في الجمعة في الثامن والعشرين من جمادى الأولى فتقرر الأمر ووكدت الأيمان وحضر الجامع لصلاة الجمعة وخطب للسلطان الب أرسلان على المنبر بأمر أمير المؤمنين، وعاد (ابن بشر) إلى العسكر الأتابكي»[٢٠].

فنحن أمام روايتين، **أولاهما**: تقول أن ابن بشر وصل رسولاً من الإمام المسترشد بالله في سنة **٥٢٩** هـ إلى زنكي، وهي الرواية التي يكاد يجمع عليها أكثر المؤرخين. **والثانية**: تقول إن ابن بشر وصل في سنة **٥٢٩** هـ رسولاً من الإمام الراشد بالله وهي الرواية التي انفرد بها ابن واصل والتي اعتمد فيها على ما يظهر على رواية أسامة التي أوردها في أول القسم الذي وصل إلينا. فإن المعروف أن الإمام المسترشد بالله قتل شهيداً في الثامن عشر من ذي القعدة سنة **٥٢٩** هـ وأن ولده الإمام «الراشد بالله بويع بالخلافة ببغداد في السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة نفسها، وجلس في منصب الخلافة في ذي الحجة من سنة **٥٢٩** هـ.

والمعروف أيضاً أن زنكي سار بعد حصار دمشق إلى حمص فأحرق زرعها وقاتلها في العشر الأواخر من شوال سنة **٥٢٩** هـ ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من السنة نفسها. . . وأنه سار من الموصل في المحرم من سنة **٥٣٠** هـ إلى بغداد ومعه داود بن محمود بن ملكشاه الذي وصل إليه إلى الموصل. . . فأنزله في دار السلطنة ببغداد وأتابك في الجانب الغربي والخليفة إذ ذاك الراشد بالله[٢١]. ويذكر المؤرخون أن أتابك زنكي فارق

---

(١٩) المصدر نفسه ١/٦٣.

(٢٠) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٨، الكامل لابن الأثير (مطبعة الاستقامة) ٨/٣٤٦.

(٢١) زبدة الحلب ٢/٢٥٩، نقلاً من حواشي بغية الطلب (تحقيق علي سويم) ٣٥٧.

Marfat.com

بغداد إلى الموصل بعد أن قرب السلطان السلجوقي من بغداد ولهذا السبب أيضاً خرج الخليفة الراشد بالله من بغداد ولحق بزنكي في الطريق وسارا معاً إلى الموصل. ولما دبّر زنكي أمره مع السلطان السلجوقي مسعود والخليفة الجديد الذي أقعده مكان الراشد بالله أزعج زنكي الخليفة ففارق الموصل إلى خراسان وذلك في سنة ٥٣١ هـ.

من كل هذا العرض المختصر يظهر أن ابن بشر جاء إل الشام مرتين في سنة ٥٢٩ هـ وكان عماد الدين زنكي يحاصر دمشق في الوفادتين لأن زنكي كان حريصاً على ضم دمشق إلى ملكه. فقد جاء ابن بشر في المرة الأولى رسولاً من المسترشد بالله وفي المرة الثانية من الراشد بالله، والظاهر أنه لم يعد إلى بغداد بعد أن أدى رسالته في المرة الثانية أو لعله عاد إلى بغداد ثم صحبه إلى الموصل. ولما فارق الراشد بالله الموصل إلى خراسان آثر البقاء مع أتابك زنكي فاشترك في معركة جرت بين المسلمين وبين الفرنج في سنة ٥٣١ هـ فقتل فيها ـ على رواية أسامة في أول القسم الذي وصل إلينا من الكتاب. وعلى رواية الذهبي أن هذه المعركة كانت على قِنّسرين.

ويجمع المؤرخون أيضا على أن زنكي سار من حمص في العشرين من شوال سنة ٥٣١ هـ وحصر قلعة بعرين وهي للفرنج إلى الغرب من حمص تجاه الساحل. ويقول ابن الأثير فيها: «وهي من أمنع الحصون» فلما نزل عليها قاتلها وزحف إليها فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك ليرحلوه عن بعرين، فلم يرحل وصبر إلى أن وصلوا إليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان، ثم انجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم»[٢٢].

ويروى ابن القلانسي أن الفرنج لما علموا بنزول أتابك زنكي على الحصن: «تجمعوا ونزلوا قريباً منه لحمايته ومعونة من فيه منهم، فحين عرف

---

(٢٢) ابن الأثير ٨/٣٥٧ ـ ٣٥٨، ابن واصل مفرج الكروب ١/٧٢ ـ ٧٣

Marfat.com

عماد الدين خبرهم كمن لهم كميناً والتقى الجمعان فانهزم فريق من الأتراك بين أيدي الفرنج وقتلوا منهم جماعة وافرة عند عودتهم إلى منزل مخيّمهم، وظهر عليهم عماد الدين في من كمن لهم من الكمناء وأوقع بالرجالة وملك الأثقال والسواد، وحين قربوا من المخيم وشاهدوا ما نزل عليهم وحل بهم انخذلوا وفشلوا، وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلاً وأسراً. . . وعاد عماد الدين إلى حصن بعرين وقد انهزم إليه ملكهم كنذياجور[٢٣] ومن جاء معه من مقدمي الإفرنج»[٢٤].

وهذه الرواية تتفق إلى حد كبير مع ما رواه أسامة في أن المعركة كانت على حصن وأن عدداً كبيراً من الإفرنج قد قتل أكثر مما قتل من المسلمين، فهل أن كلمة «بعرين» تصحفت إلى «قِنّسرين» عند ناسخ تاريخ الذهبي؟ وهذا أمر محتمل جداً في المخطوطات لأننا نعرف أن قِنسرين لم يكن بها حصن على رواية البلدانيين، فيقول ياقوت: «وما زالت قنسرين عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١ هـ وغلبت الروم على حلب وقتلت جميع ما كان بربضها فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد. . . فليس بها اليوم إلا خان تنزله القوافل وعشار السلطان. . . وقال بعضهم: كان خراب قِنسرين في سنة ٣٥٥ هـ قبل موت سيف الدولة (الحمداني) بأشهر، وكان قد خرج إليها ملك الروم وعجز سيف الدولة عن لقائه فأمال عنه فجاء إلى قِنّسرين وخربها وأحرق مساجدها ولم تعمر بعد ذلك»[٢٥].

إشارات أُخر إلى القسم الضائع:

إضافة إلى كل هذا فإن أسامة أشاز إلى حصن الصوَّر وهو من أعمال صاحب آمد فقال: «ولقد حضرت حصار حصن الصوَّر مع ملك الأمراء أتابك

---

(٢٣) هو كونت أنجو Count of Anjou.

(٢٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٩.

(٢٥) معجم البلدان ٤/٤٠٤ (بيروت ـ دار صادر ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م)، وانظر: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة (بيروت ١٩٠٩) ١٦٢ ـ ١٦٤، فقد ذكر ابن الشحنة كل ما قاله الجغرافيون في تاريخ قنسرين وخرابها.

Marfat.com

زنكي رحمه الله، وقد تقدم شيء من ذكره[٢٦]. وهذه إشارة واضحة إلى احتواء القسم الضائع على شيء من حوادث حصاره، لأن هذه الوقعة لم ترد في القسم الذي وصل إلينا من الكتاب إلا أن أكثر المؤرخين ذكرها باختصار فقال ابن القلانسي: «ووردت الأخبار بأن عماد الدين أتابك نزل على القلعة المعروفة بالصور وضايقها وافتتحها في رجب من السنة (٥٢٨ هـ)[٢٧]. وقال ابن واصل: «ثم قصد عماد الدين قلعة الصور من ديار بكر فحاصرها وضايقها ثم ملكها في رجب من هذه السنة»[٢٨].

٢ ـ وذكر أسامة أيضاً أن: «ملك الروم عاد خرج إلى البلاد سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة»[٢٩]، مما يوحي أن أسامة سبق له وأن ذكر خروج الروم إلى الشام في القسم الضائع. وهذا ما يؤكده المؤرخون. فقد ذكر ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٣٠ هـ أن ملك الروم خرج إلى الشام في هذه السنة فقال: «وردت الأخبار في ذي القعدة بظهور متملك الروم من القسطنطينية، بل قيل في أول المحرم سنة ٥٣١ هـ ووصل إلى جزيرة أنطاكية وأقام بها ونزل على نيقية فملكها ووصل إلى الثغور وتسلم أذنة والمصيصة وغيرها وحاصر عين زربة وملكها عنوة. . . ورحل عائداً إلى الدروب»[٣٠].

٣ ـ ويذكر ابن الأثير[٣١]: أن أسامة شارك نور الدين محمود في حصار حارم في سنة ٥٥٧ هـ فقال: «وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية»، إلا أننا لا نجد لهذا الحصار ذكراً في كتاب الاعتبار، فلعل أسامة ذكر هذه الوقعة أو شيئاً يتعلق بها في القسم الضائع من الكتاب.

ولو تتبعنا الحوادث والمصافات التي استقصاها الذهبي ـ رحمه الله ـ

---

(٢٦) كتاب الاعتبار ١٧٣.

(٢٧) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣.

(٢٨) مفرج الكروب ١/٥٤، ابن الأثير ٨/٢٤٣.

(٢٩) كتاب الاعتبار ٢٦.

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٧ ـ ٢٥٨، مفرج الكروب ١/٧٦.

(٣١) الكامل ١١/٢٥٨، كتاب الروضتين ١/٣١٧.

Marfat.com

في النص الذي أوردناه في «نصوص ضائعة» من تاريخ الإسلام وعارضناها بكتاب الاعتبار من وقعة المصريين مع رضوان بن الولخشي في سنة ٥٤٢ هـ وإلى سنة ٥٤٩ هـ لوجدناها تتفق تماماً مع ما أورده أسامة في كتابه. ومع أن أسامة قد ذكر مصافات أخرى في ثنايا الكتاب إلا أن الذهبي ـ على ما يبدو ـ لم يعن باستقصاء كل الحوادث التي ذكرها أسامة. ومع كل هذا فقد أحسن الذهبي صنعاً فإنه حفظ لنا شيئاً من مقدمة الكتاب وشيئاً من محتوى القسم الضائع منه.

* * *

لقد عرف المؤرخون المسلمون كتاب الاعتبار، فمنهم من ذكر أنه امتلك نسخة منه كالذهبي، ومنهم من نقل منه حرفياً كأبي شامة في كتاب الروضتين وابن واصل في كتاب مفرج الكروب والمقريزي في كتابيه: اتعاظ الحنفا والمقفى الذي لم يزل مخطوطاً. ومنهم من اقتبس منه مباشرة أو بالرواية كابن العديم في كتابيه: بغية الطلب وزبدة الحلب وابن شداد في الأعلاق الخطيرة(٣٢). ومنهم من ذكر اقتباسه صراحة ومنهم من أغفل ذكره وعزاه إلى أسامة، وقد تتبعت كل هذه الاقتباسات وأشرت إليها في مواضعها من الكتاب.

وعرف المستشرقون وغير المستشرقين من المعنيين بتاريخ الحروب الصليبية كتاب الاعتبار أيضاً بعد أن حققه ديرنبورج ونشره في لايدن ثم ألحقه بدراسة موسعة عن أسامة وأسرته وكتابه. ثم ألحق كل هذا بترجمة للفرنسية نشرها في باريس سنة ١٨٩٥، فبدأ المستشرقون في دراسته فظهرت مقالات عديدة وكتباً اعتمد فيها مؤلفوها على كتاب الاعتبار وبدأت الترجمات إلى اللغات الأوربية تظهر، فترجم الكتاب إلى الإنجليزية مرتين وإلى الألمانية ثلاث مرات والدنماركية والروسية والبولندية. وحديثاً ظهرت ترجمتان جديدتان للفرنسية لأندريه ميكيل وللألمانية لهولجر برايسلر Holger Preissler.

فمن ترجمات الكتاب درس المعنيون من الأوربيون الكتاب واعتمدوا

---

(٣٢) الأعلاق الخطيرة (تحقيق الدهان) ٢٦٠ ـ ٢٦١، نقل حكاية رقم: ٩ باختصار.

Marfat.com

على المعلومات التي أوردها أسامة فيه. فدرسوا ما فيه من معلومات تتعلق بنظرة المسلمين للفرنجة وللنصرانية والعلاقات اليومية بين الصليبيين والمسلمين وأثر العادات الإسلامية والحضارة الإسلامية بمجالاتها المختلفة على أوربا.

ولما ترجم فيليب حتي ـ اللبناني الأصل ـ الكتاب إلى الإنجليزية ونشر هذه الترجمة في نيويورك سنة ١٩٢٧ ألحقها بتحقيق جديد للكتاب معتمداً على مخطوطة الأسكوريال الفريدة ومستعيناً بنشرة ديرنبورج الذي اعترف له بفضل السبق فقال في مقدمته للكتاب: «ولا بد لي هنا من الاعتراف أن الأستاذ ديرنبورج جاهد قبلي جهاد العلماء الأبطال في حل ألغاز المخطوطة العربية وكشف معمياتها، وإني مدين له بالشيء الكثير من حيث قراءة وفهم المراد»(٣٣)، بيد أن عمل فيليب حتي لم يلق استحساناً من الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله ـ فكتب:

«فما ندري السبب الذي حمل محرره على نشره ثانية بعد أن أحياه بالطبع في سنة ١٨٨٤ في لايدن العلامة هرتويغ ديرنبورغ من علماء المشرقيات في فرنسا... وذلك من المخطوط نفسه المحفوظ في خزانة الأسكوريال في إسبانيا... أما ما سها عنه العلامة الناشر الأول وهو أعجمي فإن الناشر الثاني وهو عربي لم يقل عنه هفوات...»(٣٤).

الحق أن فيليب حتي قد أحسن كثيراً في إخراج الكتاب مرة ثانية، فهو قد يسرّه للقارىء العربي بعد أن فقدت نشرة ديرنبورغ من الأسواق لقلة الأعداد التي طبعت من الكتاب أولاً، ثم إنه صحح كثيراً من أخطاء نشرة ديرنبورج التي شاعت فيها الأخطاء الفاحشة مع سهولة قراءتها في المخطوطة ثانياً. فاستطاع فيليب حتي أن يخلص الكتاب من كثير من الهنات والسقطات التي فاتت على ديرنبورج.

---

(٣٣) كتاب الاعتبار، نشرة فيليب حتي، (برنستون ١٩٣٠) المقدمة ز.

(٣٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، الجزء التاسع من المجلد العاشر (١٩٣٠) ٧٧٢ ـ ٧٧٣.

Marfat.com

ومع هذا فإن نشرة فيليب حتي لم تخل من سوء في القراءة وفي الفهم: فهي مليئة بالهفوات الساذجة والأخطاء الكثيرة في قراءة النص وبخاصة في أسماء مدن الشام وفي تعليقاته في الحواشي التي تدل على ضعف شديد في اللغة العربية وعلى سطحية واضحة في الثقافة التاريخية والجغرافية مما حفّز المستشرق هاملتون جب على أن يكتب مقالاً في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن[٣٥]، صحح فيه بعض أخطاء القراءة والترجمة.

ولما عرض الأستاذ الفاضل عبد العزيز عبد الكريم التويجري صاحب مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ومؤسسة دار الكتاب السعودي بالرياض عليَّ إعادة تحقيق الكتاب على نسخة الأسكوريال الفريدة، رحبت بذلك، فأرجو من الله تعالى أنني قد وفقت إلى تخليص الكتاب من أكثر الهفوات التي وقع فيها كل من ديرنبورج وفيليب حتي فقد عانيت في ذلك صعوبة جمة لا يعرفها إلا من كابد التحقيق وعاناه وبخاصة إذا كانت المخطوطة فريدة وسقيمة وناقصة.

صيت الكتاب في العالم العربي:

لقد تعرف القراء والكتاب العرب على كتاب الاعتبار من نشرتي ديرنبورج وفيليب حتي ولعل أكثرهم[٣٦] لم يعرف نشرة ديرنبورج، فاعتمد الكتّاب العرب على معلومات الكتاب في مقالات وكتب كثيرة جداً لا تتسع هذه المقدمة لاستقصائها وتعدادها وحسبي أن أشير إلى من أفرد أسامة بدراسة مفردة: فقد كتب الأستاذ جمال الدين الألوسي كتاب: أسامة بن منقذ (بغداد ١٣٨٧ هـ) والدكتور أحمد كمال زكي كتاب: أسامة بن منقذ (القاهرة ١٩٦٨) والأستاذ محمد أحمد حسين كتاب: أسامة بن منقذ ـ صفحة من تاريخ الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٤٦) والأستاذ حسن عباس كتاب: أسامة

---

(٣٥) انظر مقال هاملتون جب في مجلة: B.S.O.A.S., vol. 6, (1930-2) pp. 1003-1011.

(٣٦) ذكر الأستاذ حسن عباس في دراسته لحياة أسامة وآثاره (الاسكندرية ١٩٨١) عدداً كبيراً من الكتاب العرب الذين درسوا كتاب الاعتبار وأبدوا آراءهم فيه وفي أسلوبه ومعلوماته.

Marfat.com

ابن منقذ، حياته وآثاره (الإسكندرية ١٩٨١) في جزئين. وهو أحسن ما كُتبَ عن أسامة. فقد درس حسن عباس حياة أسامة وأسرته وشعره وكتبه بما فيها كتاب الاعتبار دراسة نقدية فاحصة استوفى فيها المصادر المخطوطة والمطبوعة التي وصلت إليها يده، وصحح بعض آراء الكتاب الذين سبقوه في الكتابة عن أسامة وعصره، وقد أصاب حين قال:

«أما كتابه الاعتبار الذي ترجم فيه لنفسه ووصف الحروب والمعارك التي خاضها والملوك والقواد الذين عايشهم فيعد بحق أخطر وثيقة تاريخية تأدت لنا عن عصره، لذا احتفى به مؤرخو العصر الصليبي في الشرق والغرب على السواء، ولقد عرف له المستعربون قدره فترجم لغير لغة. . . وأخبار هذا الكتاب بلغت حداً من الدقة والحبكة بحيث أصبحت مستغنية بنفسها عن الشروح حتى ليصعب التعليق عليها»(٣٧).

وكتب الشيخ طاهر النعساني ـ رحمه الله ـ مقالاً طويلاً عن أسامة وحياته استند في معلوماته على كتاب الاعتبار (نشرة حتي) وعلى مصادر ترجمته، ونشره أولاً في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق(٣٨). ثم نُشر هذا المقال في كتاب مفرد في مدينة حماة السورية.

ونشر الدكتور أحمد كمال زكي رواية طريفة ماتعة بعنوان: فارس الفرسان (القاهرة ١٩٧٤) اقتبس حوادثها وأشخاصها من كتاب الاعتبار.

صلاح الدين الأيوبي وكتاب الاعتبار:

المعروف أن أسامة كتب كتاب الاعتبار في دمشق في حدود سنة ٥٧٨ هـ. فهو يذكر فيه: «ولم أدرِ أن داء الكبر عام يعدي كل من أغفله الحمام، فلما توقَّلت ذروة التسعين. . .» ونحن نعرف أيضاً أن السلطان صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ استدعاه إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ من حصن كيفا الذي كان قد اتخذه مسكناً. ويروي لنا العماد الأصفهاني أن

---

(٣٧) حسن عباس: أسامة بن منقذ، حياته وشعره، ٢/٢٦٥.

(٣٨) المجلد العاشر، الجزء ٤ ـ ٥، ٢٣٠ ـ ٢٣٧، ٣٠٥ ـ ٣١٦، (السنة ١٩٣٠)

Marfat.com

صلاح الدين قرب أسامة إليه لخبرته وتجاربه مع الصليبيين، فكان يستشيره ويستأنس برأيه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاتـه ووقعاته واستخراج رأيه في كشف مهماته وحل مشكلاته. وقد كان صلاح الدين قد وهبه ضيعة من أعمال المعرة قال أنها كانت قديمة تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وادراراً(٣٩).

ولم يكن أسامة غريباً على صلاح الدين فإن ابنه مرهف كان جليس صلاح الدين ونديمه وأنيسه وقد كتب ديوان أبيه له على ما أخبرنا العماد الأصفهاني، بل كان صلاح الدين مشغوفاً بذكره مستهتراً بإشاعة نظمه ونثره. وقال العماد: «كنت ليلة عند السلطان وهو يذكر جماعة من الشعراء وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة وهو به مشغوف»(٤٠). فلعل أسامة كتب كتاب الاعتبار لصلاح الدين وأهداه له في مقدمته التي ضاعت مع ما ضاع من أوله، وإلا فإن ما قاله أسامة في صلاح الدين في نهاية كتابه تدل على شكرٍ عميق وعرفانٍ جمٍّ بالجميل، فقد «نقَّب صلاح الدين عنه في البلاد واستنقذه من أنياب النوائب برأيه الجميل، وحمله إلى بابه العالي بإنعامه الغامـر الجزيل، فغمره بغرائب الرغائب ورعى له بفائضِ الكرم ما أسلف سواه من الخدم»، لا يخرج عن الإهداء.

بل لعل أسامة أراد من كتابه أن ينبه السلطان صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ إلى أن: «الموت لن يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر، وأن العمر موقت لا يتقدم ولا يتأخر، وأن القلوب لو صفت من كدر الذنوب فوصلت إلى عالم الغيوب علمت أن ركوب أخطار الحرب لا ينقص مدة الأجل المكتوب»، وأن جهاده في الفرنج ومقارعته إياهم وركوبه الأخطار في إجلائهم لن يقدم أجله ولن يؤخره، لأن النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب ولا تدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير. وهذا الموضوع هو بالذات الذي أراده أسامة في كل كتابه وقصد إلى تبيانه ليستثير عزم صلاح

---

(٣٩) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/٦٧٨ (القاهرة ١٩٦٢) بتحقيق محمد حلمي مراد.
(٤٠) خريدة القصر (قسم الشام) ١/٤٩٨ ـ ٤٩٩، سنا البرق الشامي ١٨٦، الروضتين ١/٢٤٧.

Marfat.com

الدين حتى يجدَّ في جهاد الفرنج. فقد كان «الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه (إلى صلاح الدين) يحثه على الجهاد»[٤١] كما يقول ابن شداد. فلربما أراد أسامة هذا وقصد إليه في كتابه.

وهناك أمر آخر وهو أن كتاب الاعتبار انتهى في الواقع في ورقة ٥١ ب من الأصل الذي وصل إلينا إلا أن أسامة أضاف إليه فصلاً في الطرف والأخبار وحكايات الصالحين قال فيه: «هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني ببعضها من أثق به جعلتها إلحاقاً في الكتاب، إذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم» ثم ألحق بهذا الفصل فصلاً آخر فيما حضره وشاهده من الصيد والقنص والجوارح مما يمكن أن يعد من أحسن ما كتب في الصيد والقنص بالجوارح والكلاب والفهود من كتابات القرن السادس للهجرة، مما يعني أن أسامة قد أملى الكتاب أولاً ثم ألحق به هذين الفصلين بعد إتمامه وذلك لأن لغة الفصلين الأخيرين تختلف عن لغة بقية الكتاب في كونها لغة كتابية أقرب إلى لغة أسامة الأدبية في كتبه الأخرى.

لغــة الكتــاب:

لقد أدرك كل من تناول كتاب الاعتبار بالدراسةأن لغته وأسلوبه يختلفان عن لغة أسامة الأدبية وأسلوبه المعروفين في كتبه الأخرى التي وصلت إلينا، فهما أقرب إلى لغة الكلام العامية الوسطى منهما بالأدبية، فيقول المستشرق الألماني يوهان فوك في دراسته لغة شعر أسامة: «وهكذا يجري الفارس العربي المشهور أسامة بن منقذ على الحدود والقوالب العربية المتوارثة... بيد أنه في الحديث عن ذكرياته ومغامراته... يخرج عن قيود اللغة الأدبية فيكتب في أسلوب عربي طبيعي بسيط، يبدو فيه كثير من الطابع العام المتعارف اليوم في اللغة العربية السورية»[٤٢]. ورأى بروكلمان: أن أسامة «مع تمكنه من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره على ما نراه في كتبه

---

(٤١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (القاهرة ١٣١٧ هـ) ١٦ ـ ١٧

(٤٢) العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمه عبد الحليم النجار (القاهرة ١٩٥١) ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

Marfat.com

الأخرى، قد ازدرى هذه اللغة بالكلية في مذكراته هذه (يعني كتاب الاعتبار) فإنه هنا يقص علينا في لهجة قصصية بسيطة مختلف مغامراته في الحرب والسلم والطرد»[٤٣]. وفي لغة الكتاب وأسلوبه يقول حسن عباس: «بهذا الأسلوب البسيط القريب إلى اللغة الدارجة كتب أسامة مذكراته ليحقق لها الذيوع والانتشار بين العامة والخاصة على السواء فيجعل منها سيرة شعبية تتداولها الأيدي وتتناقلها الألسن»[٤٤]. ولو كان الأمر كما قرره حسن عباس لوصلت إلينا نسخ عديدة من الكتاب: فلم تتداوله الأيدي ولم تتناقله الألسن، وكل الذي وصل إلينا منه نسخة ناقصة ومطموسة نسخها ناسخ مجهول من نسخة كتبها حفيد مرهف بن أسامة لنفسه وقرأها على جده في سنة عشر وست مئة.

الحق أن لغة الكتاب ليست أدبية وهي ليست عامية أيضاً بالرغم من كثرة أخطائها النحوية واستعمال ما يسمى بلغة «أكلوني البراغيث» مثل ما ورد «فصبحونا الإفرنج»، «فاقتطعوهم الروم»، وخلو بعض الجمل من حروف التعاقب مثل: «فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث رحمه الله طعنها قتلها» أو «فطعنته وسّطت القنطارية فيه». أو مثل: «كان عندنا أخَوَان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة»، ويعني أنهما لم يكونا من الفرسان، وأمثال هذا. إضافة إلى الأخطاء النحوية الكثيرة.

كل هذا وأمثاله حمل بعض الدارسين على القول بأن أسامة في مذكراته هذه هجر لغته الأدبية وكتب بالعامية التي كانت شائعة في الشام إذ ذاك. والأمر كما أظن ليس كذلك إلا إذا وقعت نسخة أخرى لم تنتسخ من هذه النسخة التي بين أيدينا فيحق عندها الحكم على لغة الكتاب وأسلوبه. أما إذا افترضنا أن الكتاب كان قد أملاه أسامة في قسمه الأول فإن هناك أكثر من دليل يؤيد ما ذهبنا إليه. فلعل أسامة كان يحدث جماعة من الناس فكتبه

---

(٤٣) الامبراطورية الإسلامية وانحلالها (تاريخ الشعوب الإسلامية) (بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٥٤)، ٢/١٣٣.

(٤٤) أسامة بن منقذ: حياته وآثاره ٢/٨٣.

٢٢ م
132343

Marfat.com

بعضهم بلغته الخاصة فأضاف إليه أسامة الفصلين الملحقين في نهايته.

إن كثرة التصحيفات والأخطاء وربما التعابير العامية الواردة في النص لم تكن ـ كما أظن ـ من صنع أسامة نفسه وهو الـذي قال فيـه العماد الأصفهاني: «وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه»(٤٥). فلعل أحد النساخ كان يملي من النسخة الأصل والآخر يكتب وكان المملي كثير الخطأ في القراءة والناسخ يكتب ما يسمع منه، لأن هذه النسخة ليست هي النسخة التي قرأها أحمد بن أبي بكر محمد بن أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ على جده مرهف بن أسامة. فقد كان مرهف بن أسامة أديباً ومؤرخاً نقل ابن العديم كثيراً من خطه وكان لمرهف ولدان: مرهف وحسام الدين أبو بكر محمد وكانا مؤرخين أيضاً(٤٦). أما أحمد بن حسام الدين أبي بكر محمد بن مرهف بن أسامة فقد كان كاتباً وناسخاً مجيداً وقد وصل إلينا كتاب الأحكام السلطانية بخطه الجميل الواضح(٤٧) الذي كتبه سنة ٦٨٢ هـ فمن غير المقبول عقلاً أن مرهف بن أسامة قد أجاز حفيده أن يروى هذه النسخة بما فيها عنه عن أبيه وهو الذي قال فيه ياقوت: «فارقته في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وست مئة بالقاهرة.. وكان قد أقعد لا يقدر على الحركة إلا أنه صحيح العقل والذهن والفطنة والبصر، يقرأ الخط الدقيق»(٤٨).

ولم تقتصر ملاحظات الدارسين على لغة وأسلوب كتاب الاعتبار بل إنهم تناولوا الكتاب في مادته التاريخية وتنظيمه لمادته فقال كلود كاهن: «وأهم كتاب أدبي له هو كتاب الاعتبار فقد ذكر فيه ذكرياته وهي «Code de

---

(٤٥) معجم الأدباء، لياقوت (نشرة أحمد فريد رفاعي) ٥/٢٩٢.

(٤٦) انظر ملاحق ديرنبورج (نص بغية الطلب لابن العديم) ٥٧٧، ٥٧٩.

(٤٧) مخطوطة المكتبة السعودية، بدار الإفتاء ـ الرياض، رقم ٤٩٨/٨٦. وقد وصف المخطوطة في: الخط العربي من خلال المخطوطات (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (الرياض ١٤٠٦ هـ)، صفحة ١١٠.

(٤٨) معجم الأدباء: ٥/٢٤٣. وعن حسام الدين أبي بكر محمد بن مرهف بن أسامة، انظر الدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردي، تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ (القاهرة ١٩٨٣) ٢/٨٢٣.

Marfat.com

parfait gentilhomme» تصرُّفات رجل كامل نبيل، أما استخدامه للحقائق التاريخية فقد كانت مضطربة لأنه لم يلتزم بالتسلسل التـاريخي، ويمثل الكتاب نموذجاً عالياً للنثر العربي»(٤٩). ويقول فرانس روزنتال فيه: «تعامل أسامة في كتاب الاعتبار مع كثير من تجاربه الشخصية مما يظهره ملاحظاً جيداً وشخصية إنسانية متكاملة، إلا أن العناصر الفلسفية الشعبية في كتاب الاعتبار أكثر قوة من العناصر التاريخية»(٥٠). أما فيليب حتي فيرى أن «الكثير من المادة جاء دون تنظيم منطقي، وفي أماكن غير خاصة»(٥١). ويأخذ شوقي ضيف على هذه المذكرات أنها: «لم تكتب بشكل منطقي منسق على الزمن وتطوره وامتداده، وإنما كتبت في شكل أخبار من هنا وهناك»(٥٢).

إن الغرابة الواضحة في هذه الآراء تكمن في أن أصحابها نظروا إلى كتاب الاعتبار على أنه كتاب تاريخي وهو ليس كذلك مع احتوائه على معلومات تاريخية موثوقة لا نجد لها مثيلاً في كتب التاريخ التي سجلت لنا حوادثها. واختلاف هذه المعلومات يأتي من أن أسامة شاهدها بنفسه وشارك في وقائعها بينما نقل المؤرخون هذه الحوادث حين لم يعاصروها من وثائق تاريخية مكتوبة أو روايات مسموعة ربما أثر العامل الشخصي في اختصارها وتفسيرها تأثيراً بالغاً. والكتاب بعد كتاب ذكريات استدعاها أسامة بعد حين من الدهر فرواها بتواريخها التي تثير الدهشة والإعجاب بدقتها وضبطها. ثم إن أسامة لم يكن معنياً بكتابة تاريخ على طريقة المؤرخين الحولية ولم يقصد إلى ذلك وإنما كان همه منصبّاً على تسجيل ما مرَّ به في حياته ليؤكد موضوعاً واحداً يدور الكتاب برمَّته حوله. وهذا الموضوع هو الذي حداه إلى اختيار عنوان الكتاب، فقد أكد أسامة: «ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من

---

(٤٩) Cl. Cahen, La syrie du Nord, Paris 1940. pp. 44-46.

(٥٠) F. Rosenthal, A History of Muslin Historiography, Leiden 1968. p. 173.

(٥١) مقدمة كتاب الاعتبار: هـ.

(٥٢) الترجمة الشخصية (القاهرة ١٩٧٠) الطبعة الثانية ٩٤. استقصى حسن عباس آراء الكتاب العرب في كتاب الاعتبار وأشار إلى مؤلفاتهم في: أسامة بن منقذ، حياته وآثاره ٢/٢٢٤ ـ ٢٥٢ ورد عليهم.

Marfat.com

الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام والجروخ، وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين»(٥٣). وهذه العبرة والاعتبار لم تغب عن خاطر أسامة وهو يسجل ذكرياته فتستدعي الحكاية حكاية أخرى مشابهة أو مماثلة أو فيها شيء من المشابهة والمماثلة، وقد يستطرد فينقل القارىء إلى عالم آخر ثم يعود معتذراً إلى الخيط الذي تنتظم فيه كل هذه الحكايات والواقعات دون تضاد أو تنافر.

مخطوطة الكتاب:

سبق لنا أن أشرنا إلى أن مخطوطة كتاب الاعتبار الفريدة محفوظة في مكتبة دير الأسكوريال ـ قرب مدريد باسبانيا وهي ناقصة كراستين كاملتين وورقة واحدة من أولها، أي: أنها ناقصة إحدى وعشرين ورقة فقط بما فيها ورقة العنوان. وقد عرفنا هذا من النظام الذي اتبعه الناسخ في ترقيم الكراسات التي تحتوي كل كراسة على عشر ورقات. فقد كتب الناسخ في الزاوية اليمنى من أعلى ورقة ١٠ أ ما نصه «الاعتبار لابن منقذ»، وفي الزاوية اليسرى من الورقة نفسها كتب: «رابعة» أي: الكراسة الرابعة. وقد اتبع هذا النظام في جميع المخطوطة. وهذه الورقة هي الثلاثون على تقسيم الناسخ. ومعنى هذا أننا فقدنا الورقة الأولى من الكراسة الثالثة إضافة إلى الكراستين الأولتين. وعلى هذا فإن المخطوطة كانت تشتمل على ٨٨ ورقة وصل إلينا منها ٦٧ ورقة فقط بما فيها الأوراق التسع الأولى من الكراسة الثالثة فقط.

تشتمل المخطوطة أيضاً على ورقة أضيفت إلى المخطوطة في أولها كتب عليها روزانسكي بالاسبانية ما معناه: «قطعة حول الحروب الصليبية تبدأ في سنة ٥٣٩ للهجرة».

«Fragmentos sobre las guerras de las Cruzadas empezando por la Egira 539».

وأعطاها رقم: ١٩٤٧. ولما فهرس برولیو خوستبل كلاوزو

(٥٣) كتاب الاعتبار ١٨٢.

Marfat.com

المخطوطات التي لم تفهرس لم يعرف كتاب الاعتبار ولم يطلع ـ كما يبدو ـ على ما نُشِر وتُرجِم من الكتاب. وكل الذي فعله أنه نسخ تعليق روزانسكي ورقمه وقال: «٦٦ ورقة، ٥، ١٩ × ١٤ سم، ٢٣ سطراً لكل صفحة، خط مشرقي»(٥٤).

لقد أصاب في وصف خط المخطوطة فهو خط النسخ المشرقي الذي يحتوي على بعض خصائص خط النسخ الرئاسي وناسخ المخطوطة على ما يظهر ليس شامياً لشيوع التصحيف والتحريف في المدن الشامية فلا بدّ من الافتراض أنها كتبت في مصر من نسخة حفيد مرهف بن أسامة في حدود سنة قراءة الأصل التي كانت في سنة عشر وست مئة حيث كان حفيد مرهف مع جده في مصر إذ توفي مرهف في سنة ثلاث عشرة وست مئة.

أما كيف وصلت المخطوطة إلى الأسكوريال فيحدثنا الدكتور محمد حجي عن العهد السعدي في المغرب واهتمام الملوك السعديين بجمع الكتب ونسخها فقال: «وبلغت المكتبة السعدية ذروة مجدها مع أحمد المنصور الذي رتبٍ لها في قصره خطاطين ماهزين للنساخة وفنانين للتجليد والتزويق... فضلا عن الوراقين المشارقة الذين لم يفتروا عن إمداده بما ينتجون في القاهرة واصطمبول والحرمين الشريفين»(٥٥). فلا بدّ أن هذه النسخة وصلت إلى المكتبة السعدية بطريق أو بآخر في حدود القرن العاشر للهجرة.

ولما تولى زيدان بن أحمد المنصور الحكم ثار عليه أحمد بن أبي محلي في سنة ١٠٢٠ هـ فانهزم زيدان منه. وقد حاول زيدان نقل هذه المكتبة معه فحمل في جملة ما استطاع أن يحمل من الذخائر ثلاثة آلاف كتاب إلى مرسي آسفي لينقلها في سفينة كاسطيلان الفرنسي إلى اكدير. لكن

---

(٥٤) Braulio Justel Calabozo, La Real Biblioteca El Escorial y sus Manuscriptos Arabes, Madrid 1978, p. 264.

هناك خطأ في عدد الأوراق وخطأ آخر في السنة التي وقعت فيها الوقعة الأولى من القسم الذي وصل إلينا من كتاب الاعتبار.

(٥٥) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين (الرباط ١٣٩٦ هـ /١٩٧٦ م) ١/١٩٠.

Marfat.com

ربان السفينة فرّ بالحمولة الثمينة في اتجاه مرسيليا فاعترضت طريقه سفن قرصانية اسبانية فأسرت السفينة وأرسلت الكتب إلى الأسكـوريال. وقـد انقضت صاعقة على دير الأسكوريال في سنة ١٠٨١ هـ (١٦٧١) فأحرقت عدداً كبيراً من المخطوطات العربية(٥٦). ولما جرت محاولة إطفاء الحريق أصاب الماء بالطبع بعض هذه المخطوطات التي لم تحترق وهذا ما نراه واضحاً في الورقات الثلاث أو الأربع الأولى من مخطوطة كتاب الاعتبار إذ كاد النص ينطمس تماماً لولا جودة المداد فكانت قراءتها عسيرة للغاية إلا في مواضع فقد اختفت الكلمات تماماً فكانت قراءتي لها تخمينية كما أشرت إلى ذلك وهي ليست كثيرة.

عملـــي في التحقيـــق:

الحق أنني لم أعان في تحقيق مخطوطة عربية مثل معاناتي الجمة في فك معميات وتصحيفات وتحريفات هذه المخطوطة الفريدة، فإنني استبعدت في أول مراحل عملي في التحقيق كلاً من نشرة ديرنبورج وفيليب حتي ثم عدت إليهما فقارنت نصي مع نصهما فوجدت فروقاً هائلة أشرت إلى بعضها فيما سبق من هذه المقدمة ولم أشر إلى الفروق في القراءات بين تحقيقي ونشرة ديرنبورج بيد أنني أشرت في مواضع قليلة جداً إلى خطأ قراءة فيليب حتي لأنني خشيت إثقال الهوامش بقراءات لا معنى لها.

وأغفلت أيضاً الإشارات إلى الأخـطاء النحويـة والتصحيفات التي كانت ـ كما قلت ـ من صنع الناسخ وأشرت في الهوامش إلى أهم الأخطاء وأغفلت ما لم أره مهماً للقارىء.

وقد عملت على التأكد من أسماء ملوك الصليبيين وأمرائهم بالرجوع إلى المصادر الفرنجية دون الإشارة إلى هذه المصادر في الهوامش إلا أنني ذكرتها في جريدة المصادر ليطلع عليها المهتم من الدارسين.

كما ترجمت للأعلام الواردة في النص ترجمة مختصرة وأشرت في

---

(٥٦) المصدر نفسه ١/١٨٣ (حاشية ٣)، وانظر أيضاً: ريناو: ابن رشد والرشديه ٩٤

Marfat.com

بعضها إلى أكثر من مصدر إلا من لم أستطع العثور على ترجمة له وهم قلة، فلعل غيري ممن أوتي علماً وصبراً يستطيع أن يكمل نقصي فإن فوق كل ذي علم عليم، وليس لي ادعاء الكمال فإن الكمال لله تعالى وحده.

وكذلك فعلت بالمواقع والبلدان والأعلام الجغرافية، فقد رجعت في معرفتها إلى كتب البلدان والتراجم والأنساب وتأكدت من كثير منها بسؤالي بعض الإخوان السوريين الذين عرفتهم في الرياض، وقد أشرت إلى كل ذلك في الهوامش، فلكل هؤلاء الإخوان عميق شكري وفائق امتناني.

لقد حاولت ما وسعني الجهد وأسعفتني الطاقة أن أقدم للقارىء نصاً واضحاً جلياً كما كتبه أسامة أو أملاه أو في الأقل قريباً منه، لذلك لم أصحح النص ولم أعبث به إلا حين يغلبني اليقين في أن هذا اللفظ أو ذلك الحرف من صنع الناسخ فأبدله على حذر شديد ثم أشير إليه في الحاشية.

كما حاولت أن أستقصي الحوادث التاريخية الواردة في النص وأتتبعها في المصادر التاريخية المتوفرة في أيدينا فأشرت إلى مصدر واحد أو أكثر أحياناً.

أما أرقام الحكايات فهي لم ترد في المخطوطة وإنما هي مني أثبتُّها حتى تَسهُل الإشارة إلى الحكايات أو الحوادث التي اقتبسها المؤرخون من كتاب الاعتبار.

وأخيراً: فإنني لم أكتب شيئاً عن حياة أسامة كما هو معهود في المقدمات وذلك لأن الرجل معروف ومشهور وقد ترجمه كثير من أصحاب التراجم وكتب فيه وفي حياته الأساتذة الذين ذكرتهم في ما سبق. ثم إن هذا الكتاب هو في سيرة أسامة لذلك رأيت التكرار وإعادة ما كتب في حياته وسيرته لا فائدة ترجى منه، وحسب المعنيِّ بذلك الرجوع إلى هذه المظان للتعرف على ما يشتهي.

أرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت إلى ما نويت وإلى ما قصدت، وحسبي من عملي أن ينتفع به الدارسون وأن يثوبني الله تعالى عليه.

Marfat.com

وختاماً: لا بدّ لي أن أوفي الأخ الكريم عبد العزيز التويجري شكراً على صبره الطويل وأناته التي لم تنضبها وعودي المتكررة، فله أعبق الشكر وأجمل الثناء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قاسم السامرائي

لايدن ـ هولندا
ذو القعدة ١٤٠٦ هـ

Marfat.com

Marfat.com

كتاب الاعتبار

للأمير أبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي
ابن منقذ الشيزري الكناني الكلبي
٤٨٨ - ٥٨٤ هـ

تحقيق وتقديم
الدكتور قاسم السامرائي

Marfat.com

Marfat.com

نَمَاذج مِنَ المَخطُوطَة

Marfat.com

Marfat.com

نموذج رقم (١)
الورقة الأولى (أ) من المخطوطة

Marfat.com

نموذج رقم (٢)
الورقة الأولى (ب) من المخطوطة

Marfat.com

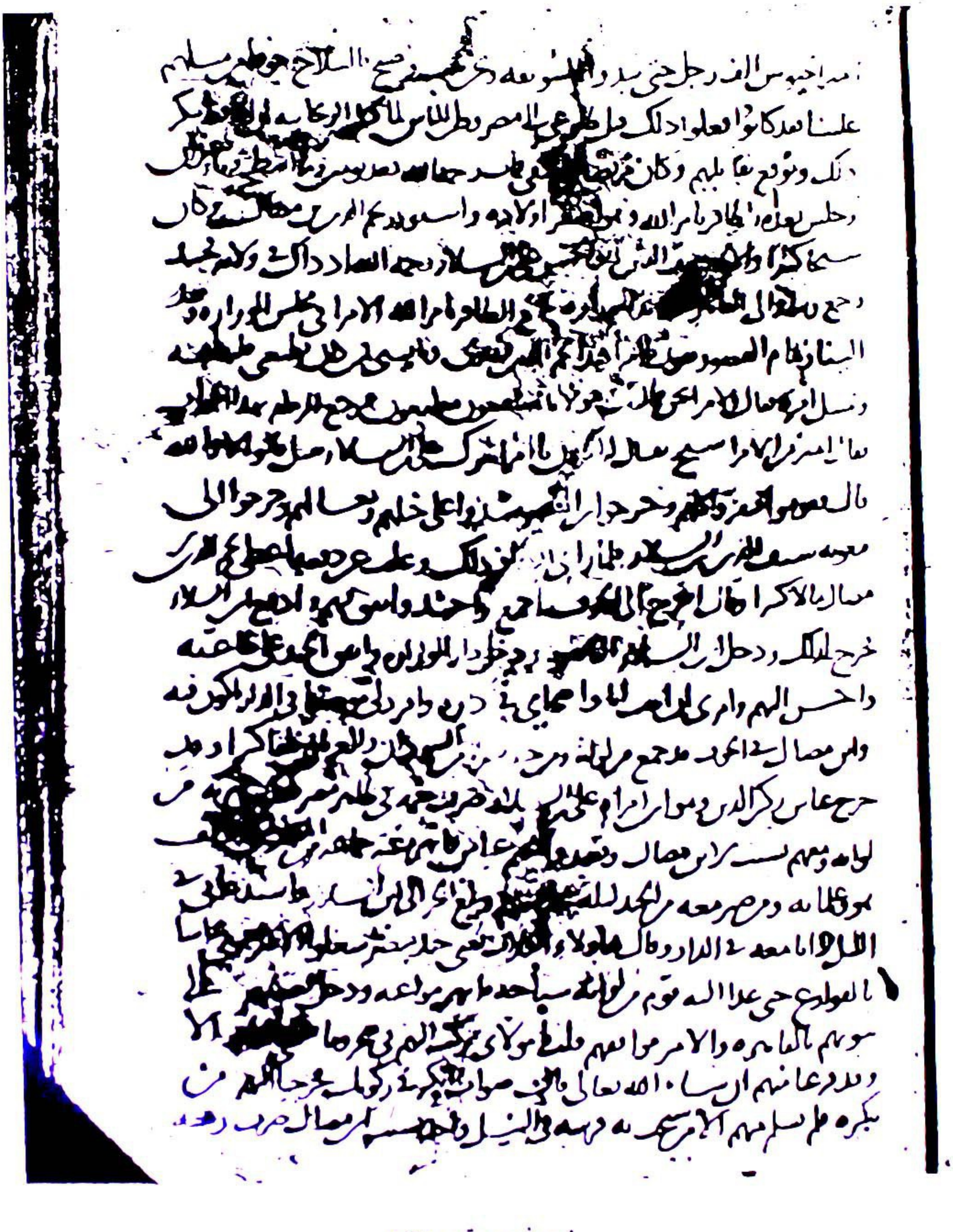

نموذج رقم (٣)
الورقة ٢ أ من المخطوطة

Marfat.com

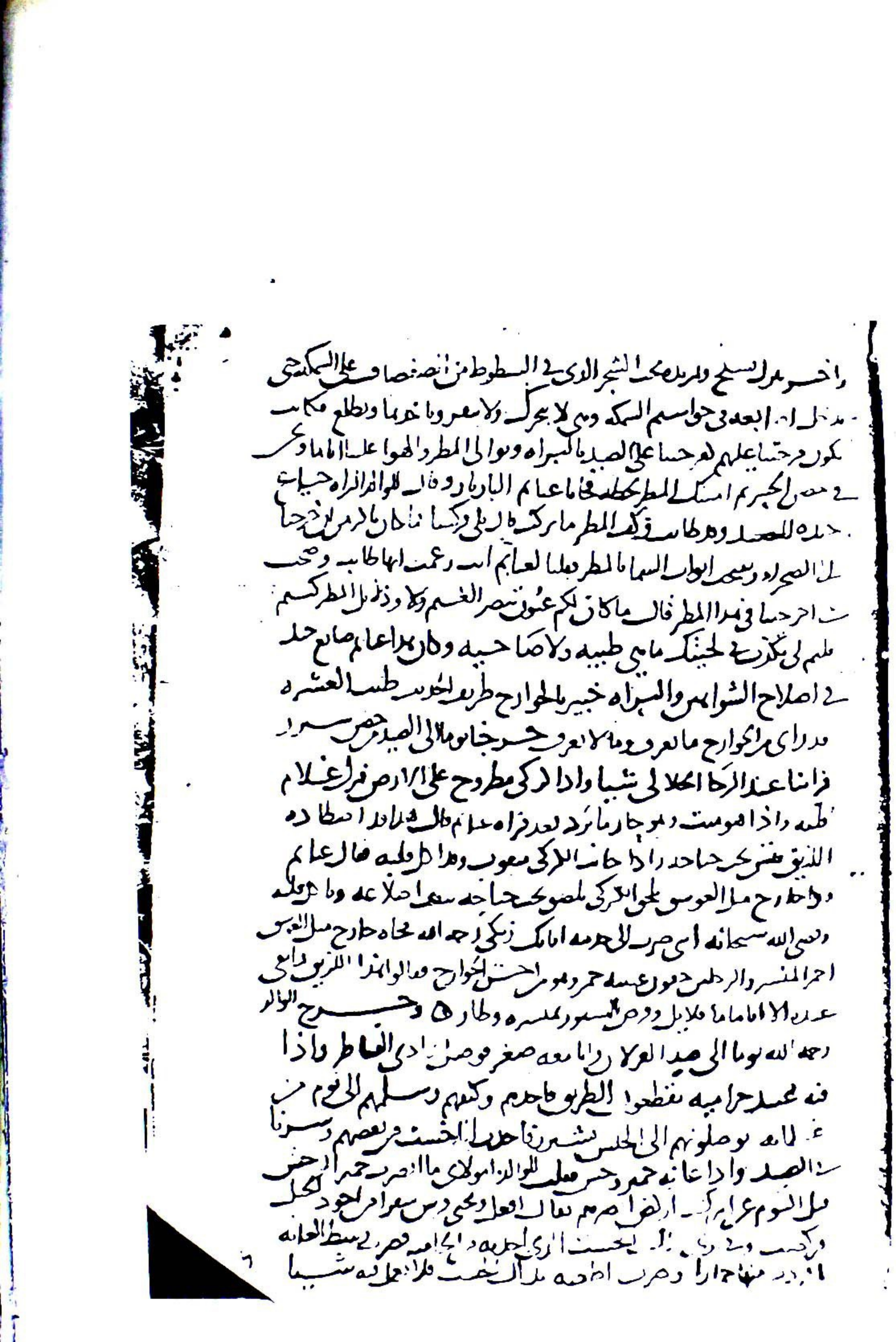

نموذج رقم (٤)
ورقة ٦٥ أ من المخطوطة

Marfat.com

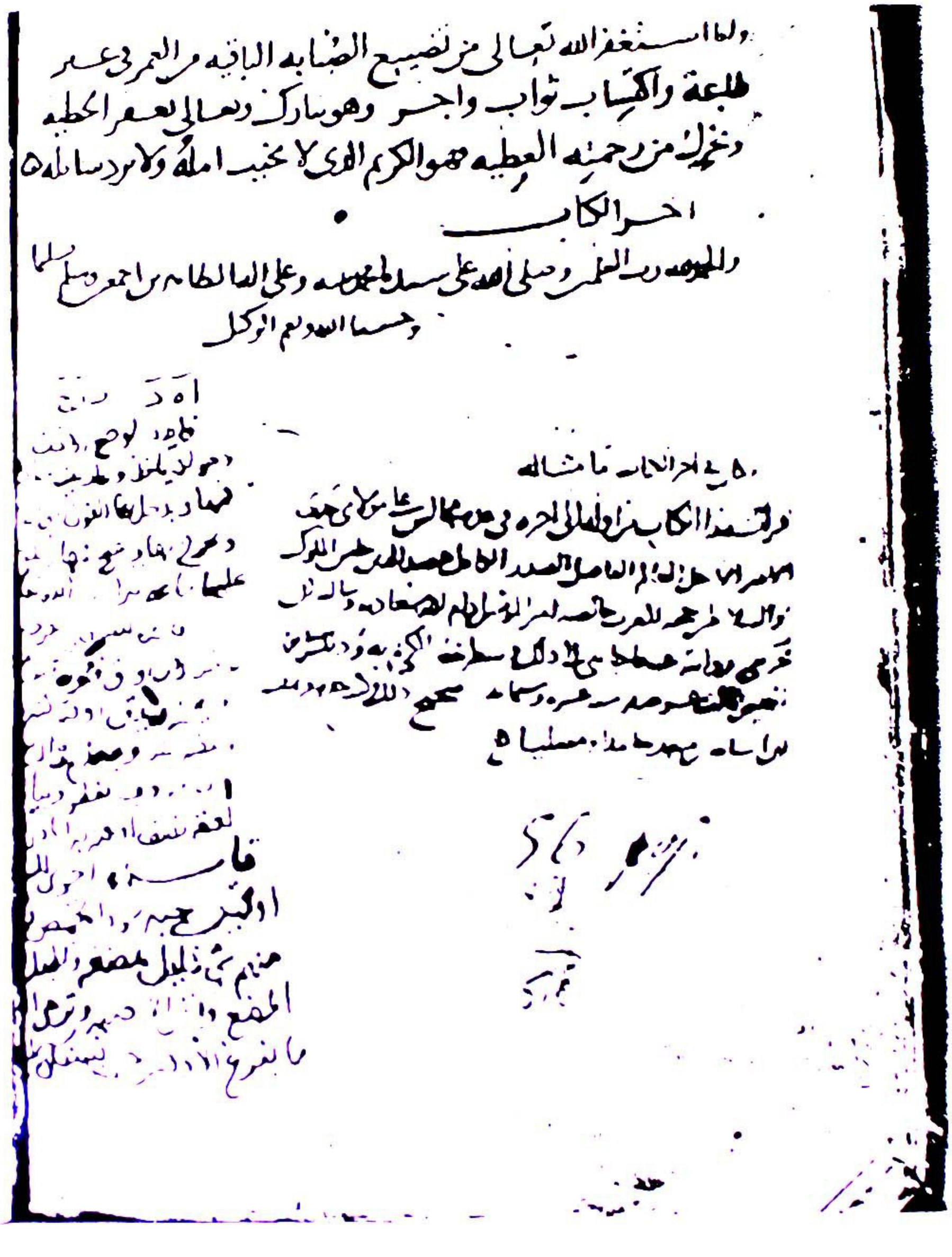

نموذج رقم (٥)
الورقة الأخيرة ٦٧ ب من المخطوطة

Marfat.com

سوريـــا الشماليـــة

Marfat.com

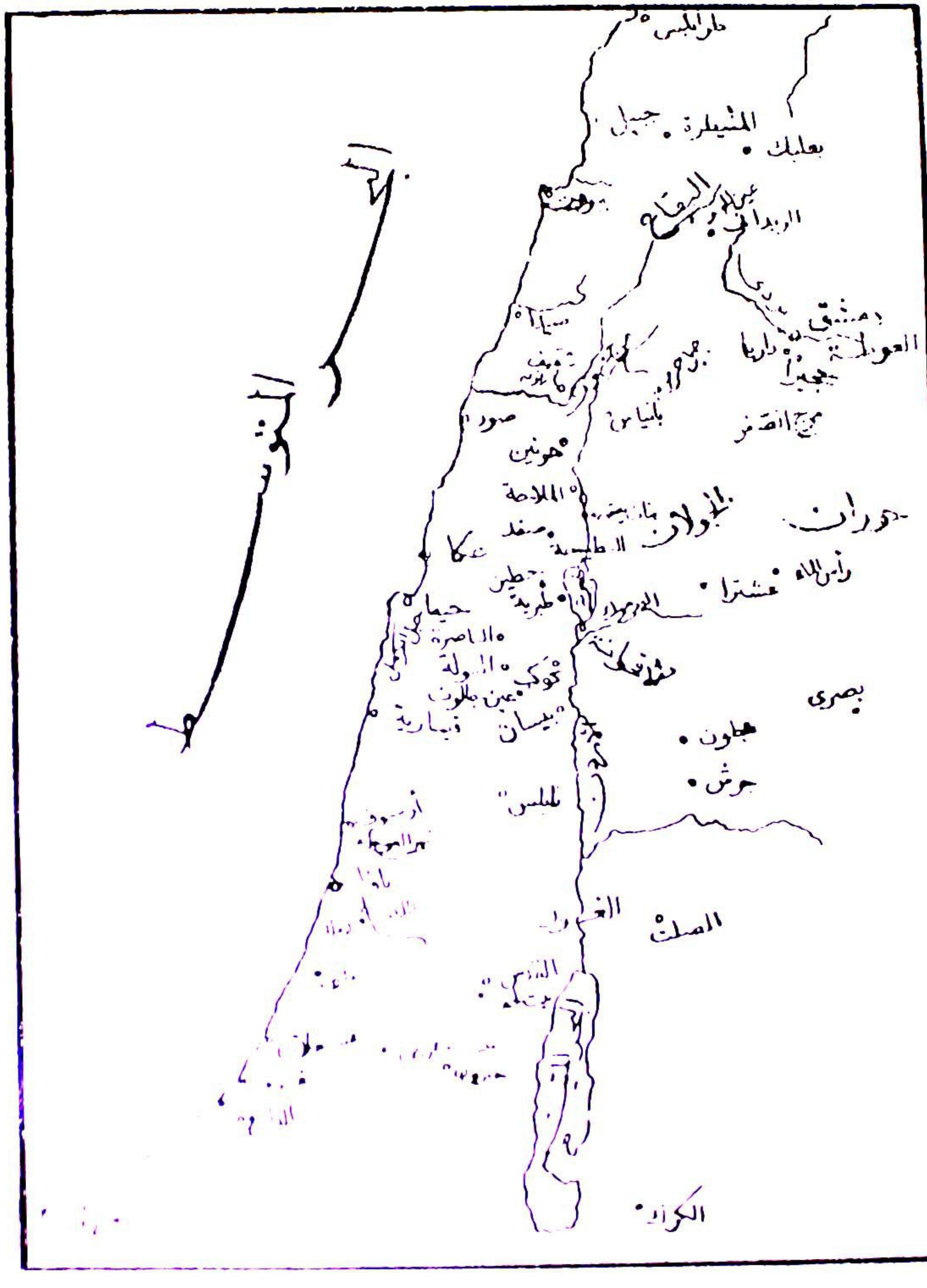

القسم الجنوبي من بلاد الشام

١١

Marfat.com

إقليـــم الجزيـــرة

Marfat.com

القِسْمُ الأوّلُ

نُصُوصٌ ضَائِعَةٌ مِنْ كِتَابِ الاعتِبَار

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ أ ـ

قال أبو الفدا في تاريخه ٣/٣٣.

«ونحن نورد أخبار بني منقذ محققة نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ـ وكان المذكور أفضل بني منقذ ـ قال:

«وفي سنة ثمان وستين وأربع مائة بدأ جدي سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بـن نصر بن منقذ الكناني بعمارة حصن الجسر وحصر به حصن شيزر.

أقول: ويعرف الجسر المذكور في زماننا بجسر ابن منقذ وموضع الحصن اليوم تل خال من العمارة وهو غربي شيزر على مسافة قريبة منها. رجعنا إلى كلام ابن منقذ قال:

وكـان في شيزر والٍ للروم اسمه دمتري فلما طالت المضايقة لدمتري المذكور راسل جدي هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه، منها مال يدفعه إلى دمتري المذكور، ومنها إبقاء أملاك الأسقف الذي بها عليه، فإنه استمر مقيماً تحت يد جدي حتى مات بشيزر، ومنها أن القنطارية(*) وهم رجاله الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين

(*) كذا في النص ولعلها محرفة من «البطارقة» أو من الكلمة اللاتينية (centurion) وهي رتبة عسكرية تعني: رأس مئة.

Marfat.com

فسلم إليهم جدي ما التمسوه، وتسلم حصن شيزر يوم الأحد في رجب سنة أربع وسبعين وأربع مئة، واستمر سديد الملك علي بن مقلد المذكور مالكها إلى أن توفي فيها في سادس المحرم سنة تسع وسبعين وأربع مئة، وتولى بعده ولده أبو المرهف نصر بن علي إلى أن توفي سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وتولى بعده أخوه أبو العساكر سلطان بن علي إلى أن توفي فيها وتولى ولده محمد بن سلطان إلى أن مات تحت الردم هو وثلاثة من أولاده بالزلزلة في هذه السنة المذكورة أعني سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة في يوم الاثنين ثالث رجب انتهى ما نقلناه من تاريخ ابن منقذ»[1].

ـ ب ـ

قال الذهبي في تار يخ الإسلام (مخطوطة المتحف البريطاني)[2].

«وعندي له مجلد يخبر بما رأى من الأهوال قال:

حضـرت من المصافات والوقعات مهول أخطارها، واصطليت من سعير نارها، وباشرت الحرب وأنا ابن خمس عشرة سنة إلى أن بلغت مدى التسعين وصرت من الخوالف خدين المنزل وعن الحروب بمعزل، لا أعد لمهم، ولا أدعى لدفاع ملم، بعدما كنت أول من تثنى عليه الخناصر وأكبر العدد لدفع الكبائر، أول من يتقدم السنجقية عند حملة الأصحاب وآخر جاذب عند الجولة لحماية الأعقاب.

كم قد شهدت من الحروب فليتني ... في بعضهـا من قبل نكسي أقتـل
فالقتل أحسن بـالفتى من قبل أن ... يفنى ويبـليـه الـزمـان وأجمـل
وأبيك ما أحجمت عن خوض الردى ... في الحرب يشهد لي بذلك المنصل

(١) انظر رسالة سديد الملك التي أرسلها إلى بغداد حول استيلائه على شيزر (ملحق تاريخ ابن القلانسي ١١٣ ـ ١١٤ وتاريخ ابن الوردي (القاهرة ١٢٨٥ هـ) ٢/٥٧).

(٢) انظر: فهرس المخطوطات العربية في المتحف البريطاني لريو، مخطوطة رقم: ٧٣٩ ب، ورقة ١٦ أ ـ ١٩ ب. وانظر ما نقله ديرنبورج من تاريخ الإسلام للذهبي في: Vie d'Ousama، صفحة ٦١٩.

Marfat.com

لـكن قـضـاء الله أخـرنـي إلـى أجلي الموقت لي فماذا أفعـل[1]

ثم أخذ يعد ما حضره من الوقعات الكبار قال:

فمن ذلك وقعة كانت بيننا وبين الإسماعيلية في قلعة شيزر لما وثبوا على الحصن في سنة سبع وخمسمائة، ووقعة كانت بين عسكر حماة وعسكر حمص في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ومصاف على تكريت بين أتابك زنكي بن آقسنقر وبين قراجا صاحب فارس في سنة ست وعشرين، ومصاف بين المسترشد بالله وبين أتابك زنكي على بغداد في سنة سبع وعشرين، ومصاف بين أتابك زنكي وبين الأرتقية وصاحب آمد على آمد في سنة ثمان وعشرين، ومصاف على رفينة بين أتابك زنكي وبين الفرنج في سنة إحدى وثلاثين، ومصاف على قنسرين بين أتابك زنكي وبين الفرنج ولم يكن فيه لقاء في سنة اثنتين وثلاثين، ووقعة بين المصريين ورضوان الولخشي سنة اثنتين وأربعين، ووقعة بين السودان بمصر في أيام الحافظ في سنة أربع وأربعين ووقعة كانت بين الملك العادل ابن السلار وبين أصحاب ابن مصال في السنة ووقعة أيضاً بين أصحاب العادل وبين ابن مصال في السنة أيضاً بدلاص، وفتنة قتل فيها العادل ابن السلار في سنة ثمان وأربعين، وفتنة قتل فيها الظافر وأخواه وابن عمه في سنة تسع وأربعين، وفتنة المصريين وعباس ابن أبي الفتوح في السنة، وفتنة أخرى بعد شهر حين قامت عليه الجند، ووقعة كانت بيننا وبين الفرنج في السنة.

ثم أخذ يسرد عجائب ما شاهد في هذه الوقعات ويصف فيها شجاعته وإقدامه رحمه الله.

- ج -

وقعة الإسماعيلية في شيزر:

«وفي هذه السنة (٥٠٧ هـ) ورد الخبر من شيزر بأن جماعة من الباطنية من أهل أفامية وسرمين ومعرة النعمان ومعرة نصرين في فصح النصارى وثبوا

---

(١) الظاهر أن كلامه هذا كان جزءاً من مقدمة كتاب الاعتبار الضائعة والتي حفظها الذهبي لنا وانظر: ديوان أسامة ٢٧١.

Marfat.com

في حصن شيزر على غفلة من أهله في مئة رجل فملكوه وأخرجوا جماعة وأغلقوا باب الحصن وصعدوا إلى القلعة فملكوها وأبراجها. وكان بنو منقذ أصحابها قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وكان هذا أمر قد رتب في المدة الطويلة، وقد كانوا أحسنوا إلى هؤلاء المقدمين على الفساد كل الإحسان فبادر أهل شيزر قبل وصولهم إلى الباشورة ورفع الحرم [الرجال] بالحبال من الطاقات وصاروا معهم وأدركهم الأمراء بنو منقذ أصحاب الحصن وصعدوا إليهم وكبروا عليهم وقاتلوهم حتى الجأوهم إلى القلعة فخذلوا وذلوا وهجموا إليهم وتكاثروا عليهم وتحكمت سيوفهم فيهم فقتلوهم بأسرهم وقتل كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية»[1].

ـ د ـ

مصاف المسترشد بالله مع أتابك زنكي:

«وبرز الخليفة وسلجوق شاه وقراجا الساقي عازمين على قتال مسعود، وتوجه عماد الدين زنكي ومعه دبيس بن صدقة، وكانت رسل السلطان سنجرقد وردت إلى عماد الدين بتوليته شحنكية بغداد وأقطاع الحلة لدبيس. وبلغ الخليفة وقراجا الساقي وصول عماد الدين إلى المعشوق فعبر قراجا إلى الجانب الغربي وتقدم إلى الملك سلجوق بمرافقة أخيه السلطان مسعود إلى أن يفرغا من حرب عماد الدين. وسار الخليفة في يوم وليلة إلى المعشوق فواقع عماد الدين زنكي فهزمه وأسر كثيراً من أصحابه.

وسار عماد الدين إلى تكريت وعبر منها دجلة وكان الدزدار بتكريت يومئذ نجم الدين أيوب من شادي والد صلاح الدين يوسف فأقام لعماد الدين المعابر فلما عبر أمن الطلب وسار لإصلاح بلاده»[2].

---

(١) ابن القلانسي: صفحة ١٩٠ ـ ١٩١ (بيروت ١٩٠٨). وقد أورد أسامة نفسه جملة من أخبار هذه الوقعة، انظر: الحكايات: ٦٦، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٦٢، ١٦٤. وذكر بعضها في لباب الآداب أيضاً. وهذا الاقتباس من ابن القلانسي لا نعني به أن ابن القلانسي أخذه من كتاب الاعتبار (لأنه توفي في سنة ٥٥٥ هـ) ولكن لأنه ذكر الحادثة كاملة مما يمكن أن يكون السرد شبيهاً برواية أسامة.

(٢) مفرج الكروب ١/٤٨.

Marfat.com

ـ هـ ـ

ونقل ابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ من الاعتبار قال:

«حكى الأمير مؤيد الدولة أسامة من مرشد بن علي بن منقذ في كتاب ألفه، وذكر فيه شهامة الخليفة المسترشد بالله وشجاعته، قال: كان الإمام المسترشد بالله يلحق الصدر الأول من سلفه في علو الهمة وحسن السياسة والإقدام العظيم، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكي بن آق سنقر في المصاف بعقرقوف وأنا حاضر المصاف ضرب له خيمة أطلس أسود ووضع له فيها تخت وجلس عليه والخيل تطرد فكسر عسكر أتابك وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمس مئة فاستولى على كل ما فيه وانهزم أتابك زنكي إلى الموصل وذلك الإقدام العظيم كان سبب تلفه»[1].

ـ و ـ

وقال ابن واصل في مفرج الكروب ١/١٢٤ أيضاً:

«وذكر الأمير مؤيد الدولة بن منقذ أن أسر جوسلين إنما كان في سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وذكر أن صورة أسره أنه خرج من مدينة تل باشر، وسار في الليل فأدركه النوم فنزل ومعه نفر يسير من أصحابه، وقال لباقي أصحابه: انطلقوا فأنا ألحقكم، ونزل فنام، فمرت به سرية من التركمان اتفاقاً، فانهزم أصحابه، وأخذ جوسلين أسيراً، وهم لا يعرفونه فاجتازوا به من الغد على رجل أرمني، فجاء وقبل يده، فقالوا له التركمان: «من هذا؟» فقال: «هذا جوسلين صاحب تل باشر»، فلما عرفوه احتفظوا به، وبلغ خبره إلى مجد الدين أبي بكر ابن الداية ـ النائب بحلب ـ فأحضر التركمان

---

(١) المصدر نفسه ١/٥٠ ـ ٥١.

Marfat.com

وأعطاهم حتى أرضاهم، وأخذ جوسلين وتركه عنده، فلما وصل نور الدين إلى حلب كحل جوسلين وأهلكه»[1].

ـ ز ـ

«وكاتب النواب بتل باشر في هذه السنة نور الدين ـ أعني: سنة ست وأربعين وخمس مئة ـ في أن يتسلمها. وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ نازلاً بدمشق، فكتب إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية ليمضي إليها ويتسلمها، فمضى إليها وتسلمها يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الأول من السنة. ثم تسلم عين تاب وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا في مدة قريبة»[2].

ـ ح ـ

واقتبس الذهبي أخبار بلدوين (بغدوين) ملك القدس من حكاية ١١٥ و١١٦ من كتاب الاعتبار أيضاً.

قال: «فملك وهو في الأسر على ما حكاه أسامة بن منقذ في تاريخه من ذرية ميمند الذي كان مالكها ولم يسمه وإنما اللقب وقع عليه كما على غيره فإن الفرنج يلقبون من ملك أنطاكية البرنس وفي مدته انتهى تاريخه فإنه قال وهو ملكها إلى الآن»[3].

---

(١) وانظر قصة أسر جوسلين في الروضتيْن ١/٧٢ نقلاً عن ابن الأثير وهي تختلف في تفاصيلها عن رواية أسامة هذه. وقد أشار أسامة إلى أسر جوسلين وإهلاكه في قصيدته الحربية. انظر: الروضتين ١/٥٨.

(٢) قال ابن واصل في: مفرج الكروب ١/١٢٧ «وكنا حكينا عن ابن منقذ أنَّ تسلمها (تل باشر) كان في سنة ست وأربعين». قول ابن واصل هذا يدل على أن هذا النص هو تكملة للنّص السابق وأنه اقتبسه من القسم الضائع من كتاب الاعتبار.

(٣) لم يرد هذا في كتاب الاعتبار بالنص وقد تصرّف الذهبي ـ رحمه الله ـ بالمعنى. فلعل هذا النص منقول من كتاب تاريخ أسامة المعروف بكتاب أخبار أهله.

Marfat.com

ـ ط ـ

وأشار الذهبي إلى كتاب الاعتبار في ترجمة أسامة بن منقذ في كتابه سير أعلام النبلاء فقال:

«وجرت له أمور وحضر حروباً ألفها في مجلد فيه عبر»[1].

ـ ى ـ

قال أبو شامة في كتاب الروضتين ١/١٣٨ حين ذكر الوزير جمال الدين الموصلي:

«وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض علي الدخول إلى داره في الموصل، فامتنعت، ونزلت بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى وأتابك قد ركب إلى الميدان، وينفذ إليّ يقول: اركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلت له: في نفسي شيء يتردد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة. قال: قل. قلت: أقول ما قاله الشريف الرضى:

ما ناصحتك خفايا الود من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البر والمعروف والسلاطين ما يحتملون بإخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أن الإنسان يخرجه من ميراثه وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً، لكن الأمر

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/١٦٦.

Marfat.com

قد عبر عما تخافه، ففارقته وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين، ومات في الحبس»[1].

ـ ك ـ

قال ابن واصل في مفرج الكروب ١/١٠٩ ـ ١١٠.

«وكانت بعلبك قد ملكها الشهيد واستناب بها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملك الناصر صلاح الدين فلما بلغه وفاة الشهيد كاتبه الأمير مجير الدين آبق بن محمد بن بورى بن طغتكين ـ صاحب دمشق ـ في تسليمها، وبذل له أموالاً كثيرة وقرايا من أعمال دمشق، فسلمها إليه، وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وأقام بها، وذلك لأربع بقين من ربيع الآخر في هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ـ وتسلم نور الدين من حاجب أبيه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيسياني حماة، وعوضه عنها مدينة حمص وقلعتها.

قلت: هكذا ذكر ابن منقذ».

ـ ل ـ

روى ابن العديم[2]:

«أنبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفنكي قال: أخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن منقذ الكناني في كتابه:

إن قوماً من أهل أفامية من الإسماعيلية عملوا على مالكها وتحيَّلوا عليه

---

(١) ونقل أبو شامة في الروضتين (١/٥٢) حكاية رقم ٨٧ وحكاية رقم ١١٤ (٢/٩٧ ـ ٩٨) بالنص من كتاب الاعتبار ومثله فعل كثير من المؤرخين وقد أشرنا إليهم في مواضع النقل من الحواشي.

(٢) بغية الطلب من تاريخ حلب ١٣١.

Marfat.com

بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصاناً وبغلة وعدداً إفرنجية وتراساً وزردية وخرجوا من بلد حلب إلى أفامية بتلك العدة والدواب، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب ـ وكان رجلاً كريماً شجاعاً ـ: جئنا قاصدين خدمتك فلقينا فارساً من الإفرنج فقتلناه، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدَّته. فأكرمهم وأنزلهم في حصن أفامية في دار مجاورة السور، فنقبوا السور وواعدوا الفاميين إلى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربع مئة، فطلع الفاميّون من ذلك النقب فقتلوا خلف بن ملاعب وملكوا حصن أفامية».

Marfat.com

Marfat.com

القِسْمُ الثّانِي

كِتَابُ الإعْتِبَار

- ١ -

[١ أ] ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيراً. وكان وصل من الإمام الراشد[١] بن المسترشد ـ رحمهما الله ـ ابن بشر[٢] رسولاً إلى أتابك[٣] يستدعيه، فحضر ذلك المصاف، وعليه جوشن[٤] مذهب، فطعنه فارس من الإفرنج، يقال له: ابن الدقيق[٥]، في صدره أخرج الرمح

---

(١) الخليفة الراشد بالله بن المسترشد بالله العباسي، هو أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله، تولي الخلافة بعد مقتل أبيه سنة تسع وعشرين وخمس مئة وخلعه السلطان مسعود السلجوقي ثم قتل سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة (ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٥٩، ٢٦٧، الإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني ٢٢٢ ـ ٢٢٤) وسير إعلام النبلاء للذهبي ١٩/٥٦١ ـ ٥٧٣ مع مصادر ترجمتيهما.

(٢) ابن بشر: هو بشر بن كريم بن بشر الجزري (تاريخ حلب ٢/٢٥٨ حاشية) قال: «في سنة ٥٢٩ هـ وصل رسول المسترشد إلى زنكي بخلع هيئت له وتقدم إليه بالرحيل عن دمشق والوصول إلى العراق». وذكر ابن الأثيران أبا بكر بن بشر الجزري رسول الخليفة المسترشد بالله وصل إلى أتابك زنكي وهو محاصر دمشق (الكامل ١١/٢٥). وذكر ابن القلانسي مثل ذلك في ذيل تاريخ دمشق ٢٤٨، فلعله جاء بوفادة أخرى زمن ابنه الراشد بالله أيضاً فقد ذكر ابن الأثيران المسترشد بالله أرسل ابن بشر مع سديد الدين ابن الأنباري [illegible] إلى زنكي يطلب تسليم دبيس بن صدقة (١٠/٦٦).

(٣) أتابك هنا يعني عماد الدين زنكي بن آقسنقر.

(٤) الجوشن: هو درع الصدر، وانظر حاشية رقم: ١٤٩

(٥) ابن الدقيق: ورد له ذكر في: التاريخ الباهر لابن الأثير ١٤٤ باسم «فيليب بن الدقيق» وقال «فيليب بن الدقيق وابن الهمفري وهما فارسا الفرنج وقتلهما». وانظر هذه الحوادث في التاريخ [illegible]

Marfat.com

من ظهره ـ رحمه الله ـ بل قتل من الإفرنج خلق كثير.

وأمر أتابك، رحمه الله، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن فكانت قدر ثلاثة آلاف رأس.

ـ ٢ ـ

ثم إن ملك الروم(٦) عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين خمس مئة، واتفق هو والإفرنج، خذلهم الله، وأجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها.

فقال لي صلاح الدين: ما ترى ما فعله هذا الولد المثكل؟ ـ يعني ابنه شهاب الدين أحمد ـ قلت: وأي شيء فعل؟ قال: أنفذ إليَّ يقول: ابصر من يتولى بلدك. قلت: وأي شيء عملت؟ «قال: نَفذْتُ إلى أتابك أقول: تَسلَّمْ موضعَك. قلت: بئس ما فعلت! ما يقول لك أتابك: لما كانت لحماً أكلها، ولما صارت عظماً رماها عليَّ؟ قال: فأي شيء أعمل؟ قلت: أنا أجلس فيها، فإن سلَّم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك، وإن أُخذ الموضع وقُتِلنا كان بآجالنا، وأنت معذور. قال:» ما قال لي هذا القول أحد غيرك(٧).

= نفسه ١٠١ ـ ١٠٢ وذكره ابن العديم في زبدة الحلب (حوادث سنة ٥٦٥ هـ) ٢/٣٢٩ وابن الأثير في الكامل ١١/٣٥٣ والعماد الأصفهاني في سنا البرق الشامي ٩٠.

(٦) ملك الروم: انظر هذه الحادثة في: الروضتين ١/٣٢ والباهر ٥٥ ـ ٥٦، وكان حصار شيزر في سنة ٥٣٢ هـ، وانظر ذيل تاريخ دمشق ٢٦٤، وانظر حكاية رقم: ٨٤ و١٠٦ ومفرج الكروب ١/٨١.

(٧) الإشارة هنا إلى حماة فقد كانت لصلاح الدين الغسياني، والظاهر أن الغسياني لم يثق بخطة أسامة في الجلوس في حماة والدفاع عنها وظن أنها مكيدة من أسامة للاستيلاء عليها. وصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني حاجب أتابك زنكي كان أكبر أمير عنده ذا مكر وحيل (الكامل ١١/٥٠ ووفيات الأعيان ٢/٣٢٧، وانظر أيضاً حاشية ٣٧٨) أما شهاب الدين فهو ولد صلاح الدين كان متولياً على بعلبك نيابة عن أبيه، قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٣١ هـ: «في شعبان سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص وقدم إليها حاجبه صلاح الدين الياغسياني وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل» (٨/٣٥٧) وتوفي سنة ٥٥٢ هـ (الروضتين ١/١١٤). وانظر =

Marfat.com

وتوهمت أنه يفعل ذلك. فحفلت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر. فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال: يقول لك صلاح الدين: نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل شغلك للمسير. فورد على قلبي من هذا هَمٌّ عظيم وقلت: أترك أولادي وإخوتي وأهلي في الحصار وأسير إلى الموصل؟ فأصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأذنته في الرواح إلى شيزر لأحضر لي نفقة ومالاً نحتاج [إليه في الطريق. فأذن وقال][8]: لا تبطيء. فركبت ومضيت إلى شيزر. فبدا منه ما أوحش قلبي [وحرَّك شكي، فبادر][8] فنفذ إلى داري، فرفع كلَّ ما فيها من الخيام والسلاح والرحل وقبض على [أكثر أحبتي][8] وتتبع أصحابي ـ فكانت نكبة كبيرة رائعة[9].

ـ ٣ ـ

فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق[10]. فأقمت فيها ثماني سنين، وشهدت فيها عِدَّة حروب، وأجزل لي صاحبها، رحمه الله، العطية والإقطاع، وميَّزني بالتقريب والإكرام

= تدبير الغسياني ونصير الدين جقر وبهاء الدين الشهرزوري في اقتسام الولايات مع قسيم الدوله زنكي بن آق سنقر حين كان شحنة في بغداد في سنة ٥١٩ هـ. وقد ذكر الفارقي في تاريخ ميا فارقين وابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق (حاشية ذكرها امدروز في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٢١٧) ما نصه: «فحلف أن تكون الحجبة وإمارة العسكر لصلاح الدين وأن تكون ولاية الموصل وجميع البلاد إلى نصير الدين جقر وأن يكون قضاء الموصل وجميع البلاد وما فيها من القضاء والأمور الدينية لبهاء الدين الشهرزوري» ومفرج الكروب لابن واصل ١/٣٢ ـ ٣٣.

(٨) ما بين المعقوفتين غير واضح في الأصل والقراءة هنا تخمينية

(٩) رائعة: مخيفة وشديدة الرعب، والظاهر أن الغسياني قصد على جماعته أسامة الجندي وجماعة من أهله أثناء غيابه في شيزر.

(١٠) كان صاحب دمشق إذ ذاك جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوماً عليه والغالب عليه معين الدين أنر مملوك جده طغتكين (الباهر لابن الأثير ٥٨)

Marfat.com

يضـاف ذلك إلى اشتمال الأمير معين الدين[١١] رحمه الله ـ عليَّ وملازمتي [١ ب] له، ورعايته لأسبابي.

ـ ٤ ـ

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر. فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله، وفرطت في أملاكي ما كان نكبة أخرى. كل ذلك والأمير معين الدين ـ رحمه الله ـ مُحسِنٌ مُجْمِلٌ كثيرُ التأسُّف على مفارقتي، مُقِرٌّ بالعجز عن أمري، حتى أنه أنفذ إليَّ كاتبه الحاجب محمود المسترشدي[١٢]، رحمه الله، قال: والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين، وما فارقتك، لكنَّ الناس كلهم قد تمالئوا عليَّ ومالي بهم طاقة. وحيث كنتَ فالذي بيننا من المودة على أحسن حالة.

ففي ذلك أقول:

معين الـدين كم لـك طـوق مَنٍّ ... بجيـدي مثـل أطـواق الحَمـام
تَعبَّـدني لـك الإحسـانُ طوعـاً ... وفـي الإحسـان رِقٌّ لـلكـرام
فصـار إلى مـودتـك انتسـابي ... وإن كنتَ العـظامي العصـامي
ألـم تـعلم بـأني لانـتمـائـي ... إليـك رمى سـوادي كـلُّ رامِ
ولولا أنت لم يصحب(*) شماسي ... لـقسـرٍ دون إعـذار الـحسـام
ولكن خـفتُ مـن نـار الأعـادي ... عليـك فكنت إطفاءَ الضـرام[١٣]

---

(١١) معين الدين أنر: مملوك طغتكين صاحب دمشق، حفظ دمشق حين قتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغتكين سنة ٥٣٩ هـ (الكامل ٨/٤٤ ـ ٤٤٦) وهو أكبر أمراء دمشق وتوفي في سنة ٥٤٤ هـ (الكامل ٩/٢٦) وانظر ابن القلانسي ٢٦٤ ـ ٣٠٦ ومرآة الزمان ٨/٢٠٢ وشذرات الذهب ٤/١٣٨. وكان صديقاً لأسامة إلاَّ أنَّه غلب على أمره غلبه بنو الصوفي. وترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٢٩، وانظر ابن القلانسي ٢٧٨ عن أسباب خروج أسامة من دمشق.

(١٢) محمود المسترشدي: ورد ذكره في الروضتين ١٠/٣٠٣ وفي ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(١٣) قصيدة أسامة في معين الدين أنر، ديوان أسامة بن منقذ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(*) بمعنى: انقاد واستذلَّ وسَهُل (تاج العروس ١/٣٣٢).

Marfat.com

فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادي الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. فقرّبني الحافظ لدين الله[١٤] ساعة وصولي. فخلع عليَّ بين يديه، ودفع لي تخت ثياب ومئة دينار [وخوَّلني][١٥] دخول الحمام، وأنزلني في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش[١٥أ] في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس ـ كل ذلك لا يستعاد منه شيء. وأقمت بها [مدة، إقامتي في] إكرامٍ واحترامٍ وإنعامٍ متواصلٍ وإقطاع زاج[١٦].

فوقع بين السودان، وهم في خلق عظيم، شر وخُلف: بين الريحانية وهم عبيد الحافظ وبين الجيوشية والإسكندرانية والفرحية][١٧]. فكان الريحانية في جانب، وهؤلاء كلهم في جانب، متفقين على الريحانية وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص[١٨] فاجتمع من الفريقين خلق عظيم. وغاب عنهم الحافظ وترددت إليهم رسله، وحرص على أن يصلح بينهم. فما أجابوا إلى ذلك وهم معه في جانب البلد. فأصبحوا التقوا في

---

(١٤) الحافظ لدين الله عبد المجيد أبو الميمون، الخليفة الفاطمي تولى الحكم بعد مقتل الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ (ابن القلانسي ٢٢٨، ٣٠٨) وولى بعده ابنه الأصغر إسماعيل ولقب بالظافر بالله، وانظر الخطط للمقريزي ١/٣٥٧ ففيه تفصيل موسع عنه.

(١٥) مطموسة في المخطوطة بفعل الرطوبة والقراءة هنا تخمينية.

(١٥ أ) الأفضل ابن أمير الجيوش: أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالي انظر الوفيات ١/٤٤٨ ـ ٤٥١ وسير أعلام النبلاء ١٩/٥٠٧ ـ ٥١٠، الكامل ٥٨٩ ـ ٥٩١

(١٦) بمعنى دار ومتواصل (القاموس المحيط ٤/٣٣٨).

(١٧) الجيوشية والإسكندرية والفرحية، أورد ابن القلانسي ذكر هذه الفئة بحيث انظر ص ٣٠٨، وقد ورد ذكر هذه الطوائف من السودان في خطط المقريزي ٢/٣، واتعاظ الحنفا ٣/١٤٩، ١٥٥ وعن الفرحية انظر الخطط ٢/١٤ ،ورد ذكرهم في وقعتهم مع صلاح الدين الأيوبي (اتعاظ الحنفا ٣/٣١٢ ـ ٣١٣).

(١٨) صبيان الخاص همّ حرس الخليفة الخاص وعددهم خمس مئة انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي ٣/١٩٨.

Marfat.com

القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية فقتلت منهم في سويقة [٢ أ] أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة. ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا، فقد كانوا فعلوا ذلـك قبل طلوعي إلى مصـر.

وظن الناس لما قُتل الريحانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم، وكان مريضا على شفا، فمات، رحمه الله، بعد يومين، وما انتطح فيها عنزان.

ـ ٦ ـ

وجلس بعده الظافر بأمر الله[١٩]، وهو أصغر أولاده. واستوزر نجم الدين بن مصال[٢٠]، وكان شيخاً كبيراً. والأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار[٢١] رحمه الله، إذ ذاك في ولايته. فحشد وجمع وسار إلى القاهرة يريد الوزارة فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة، ونفذ إلينا زمام القصور يقول: يا أمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي. فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره. فقال الأمراء: نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون. فرجع الزمام بهذا الجواب. فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون[٢٢]: يا أمراء، نترك علي بن السلار يقتل؟ قالوا: لا والله!! قال: فقوموا، فنفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا

---

(١٩) الظافر بأمر الله الخليفة الفاطمي، قتل سنة ٥٤٩، انظر حوادث مقتله ودور أسامة بن منقذ فيه على رواية ابن الأثير في الكامل ١٩١/١٠ والخطط للمقريزي ٣٠/٢، واتعاظ الحنفا له ٢٠٤/٣.

(٢٠) نجم الدين بن مصال. أبو الفتح، تولى وزارة الظافر بالله (ابن القلانسي ٣٠٨) وسار إليه ابن السلار فقتله وتولى الوزارة مكانه (ابن القلانسي ٣١١، خطط المقريزي ٥٥/٢).

(٢١) أبو الحسن علي بن السلار: كان والي البحيرة والإسكندرية حين تولى ابن مصال الوزارة. انظر: الخطط للمقريزي ٥٥/٢ واتعاظ الحنفا ١٩٦/٣ وما بعدها وسير أعلام النبلاء ٢٨١/١٠ ـ ٢٨٣.

(٢٢) اقتبس المقريزي من كتاب الاعتبار ولم يشر إليه وورد عنده اسم «ورى الحرون» انظر: اتعاظ الحنفا ١٩٦/٣.

Marfat.com

إلى معونة سيف الدين ابن السلار. فلما رأى الظافر ذلك وغُلِب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالاً كثيراً وقال: اخرج إلى الحوف اجمع واحشد وانفق فيهم، وادفع ابن السلار. فخرج لذلك، ودخل ابن السلار القاهرة، ودخل دار الوزارة. واتفق الجند على طاعته، وأحسن إليهم. وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره، وأفرد لي موضعاً في الدار أكون فيه. وابن مصال في الحوف قد جمع من لواتة ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقاً كثيراً وقد خرج عباس ركن الدين، وهو ابن امرأة علي بن السلار، ضرب خيمه في ظاهر مصر. فغدت سرية من لواته، ومعهم نسيب لابن مصال، وقصدوا مخيم عباس فانهزم عنه جماعة من المصريين، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلَهُ مُحَابِسَهم.

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل، وأنا معه في الدار، وقال: هؤلاء الكلاب ـ يعني جند مصر ـ قد شغلوا الأمير ـ يعني عباساً ـ بالفوارغ حتى عدا إليه قوم من لواته سباحةً، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة والأمير مُواقِفُهم. قلت: يا مولاي، نركب إليهم في سحر، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم، إن شاء الله تعالى. قال: صواب، ابكر في ركوبك. فخرجنا إليهم من بكرة، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل. وأخذ نسيب ابن مصال ضرب رقبته.

[٢ ب] وجمع العسكر مع عباس وسيره إلى ابن مصال، فلقيه على دلاص، فكسرهم وقتل ابن مصال وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل. وحملوا رأس ابن مصال إلى القاهرة. ولم يبق لسيف الدين من يُعانِده ولا يُشاققه.

وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل، وتولى الأمور[٢٣].

---

(٢٣) معركة ابن السلار مع ابن مصال ومقتل ابن مصال، انظر ابن الأثير ٩/ ٢٤ ـ ٢٥)، واتعاظ الحنفا ٣/ ١٩٧.

Marfat.com

كل ذلك والظافر منحرف عنه، كاره له، مضمر له الشر. فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استمالهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه وكان شهر رمضان والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط [الليل][٢٤] وافتراق أصحاب العادل، وأنا تلك الليلة عنده.

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه[٢٥] أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيها مجتمعون. وكانت الدار، لما أراده الله من سلامة بعضهم، لها بابان: الواحد قريب من دار العادل، والآخر بعيد. فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب، قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب. وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال كانوا أصدقاء غلماني نخبؤهم وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين، ومن ظُفر به منهم قُتل.

— ٧ —

وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري، والرجال بالسيوف خلفه، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم، وفي الدار شجرة نبق كبيرة، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة، فثبت عليها، ثم نزل ودخل من كُم[٢٦] مجلس قريب منه فوطيء على منارة نحاس فكسرها، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه.

وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه، فصحت عليهم واطلعت إليهم الغلمان دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود. فنزع كساء كان عليه وقال: خذه

---

(٢٤) غير واضحة في المخطوطة.
(٢٥) العامل عليه: بمعنى العين أو الجاموس الذي ينقل أخبار الطرف الآخر.
(٢٦) كمّ مجلس: دهليز ضيف يؤدي إلى المجلس، انظر: دوزي ٢/٤٨٧.

Marfat.com

لك. قلت: أكثر الله خيرك، ما احتاجه. وأخرجته وسيَّرت معه قوماً من غلماني فنجا.

ـ ٨ ـ

وجلست في صفة في دهليز داري، فدخل على شاب سلم وجلس فرأيته حسن الحديث حسن المحاضرة. هو يتحدث وإنسان استدعاه فمضى معه ونفذت خلفه غلاماً يبصر لماذا استدعي، وكنت بالقرب من دار العادل. فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبته، فقتل. وعاد الغلام وقد استخبر عن ذنبه، فقيل له: كان يُزوِّر التواقيع. فسبحان مقدر الأعمار وموقت الآجال.

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان.

ـ ٩ ـ

[٣ أ] وتقدم إليَّ الملك العادل، رحمه الله، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين[٢٧] رحمه الله وقال: تأخذ معك مالاً وتمضي إليه لينازل طبرية، ويشغل الفرنج عنا، لنخرج من ها هنا نُخرِّب غزة. وكان الإفرنج خذلهم الله قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان. قلت: يا مولاي فإن اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه، أي شيء تأمرني؟ قال: إن نزل على طبرية، فاعطه المال الذي معك، وإن كان له مانع، فديون[٢٨] من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الإفرنج، واكتب إليَّ بوصولك لآمرك بما تعمل.

(٢٧) الملك العادل نور الدين، له ترجمة موسعة في وفيات الأعيان ٥/ ٨٤ ـ ٨٩

(٢٨) اشتقاق ظريف من لفظة الديوان وقد ورد مرة أخرى في الحكاية رقم ١٠ ومعناها ضمّ من استطعت إلى ديوان الجند. وقد نقل ابن شداد ملخص هذه الحكاية في الأعلاق الخطيرة جـ ٢ قسم ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

Marfat.com

ودفع إلى ستة آلاف دينار مصرية، وحِملَ جملٍ ثياب دبيقي وسقلاطون ومسنجب ودمياطي[٢٩] وعمائم. ورتب معي قوماً من العرب أدلاء.

وسرت وقد أزاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل، فلما دنونا من الجفر[٣٠] قال لي الأدلاء: هذا مكان لا يكاد يخلو من الإفرنج. فأمرت اثنين من الأدلاء ركباً مهريتين وسارا قدَّامنا إلى الجفر. فما لبثا أن عادا، والمهارى تطير بهما، وقالا: الفرنج على الجفر، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقاً من السُفَّارة كانوا معي، ورددتهم إلى الغرب. وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت: تقدمونا، وأنا في أثركم. فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم فعاد إليَّ واحد منهم وقال: ما على الجفر أحد، ولعلهم أبصروا عرباناً. وتنازع هو والأدلاء. فنفذت من رد الجمال، وسرت.

فلما وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه. وتفرق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبياناً. فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت: ،يا شيخ، أنا في حسبك. قلت: أنت آمنة، مالك؟ قالت: قد أخذ أصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة. قلت لغلماني: من كان أخذ شيئاً يرده. فاحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين. قالت: هذا الثوب. واحضر آخر قطعة سندروس[٣١]. قالت: هذه الخرزة. قلت: فالحمار والكلب؟ قالوا: الحمار قد ربطوا يديه

---

(٢٩) ثياب دبيقي: نسبة إلى مدينة دبيق في صعيد مصر.
سقلاطون، نوع من النسيج البغدادي المشهور (دوزي ١/٦٦٣).
منسجب، بمعنى مبطن بفراء حيوان السنجاب.
ودمياطي، نسبة إلى دمياط المعروفة.

(٣٠) الجفر: هو البئر، والجفار أرض على مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبي، متصلة برمل تيه بني إسرائيل (معجم البلدان ٢/١٤٤ ـ ١٤٥). وعن منازل هذا الطريق، انظر: الروضتين ٢/٦.

(٣١) سندروس: نوع من الصمغ الشجري الصلب (دوزي ١/٦٣٩).

Marfat.com

ورجليه وهو مرمى في العشب والكلب مفلوت يعدو من مكان إلى مكان.

فجمعتهم ورأيت بهم من الضرِّ أمراً عظيماً؛ قد يبست جلودهم على عظامهم قلت: أيش أنتم؟ قالوا: نحن من [٣ ب] بني أبي. ـ وبنو أبي: فرقة من العرب من طيءٍ لا يأكلون إلا الميتة ويقولون: نحن خير العرب، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زَمنٍ ولا أعمى. وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم. قلت: ما جاء بكم إلى هاهنا؟ قالوا: لنا بحسمى[٣٢] كثول[٣٣] ذرة مطمورة، جئنا نأخذها. قلت: وكم لكم هنا؟ قالوا: من عيد رمضان لنا ها هنا، ما رأينا الزاد بأعيننا. قلت: فمن أين تعيشون؟ قالوا: من الرمة ـ يعنون العظام البالية الملقاة ـ ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف ـ شجر بتلك الأرض ـ ونتقوت به قلت: فكلابكم وحمركم؟ قالوا: الكلاب نطعمهم من عيشنا، والحمر تأكل الحشيش قلت: فلم لا دخلتم إلى دمشق؟ «قالوا: خفنا الوباء. ولا وباء أعظم مما كانوا فيه! وكان ذلك بعد عيد الأضحى. فوقفت حتى جاءت الجمال وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد. وقلت: لا تقيموا ها هنا يسبوكم الإفرنج.

ـ ١٠ ـ

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، وسارت الجمال. فوقفت على رفعة من الأرض وقلت

---

(٣٢) حسمى: قال ياقوت: «أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى لبلقاء، وهي من بينه وبين أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيه (معجم البلدان ٢/٢٥٨)

(٣٣) كثول: لعل الكلمة مصحفة من «كندول» وهو مخروط من تراب أو خشب وضع فيه الحبوب ونحوها (ادي شير: معجم الألفاظ الفارسية المعربة ١٣٨) أو لعلها من الكتلة وهي قطعة من كنيز التمر أو القطعة المجتمعة من الطين أو التمر وغيرهما (لسان العرب ـ كتل) أو لعلها قندول وهي كوز الذرة وما تزال اللفظة حية في السودان (قاموس اللهجة العامية في السودان، لعون الشريف قاسم (الخرطوم ١٩٧٢ ـ ٦٣٥)

Marfat.com

للغلمان: تفرقوا في طلب الجمال، وعودوا إليَّ، فأنا ما أزول من مكاني. فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم. فعادوا كلهم إليَّ وقالوا: ما لقيناهم، ولا ندري كيف مضوا. فقلت: نستعين بالله تعالى ونسير على النوء. فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب.

وفي الأدلاء رجل يقال له جريه[٣٤] فيه يقظة وفطنة. فلما استبطأنا علم أنا قد تهنا عنهم. فاخرج قداحة وجعل يقدح، وهو على الجمل، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا. فرأيناه على البعد. فقصدنا النار حتى لحقناهم. ولولا لطف الله وما أُلهِمَهُ ذلك الرجل كنا هلكنا.

ـ ١١ ـ

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل، رحمه الله، قال لي: لا تُعْلِم الأدلاء الذين معك بالمال. فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي[٣٥] مجنوب معي وسلمته إلى غلام وجعلت ألفي دينار ونفقة لي وسرفسار[٣٦] دنانير مغربية في خرج على حصان مجنوب معي وسلمته إلى غلام. فكنت إذا نزلت جعلت الأخراج في [٤ أ] وسط بساط

---

(٣٤) لعله تصغير جرو وهو الكلب الصغير.

(٣٥) بغل سروجي: نسبة إلى بلدة سروج وهي بليدة قريبة من حران من ديار مضر تقع إلى الشمال الغربي من منبج (معجم البلدان ٣/٢١٦) وانظر كذلك: حاشية رقم ٦٨ و ٣٤٦.

(٣٦) سرفسار: كلمة فارسية معناها عنان الدابة أو مقودها. ولعلَّ الأصل «وسرفسار ذهب ودنانير مغربية» وقد ورد ذكرها عند أبي شامة في الروضتين (١/١٧٣) ومنه نقل السيوطي في حسن المحاضرة (٢/٥) في صفة خلعة صلاح الدين الأيوبي حين ولاّه العاضد الفاطمي الوزارة: «. . . وحجرة بثمانية آلاف دينار وعليها سرج ذهب وسريسار ذهب مجوهر. . .». وورد له ذكر في كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨، ١٨٨) قال: «وخرجوا بأسرهم وتحت كل واحد منهم حصان عليه سرج بذهب وتخت وطوق وسرفسار وعليهم ملابس الزركش والثياب الطلس». وفي فوات الوفيات: «ثوب أطلس وعمامة مذهبة وحصاناً بطوق ذهب وسرفسار ذهب. . .» (تحقيق إحسان عباس ـ بيروت ١٩٧٣، ١/٣٣٣) والروضتين أيضاً ٢/١٩.

Marfat.com

ورددت طرفيه عليها، وبسطت فوقه بساطاً آخر وأنام على الأخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما. فإذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابي، تهممنا بالرحيل.

فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل. فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط[٣٧]. فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج. فركبت حصاني، وقد قدمه الركابي، وقلت لواحد من غلماني: اركب، اركب. وركضت خلف البغل فما لحقته، وهو كأنه حمار وحش، وحصاني قد أعيا من الطريق. ولحقني الغلام، فقلت: اتبع البغل كذا. فمضى وقال[٣٨]: والله يا مولاي ما رأيت البغل ولقيت هذا الخرج قد شلته. فقلت: الخرج كنت أطلب، والبغل أهون مفقود.

ورجعت إلى المنزلة وإذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف، فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار.

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى[٣٩]، فوجدنا الملك العادل نور الدين ـ رحمه الله ـ على دمشق وقد وصل إلى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه ـ رحمه الله ـ. فسرت معه إلى العسكر. فوصلته ليلة الاثنين، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به. فقال لي: يا فلان، أهل دمشق أعداء، والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما. قلت له: فتأذن لي أن أديون من محرومي الجند[٤٠] قوماً آخذهم وارجع، وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك؟ قال: افعل. فديونت إلى الاثنين الاخ

---

(٣٧) السموط جمع سمط وهو السير يعلق من السرج (تاج العروس ـ سمط)

(٣٨) الصواب أن يقول: فمضى، ولما عاد قال

(٣٩) بصرى: قال ياقوت: «من أعمال دمشق وهي قصبة حوران» (معجم البلدان ١ ٤٤١)

(٤٠) أي: أولئك الذين قطعت عنهم الجامكية لسبب أو لآخر، والجامكية الجراية أو الراتب

Marfat.com

ثماني مئة وستين فارساً وأخذتهم، وسرت في وسط بلاد الإفرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق.

وسيَّر معي نور الدين الأمير عين الدولة الياروقي(٤١) في ثلاثين فارساً فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم(٤٢) فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه. فجاء أمير من الأتراك الذين كانوا معي يقال له: برشك يريد الدخول في ذلك الشق الضيق فقلت: أي شيء تعمل في هذا؟ صلِّ برا، قال: لا إله إلا الله، أنا [ابن](٤٣) حرام إذاً حتى لا أدخل في ذلك الشق الضيِّق، قلت: أي شيء تقول؟ قال: هذا الموضع [٤ ب] ما يدخل فيه ولد زنا [فإذا أراد](٤٣) ما يستطيع الدخول. فأوجب قوله إن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت، وخرجت، وأنا ـ الله يعلم ـ ما أصدق ما قاله. وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دَيّن كثير الصلاة، أدق ما يكون من الرجال وأذبلهم. فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص بكل حرص على الدخول، فما قدر يدخل. فبكى المسكين وتوجع وتحسر، وعاد بعد الغلبة عن الدخول.

ـ ١٢ ـ

فلما وصلنا عسقلان سحراً ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا الإفرنج عند طلوع الشمس. فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت(٤٤)، والي

---

(٤١) عين الدين الياروقي: من الأمراء النووية الذين صحبوا صلاح الدين الأيوبي إلى مصر ورفض طاعته وعاد إلى نور الدين (الباهر لابن الأثير ١٤١ ـ ١٤٢).

(٤٢) الكهف والرقيم: موضع يقال إن فيه أصحاب الكهف، انظر: المفصل لجواد علي ٣/٧٢ وقيل إنَّه موضع في تركيا الحالية في مدينة أفسوس القديمة وهناك موضع في الأندلس أيضاً وأسامة يريد الذي في الأردن. وانظر معجم البلدان ٢/٨٠٦، ٣/٧١٩: الرقيم، عمان، أبسس ١/٩١. وذكر ابن شداد موضعاً آخر: الأعلاق الخطيرة جـ ١ ق ١/٥٩.

(٤٣) زيادة مني اقتضاها السياق والمعنى.

(٤٤) ياقوت، ناصر الدولة وإلى عسقلان نيابة عن الخليفة الفاطمي. كان من الأمراء المتقدمين =

Marfat.com

عسقلان، فقال: ارفعوا، ارفعوا أثقالكم، قلت: تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها؟. قال: نعم. قلت: لا تخف، هم يرونا في البرية ويعارضونا، إلى أن وصلنا إلى عسقلان، ما خفناهم. نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟.

ثم إن الإفرنج وقفوا على بُعْدٍ ساعةً. ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان. فدرت على سرب الرجالة وقلت يا أصحابنا، ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم. فإن نُصرنا عليهم فأنتم تلحقونا، وإن نُصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم، فامتنعوا من الرجوع. فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج وقد حطوا خيامهم ليضربوها، فاختطنا بهم، وأعجلناهم عن طي خيامهم، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين.

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من الفضوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفراً. فانهزمت الرجالة، الذين رددتهم فما رجعوا، ورموا تراسهم. ولقينا الإفرنج، فرددناهم. ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان.

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون، وقالوا: كان ابن منقذ أخبر منا، قال لنا: ارجعوا، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا.

ـ ١٣ ـ

وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي[٤٥] ـ رحمه الله ـ في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان. وكان، رحمه الله، من فرسان

= في الدولة وكان صاحب الباب للحافظ الفاطمي وكاد يوليه الوزارة بعد [illegible] للمقريزي ٣/٢٢١، النجوم الزاهرة ٥/٣١٢ وقد قبض عليه طلائع بن رزيك (اتعاظ الحنفا ٣/٢٣١).

(٤٥) عز الدولة أبو الحسن على أخو أسامة: ترجم له العماد في الخريدة (قسم الشام ١/٥٤٨ وما بعدها) وأشار محقق الخريدة إلى مصادر ترجمته، وقد استشهد على عزه سنه ٥٤٥ هـ

Marfat.com

المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل[٤٦] وقتالها فوصلناها وقاتلناهم [٥ أ]. ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كثيرة فوقفت في أصحابي وقدحنا ناراً وطرحناها في البيادر. وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع ومضى العسكر تقدمني فاجتمع الإفرنج لعنهم الله من تلك الحصون وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للإفرنج لمغاداة عسقلان ومراوحتها، وخرجوا على أصحابنا.

فجاءني فارس منهم يركض وقال: قد جاء الإفرنج، فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج، وهم، لعنهم الله، أكبر الناس احترازاً في الحرب، فصعدوا على رابية وقفوا عليها، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم، وبين الرابيتين فضاء: أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين.

وما زال الإفرنج وقوفاً على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا. ثم ساروا إلينا، فاندفعنا بين أيديهم ـ والقتال بيننا ـ لا يَجدُّون في طلبنا ومن وقف فرسه قتلوه، ومن وقع أخذوه. ثم عادوا عنا.

وقدر الله سبحانه لنا السلامة باحترازهم. ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم كما نصروا علينا، كنا أفنيناهم.

ـ ١٤ ـ

فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى[٤٦] وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى. وجاءني بعد هذه

---

(٤٦) بيت جبريل أو جبرين: انظر معجم البلدان ١/٧٧٦ (طبعة وستنفيلد). أما عن مدينة يبنى فقد أخبرني الأخ عابد المشوخي الغزي أنها ما زالت عامرة ولكنها بيد اليهود وتقع إلى الشمال من عسقلان.

Marfat.com

المدة كتاب الملك العادل[٤٧] ـ رحمه الله ـ يستدعيني فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ـ رحمه الله ـ بعسقلان فخرج عسكرها إلى قتال غزة فاستشهد ـ رحمه الله ـ. وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبّادهم.

ـ ١٥ ـ

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار، رحمه الله، فإنه كان جهز عسكراً إلى بلبيس[٤٨] ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس، رحمه الله، فأقام مع أبيه في العسكر أياماً، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة [٥ ب] وللضجر من المقام في العسكر.

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر[٤٩] ورتب معه قوماً من غلمانه، يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرد في دار الحرم ونام، فيقتله. وقرر مع أستاذ من أستاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام. وصاحبة الدار امرأة العادل جدته فهو يدخل إليها بغير استئذان.

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه. فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه، ومعه ستة نفر من غلمانه، فقتلوه، رحمه الله. وقطع رأسه وحمله إلى الظافر. وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمس مائة. وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من

---

(٤٧) الملك العادل هنا هو ابن السلار.

(٤٨) بلبيس: مدينة بينها وبين القاهرة عشرة وأسبح للسائر إلى فلسطين وهي حد حد مصر.
وانظر: خطط المقريزي ١/١٨٣ ـ ١٨٤.

(٤٩) الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ. انظر حاشيه ١٩

Marfat.com

ألف رجل. لكنهم في دار السلام(٥٠)، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفع رأس العادل على رمح. فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين: فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته، وفرقة رمت السلاح وجاؤوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته.

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة(٥١). وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر. وابنه نصر مخالطه ومعاشره، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويحوزوا كلما لهم حتى يتفانوا. فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعاتبان، وعباس يردد عليه الكلام، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشتاط منها عباس ويزيد في لومه وتأنيبه. فقلت لعباس: يا مولاي الأفضل، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمله، ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه(٥٢). أي شيء هو ذنبه؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط في شيء من مالك ولا قدح في دولتك، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك اللائمة. فامسك عنه والده ورعي لي ابنه ذلك.

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه، ويصير في الوزارة مكانه وواصله بالعطايا الجزيلة. فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية

---

(٥٠) دار السلام: أي الدار التي كان ابن السلار يستقبل فيها الناس للسلام عليه ولعله يعني: دار الوزارة.

(٥١) دار الوزارة: هي في الأصل الدار الأفضلية، بناها الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش، ثم سميت بالدار السلطانية في عهد بني أيوب، انظر تاريخها المفضل عند المقريزي في الخطط ١/٤٣٨ ـ ٤٣٩. وهنا يبدأ اقتباس صاحب الروضتين من كتاب الاعتبار (١/٩٧ ـ ٩٨).

(٥٢) لعل هذه الإشارة من أسامة هي التي حملت المؤرخين على اتهامه بتدبير قتل الظافر الفاطمي.

Marfat.com

فضة فيها عشرون ألف دينار. ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع [٦ أ] ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله. وأغفله أياماً. وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلَ رحلٍ وأربعين جملاً بِعُددها وغرائرها وحبالها. وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً: أنام ورأسي على رأس مخدته. فكنت عنده ليلة، وهو في دار الشابورة(٥٣)، وقد جاء مرتفع بن فحل فتحدث معه إلى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ثم انصرف. فاستدعاني وقال: أين أنت؟ قلت: عند الطاقة أقرأ القرآن، فإني اليوم ما تفرغت اقرأ. فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك، ويريدني أُقوِّي عزمه على سوء ما قد حمله عليه الظافر. فقلت: يا مولاي، لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك، فما قتل والدك مثل قتل العادل، فلا تفعل شيئاً تُلعن عليه إلى يوم القيامة، فاطرق وقاطعني الحديث، ونمنا. فأطلع والده على الأمر، فلاطفه واستماله وقرر معه قتل الظافر(٥٤).

وكانا يخرجان في الليل متنكرين وهما أتراب وسنهما واحد فدعاه إلى داره وكانت في سوق السيوفيين ورتب من أصحابه نفراً في جانب الدار، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمس مائة ورماه في جب في داره. وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة، فقتلوه. وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام. فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال: «ما لمولانا ما جلس للسلام؟. فتبلد الزمام في الجواب. فصاح عليه وقال: «ذلك

---

(٥٣) دار الشابورة: هي الدار الملاصقة لدار الذهب ودار الملك وقد [illegible] بدار الشابورة فقال: «إن جزء منها بيع في أيام المستنصر الفاطمي بثلاثة [illegible] (الخطط ١/٤٧٠).

(٥٤) هذه الرواية تخالف تماماً اتهام ابن الأثير (الكامل ٩/٤٣ حوادث سنة ٥٤٨ هـ) والمقريزي (الخطط ٢/٣٠) لابن منقذ في تدبير مقتل ابن السلار ومقتل الطلائع

Marfat.com

لا تجاوبني؟» قال: يا مولاي مولانا ما ندري أين هو، قال: مثل مولانا يضيع؟ ارجع فاكشف الحال!!. فمضى ورجع وقال: ما وجدنا مولانا، فقال عباس: ما يبقى الناس بلا خليفة، ادخل إلى الموالي إخوته يخرج منهم واحد نبايعه. فمضى وعاد وقال: الموالي يقولون لك: نحن مالنا في الأمر شيء والده عزله عنا وجعله في الظافر، والأمر لولده بعده. قال: اخرجوه حتى نبايعه.

وعباس قد قتل الظافر وعزم على [٦٠ ب] أن يقول: إخوته قتلوه! ويقتلهم به. فخرج ولد الظافر، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر، فأخذه عباس فحمله وبكى الناس. ثم دخل به، وهو حامله إلى مجلس أبيه وفيه أولاد الحافظ: الأمير يوسف والأمير جبريل وابن أخيهم الأمير أبو البقاء.

ونحن في الرواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوت السيوف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: ابصر من هذا المقتول؟ فمضى ثم عاد وقال: ما هؤلاء مسلمون. هذا مولاي أبو الأمانة ـ يعني الأمير جبريل ـ قد قتلوه وواحد قد شقَّ بطنه يجذب مصارينه. ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف وقد ضربه بسيف والدم يفور منه. وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس. فأدخلاهما في خزانة في القصر وقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرد(٥٥).

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق.

ـ ١٦ ـ

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباساً لما أراد الدخول إلى

---

(٥٥) مقتل الأمراء الفاطميين: انظر ابن الأثير (الكامل ٩/٤٤) وقد نقلها صاحب الروضتين من كتاب الاعتبار (١/٩٧ ـ ٩٨).

Marfat.com

المجلس وجد بابه قد قفل من داخل. وكان يتولى فتح المجلس وغلقه أستاذ شيخ يقال له: أمين الملك. فاحتالوا في الباب حتى فتحوه. ودخلوا فوجدوا ذلك الأستاذ خلف الباب، وهو ميت، وفي يده المفتاح.

— ١٧ —

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونُصر فيها عباس على جند مصر فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب الناس وأضمروا فيها العداوة والبغضاء. وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رُزِّيك[٥٦]، رحمه الله، يستصرخون به. وحشد وخرج من ولايته[٥٧] يريد القاهرة. فأمر عباس فعمرت المراكب وحمل فيها الزاد والسلاح والخزانة. وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه، وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة، وقال لي: تقيم معه.

فلما خرج من داره متوجهاً إلى لقاء ابن رُزِّيك خامر عليه الجند وغلقوا بواب القاهرة، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة: خيالتهم تقاتلنا في الطريق ورجالتهم يرموننا [٧ أ] بالنشاب والحجارة من على السطوحات، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات. ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر. فاستظهر عليهم عباس. وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا. ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه. وأمر بإحراق البرقية[٥٨] لأنها مجمع دور الأجناد. فتلطفت الأمر

---

(٥٦) طلائع بن رزيك، أبو الغارات وزير الفائز والعاضد، كانت بينه وبين أسامة مودة ومراسلات شعرية أودع أسامة قسماً منها في كتاب المنازل والديار (٨٠ منزلاً من منازل القاهرة) وذكر صاحب الروضتين جملة منها (١/١١٥ - ١٢٠)، وله ترجمة موسعة في خطط المقريزي (٢/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٥٧) كان والياً على الأشمونيين إذ ذاك، انظر: خطط المقريزي ١/٣٥٧، ٢/٣٠، ٥٦

(٥٨) البرقية: محلة في شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند برقة (الخطط المقريزي ٢/١٢).

Marfat.com

معه وقلت: يا مولاي، إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لا تريد. وبَعَلْتَ[٥٩] عن أن تطفئها، ورددت رأيه عن ذلك[٦٠].

وأخذت الأمان للأمير المؤتمن بن أبي رمادة[٦١]، بعد أن أمر بإتلافه، واعتذرت عنه فصفح عن جرمه.

ثم سكنت تلك الفتنة، وقد ارتاغ منها عباس وتحقق عداوة الجند والأمراء، وأنه لا مقام له بينهم. وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك العادل نور الدين[٦٢] رحمه الله - يستنجد به. والرسل بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة وكان بيني وبينه، رحمه الله، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر، فنفذ إليَّ رسولاً يقول لي: عباس ما يقدر على المقام بمصر، بل هو يخرج منها إلى الشام وأنا أملك البلاد، وأنت تعرف ما بيني وبينك فلا تخرج معه، فهو بحاجته إليك في الشام يُرغِّبك ويُخرجُك معه فاللَّهَ اللَّهَ لا تصحبه، فأنت شريكي في كل خير أناله. فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك أو توهَّمه لما يعلمه بيني وبين ابن رُزِّيك من المودة[٦٣].

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقَتَلهُ الإفرنج، فإنه لما توهم

---

(٥٩) بعل عن الشيء: إذا عجز عنه.

(٦٠) انظر هذه الحوادث في الكامل لابن الأثير ٩/٤٤، قال: «وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب إلى الشام».

(٦١) الأمير المؤتمن بن أبي رمادة، الظاهر أنه كان زمَّام القصر، انظر العبر لابن خلدون ٤/٨٠ وتاريخ الفاطميين لوستنفيلد ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

(٦٢) الملك العادل نور الدين، انظر حاشية ٢٧.

(٦٣) تتوضح هذه المودة في كثير من القصائد المتبادلة بينهما والتي أوردها أسامة في كتبه، انظر مثلاً: ديوان أسامة ١١٢ ـ ١١٣ وكتاب المنازل والديار (تحقيق خالدوف) ورقة ٥١ ب وكتاب الروضتين ١٠٧، ١١٥ ـ ١٢٠.

Marfat.com

من أمري وأمر ابن رُزِّيك ما توهمه أو بلغه أحضرني واستحلفني بالإيمان المغلظة التي لا مخرج منها إنني أخرج معه وأصحبه(٦٤). ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره، وقال لي: أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق، واحملهم مع والدة ناصر الدين. واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله. فكان له مئتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجالة كعادتهم بمصر ومائتا بغل رحل وأربع مئة جمل تحمل أثقاله.

وكان كثير اللهج بالنجوم وهو مُعَوِّل على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة، فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنبر الكبير، وهو متولى أموره كبيرها وصغيرها فقال له: يا مولاي، أي شيء مرجوٍ من مسيرنا إلى الشام؟ خذ خزائنك وأهلك وغلمانك ومن [٧ ب] تبعك وسر بنا إلى الإسكندرية، نحشد من هناك ونجمع، ونرجع إلى ابن رُزِّيك ومن معه. فإن نُصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك وإن عجزنا عنه عدنا إلى الإسكندرية [أو](٦٥) إلى بلد نحتمي فيه ويمتنع على عدونا، فنَهَره وخَطَّأ رأيه، وكان الصواب معه.

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بكرة. فلما حضرت عنده قلت: يا مولاي، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتى أعمل شغل سفري؟ قال: عندنا رسل من دمشق، تُسَيِّرهم وتمضي تعمل شغلك.

وكان قبل ذلك أحضر قوماً من الأمراء واستحلفهم أنهم لا يخونونه ولا يخامرون عليه. وأحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء وزريق وجذام وسنبس وطلحة وجعفر ولواته(٦٦) واستحلفهم بالمصحف والطلاق على مثل

---

(٦٤) هذا يناقض ما رواه ابن الأثير: «إن ابن منقذ هرب مع ابن عباس ... وعبره من الحوارجيين

(٦٥) زيادة اقتضاها سياق الكلام.

(٦٦) وردت أسماء بعض هذه القبائل في تواريخ العصر وكان بعضها يتحول بين سيناء وشرق الديار المصرية وفلسطين والشام إلا لواتة القبيلة البربرية فقد كانت مناز لها في أعمال الحيرة

Marfat.com

ذلك. فما راعنا وأنا عنده بكرة الجمعة إلا والناس قد لبسوا السلاح وزحفوا إلينا ورؤوسهم الأمراء الذين استحلفهم بالأمس. فأمر بِشدِّ دوابه فَشُدَّت وأُوقفت على باب داره. فكانت بيننا وبين المصريين كالسدِّ لا يصلون إلينا لازدحام الدواب دوننا.

فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير الذي كان أشار عليه بذلك الرأي، وهو زمامهم، صاح عليهم وشتمهم وقال: روحوا إلى بيوتكم، فسيبوا الدواب ومضى الركابية والمكَّارية والجمالون وبقيت الدواب مهملة ووقع فيها النهب.

فقال لي عباس: اخرج احضر الأتـراك وهم عند بـاب النصر(٦٧) والكتاب ينفقون فيهم فلما جئتهم واستدعيتهم. ركبوا كلهم وهم في ثماني مئة فارس وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال وركب المماليك وهم أكثر من الأتراك وخرجوا أيضاً من باب النصر ورجعت إليه عرفته ثم اشتغلت بإخراج أهلي الذين كان حملهم إلى داره. فأخرجتهم وأخرجت حرم عباس. فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصـريون إلينـا فأخرجونا ونحن في قلة وهم في خلق كثير.

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها فأخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جِمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير. وأخذوا من إصطبلي ستة وثلاثين حصاناً وبغلة سروجية(٦٨) بسروجها وعدتها كاملة وخمسة وعشرين جملاً.

= والبهنسا. وقد ذكر ابن القلانسي «بنى زرق» في حديثه على حملة بلدوين ملك القدس على صور وظفره بقافلة دمشق بمساعدة واحد منهم (ذيل تاريخ دمشق ١٨٣). وعن لواتة انظر: اتعاظ الحنفا ٩٧/٣. وانظر: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي (القاهرة ١٩٦١) الصفحات ٤، ٨، ١١، ٣٣، ٤٠، ٤٩ ففيه تفصيل عنهم.

(٦٧) باب النصر: أحد أبواب القاهرة وقد فصل المقريزي أخباره في (الخطط ٣٨١/١).

(٦٨) سروج: من كور الجزيرة المعروفة بديار مضر وربيعة (البكري: معجم ما استعجم ٣٨١/٢) وانظر: ٧٣٧/٣ من الكتاب نفسه وقال ياقوت: «بليدة قريبة من حران تقع إلى الشمال الغربي من منبج» (معجم البلدان ٢١٦/٣).

Marfat.com

وأخذوا من إقطاعي من كوم إشفين[٦٩] مئتي رأس بقر للتنائين وألف شِيَّة وأهراء غلة.

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس وقاتلونا من يوم الجمعة [٨ أ] ضحى النهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول فكانوا يقاتلونا النهار كله. فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه.

ـ ١٩ ـ

وانقطعت يوماً عن أصحابي وتحتي حصان أبيض هو أردأ خيلي، شَدَّه الركابى ولا يدري ما يجري، وما معي من السلاح غير سيفي. فحمل عليَّ العرب فلم أجد ما أدفعهم به ولا ينجيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم. قلت: أثب عن الحصان وأجذب سيفي، وأدفعهم. فجمعت نفسي لأثب فتتعتع الحصان فوقعت على حجارة وأرض خشنة فانقطعت قطعة من جلد رأسي ودُخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه. فوقف على منهم قوم وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الذهن وسيفي مرمى بجهازه. فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال: هات الوزن[٧٠]، وأنا لا أدري ما يقول، ثم أخذوا حصاني وسيفي.

ورآني الأتراك فعادوا إليّ، ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفاً وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي فسبحان من لا يزول ملكه.

وسرنا وما مع أحد منا كَفُّ زاد، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت وشربت

---

(٦٩) كوم إشفين: بليدة في القليوبية، ذكر هذا أحمد كمال زكي في [illegible] (فهرسه ١٩٧٤) ١٨٦. الشية: الشاء والواحد شاة للذكر والأنثى. ونقل المقريزي في كتاب المقفى (مخطوطة لايدن ١٤٥٣٣: ورقة ١٢٨ ب) في ترجمة أسامه ما نهب لأسامه من كتاب الاعتبار دون الإشارة إليه ومثل ذلك في كتاب اتعاظ الحنفا ٣/ ٢١٤ ـ ٢١٧

(٧٠) بمعنى: ادفع لنا ما عندك من مال.

Marfat.com

بيدي. وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا على ستة عشر جمل روايا وما شاء الله سبحانه من القرب والسطائح.

وعجزت عن حمل أهلي، فرددتهم من بلبيس[٧١] إلى عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك رحمه الله فأحسن إليهم وأنزلهم في دار وأجرى لهم ما يحتاجونه. ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا[٧٢] إذا عدنا.

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الأول فصبحونا الإفرنج في جمعهم على المويلح[٧٣] فقتلوا عباساً وابنه حسام الملك وأسروا ناصر الدين وأخذوا خزانته وحرمه وقتلوا من ظفروا به. وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبدالله محمداً، رحمه الله، أسيراً[٧٣أ]. وعادوا عنا ونحن قد تَحَصنَّا عنهم في الجبال.

فسرنا في أشدٍّ من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا [٨ ب] جبال بني فُهيد[٧٤]، لعنهم الله، في وادي موسى[٧٥]. وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ورجال وشياطين

---

(٧١) بلبيس: انظر حاشية ٤٨.

(٧٢) حسبنا: معناها هنا إعطاؤهم ما يرضيهم من مال أو أملاك، ومنها: أحسبت الرجل إذا أعطيته ما يرضى به (لسان العرب ٣٠٢/١ بولاق ١٣٠٠ هـ) وانظر: كتاب الروضتين ٩٨/١، فقد نقل الحكاية من كتاب الاعتبار. وقد تعني الحماية في قولهم: أنا في حسبك، كما جاء في الحكاية رقم (٩).

(٧٣) المويلح: موقع يقع على بعد خمسين كيلاً إلى الشمال من العقبة.

(٧٣ أ) تخلص من الأسر بمفاداته بالمشطوب وهو فارس من الديوية أو الداوية كان الملك العادل نور الدين قد أسره ووهبه لأسامة فبادله بأخيه هذا (الروضتين ١١٣/١) وديوان أسامة ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٧٤) بنو فهيد: لم نقع لهم على ذكر وأخبرني أحد الأخوة من غزة وهو الأخ عابد المشوخي أنَّ هذه الجماعة من الأعراب ما زالت معروفة في صحراء سيناء الغربية بهذا الاسم. وقد وقعت فيما بعد على ذكر لهم في كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي، صفحة ٧؛ قال: «قوم من زبيد يعرفون ببني فهيد».

(٧٥) وادي موسى: يقع جنوب بيت المقدس وينسب لموسى بن عمران عليه السلام (معجم البلدان ٣٧٧/٨) وهو بالقرب من معان وفيه تقع سلع عاصمة الأنباط أو البتراء كما تسمى في الكتابات اليونانية Petra.

Marfat.com

رجيمة من ظفروا به منا منفرداً قتلوه.

وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين. فسألت من هاهنا من أُمراء بني ربيعة؟ قالوا: منصور بن غدفل[٧٦] وهو صديقي فدفعت لواحد دينارين وقلت: امض إلى منصور قل له: صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك: صل إليه بكرة. وبتنا في مبيت سوء من خوفهم.

فلما أضاء الصبح أخذوا عدتهم ووقفوا على العين وقالوا: ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش، وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها وإنما قصدهم أن يُنشبوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا. فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن غدفل وصل، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا وقال: اركب، فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر. فنزلنا إلى الوطأ سالمين، وما كدنا نسلم فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه، وعاد.

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الإفرنج وبني فهيد[٧٧] يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عزّ وجلّ وحسن دفاعه.

ـ ٢٠ ـ

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوانا[٧٨] صغيراً مليحاً إفرنجياً. وكنت قد خرجت إلى قرية لي وابني

---

(٧٦) منصور بن غدفل: هو من أمراء ربيعة الطائيين، ذكر العماد مقتل [illegible] منصور بن غدفل مع بعض الأمراء العرب في وقعة عكا مع صلاح الدين الأيوبي (الفتح القسي في الفتح القدسي (القاهرة ١٣٢١ هـ) ١٣٩.

(٧٧) أي ممن سلم من رفاق ابن منقذ من قتل الفرنج وبني فهيد.

(٧٨) رهوان: معرَّب من «رهوار» الفارسية وهو البردون، وقد ورد عند دوزي ١/٥٦٤، وما تزال اللفظة جارية على السنة العراقيين بمعنى السريع في جريه

Marfat.com

أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس فقال: كنا نريد لهذا الرهوان سرجاً مليحاً من السروج الغزية(٧٩). فقال له ابني: قد وجدته يا مولاي، وهو فوق الغرض. قال: أين هو؟ قال: في دار خادمك والدي له(٨٠) سرج غزى مليح. قال: انفذ احضره. فارسل رسولاً إلى داري أخذ السرج فأعجبه وشدَّ به على الرهوان. وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو مُنبَّت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالاً.

ووصلت أنا من الإقطاع فقال لي ناصر الدين: ادللنا عليك وأخذنا هذا السرج من دارك. فقلت: يا مولاي، ما أسعدني بخدمتك. فلما خرج علينا الإفرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم. فلما رجح الإفرنج بقيت الخيل سائبة فنزل الغلمان عن [٩ أ] الجمال واعترضوا الخيل وأخذوا منها ما ركبوه. فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس.

وكان حسام الملك ابن عم عباس وأخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع: كل ما كان لهذا المسكين (يعني ابن عباس) نهب. فمنه ما نهبه الإفرنج ومنه ما نهبه أصحابه. قلت: لعلك تعني السرج الذهب. قال: نعم! فأمرت بإحضاره وقلت: اقرأ عليه، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي؟ ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري؟ وكان اسمي مكتوباً على دائر السرج بالسواد ووسطه مُنبَّت. فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت.

ولولا نفاد المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ

---

(٧٩) نسبة إلى مدينة غزة.

(٨٠) «له» هنا تعود إلى الرهوان.

Marfat.com

بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخشي[٨١] رحمه الله. كان وزيراً فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس، فخرج من مصر يريد الشام ونهبت داره وحرمه، حتى أن رجلاً يعرف بالقائد مقبل رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره. وكانت له امرأة صالحة فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول: لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا. فسألتها: من أنت؟ فقالت: أنا قطر الندى بنت رضوان. فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته، فعرفته حال البنت. فكتب إلى الحافظ مطالعة فعرفه بذلك فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر.

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد وفيها أمين الدولة طغدكين أتابك[٨٢] رحمه الله فأكرمه وأنزله وخدمه. وملك الأمراء أتابك زنكي ابن آقسنقر رحمه الله على بعلبك يحاصرها. فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه. وكان رجلاً كاملاً كريماً شجاعاً كاتباً عارفاً، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه. فقال لي الأمير معين الدين رضي الله عنه: هذا الرجل إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير. قلت: فأي شيء ترى؟ قال: تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك، ويكون وصوله إلى دمشق. وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك. فسرت إليه إلى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحد وتحدثت معهما. فقال لي الأفضل رضوان: فرط الأمر مني ورهنت قولي عند [٩ ب] هذا السلطان بوصولي إليه، ولزمني الوفاء بقولي. قلت: أقدمك الله على خير وأنا

---

(٨١) رضوان بن الولخشي: تولى وزارة الحافظ بعد هزيمة بهرام الأرمني ثم انهزم إلى الشام وعاد إلى القاهرة فاعتقل ثم هرب من السجن وقتل، انظر: الكامل ١١/ ٤٨، ٤٩، في حوادث ٥٣١ هـ، والخطط للمقريزي ١/٣٥٧، واتعاظ الحنفا ٣/ ١٦٩ - ١٧٣، ١٨٣ - ١٨٤

(٨٢) المعروف أن صاحب صلخد (وتسمى صرخد أيضاً) كان أمين الدولة كمشتكين الأرمني (الكامل ٨/٣٥٦ - طبعة الاستقامة ١١/٤٩ طبعة لايدن)، وانظر كذلك كتاب الوصيين ١/٥٠، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٩٦، واتعاظ الحنفا ٣/١٠٢

Marfat.com

أعود إلى صاحبي فإنه ما يستغني عني بعد أن أخرج إليك بما في نفسي. قال: قل! قلت: إذا وصلت إلى أتابك، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به؟ قال: لا! قلت: فإذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم، يسير معك إلى مصر قبل أن يجدد بركه[٨٣] ويقوي عسكره؟ قال: لا. قلت: ذلك الوقت يقول لك نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا فإذا وصلتم إلى حلب قال: نمضي إلى الفرات نجمع التركمان، فإذا نزلتم على الفرات قال: إن لم نُعَدِّ الفرات ما يجتمع لنا التركمان، فإذا عديتم تَشرَّف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال: هذا عزيز مصر في خدمتي، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجراً من حجارة الشام فلا تقدر عليها وتذكر حينئذ كلامي وتقول: نصحني ما قبلت! فاطرق مفكراً لا يدري ما يقول. ثم التفت إليّ وقال: ماذا أعمل؟ وأنت تريد ترجع! قلت: إن كان في مقامي مصلحة أقمت. قال: نعم، فأقمت.

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ويكون له دار العقيقي ويخرج لأصحابه ديوان، وكتب لي خطه بذلك وكان كاتباً حسناً. وقال: إن شئت سرت معك. قلت: لا، أنا أسير ومعي الحَمَامُ من هاهنا. فإذا وصلت وأخليت الدار ورتبت الأمر طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت ألقاك في نصف الطريق وادخل بين يديك. فتقرر ذلك وودعته وسرت.

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره إلى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه. فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له. فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب. وراسل الحافظ وطلب منه الأمان وعاد إلى مصر. فساعة وصوله إلى مصر أمر

---

(٨٣) بركة: متاعه وما يتزوده من ذخيرة وزاد وسلاح.

Marfat.com

به الحافظ فحبس هو وولده(٨٤).

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر. فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعاً وخرج ليلة الخميس وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته(٨٥) ومشوا إلى النيل عدواً إلى الجيزة واختبطت القاهرة لهروبه [١٠ أ] وأصبح في منظرة في الجيزة والناس يجتمعون إليه، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله. ثم أصبح بكرة الجمعة عَدًّى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز(٨٦) صاحب الباب مدرعين للقاء. فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة.

وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر قبل دخوله البلد فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد. فرجعت نزلت في داري. ونزل رضوان في الجامع الأقمر(٨٧) واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة. وقد جمع الحافظ قوماً من السودان في القصر شربوا وسكروا وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضواناً. فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابى وراح. فرآه رجل من صبيان الخاص(٨٨) واقفاً على باب الجامع فقال: يا مولاي، ما تركب حصاني؟ قال: بلى! فجاء إليه يركض وسيفه في يده فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف فوقع، ووصله السودان قتلوه. وتقاسم أهل مصر لحمه

---

(٨٤) انظر: الكامل ٨/٣٥٧ (مطبعة الاستقامة).

(٨٥) لواتة: قبيلة بربرية كان لها اتصال بالفاطميين وبعض وزرائهم. وانظر حاشية ٦٦ ولها ذكر كثير في تواريخ الفاطميين.

(٨٦) هو تاج الملك قايماز صاحب الباب أو تاج الملوك: من كبراء الأجناد كانت له يد مسموعة في دسائس القصر والأجناد. كان على قيادة الجيش الذي أرسل لمحاربة [illegible] وحشي (اتعاظ الحنفا ٣/١٧٣) وقتله الصالح بن رزيك (اتعاظ الحنفا ٣ ٢٢١) [illegible] صاحب الباب، انظر القلقشندي، صبح الأعشى ٣/٤٨٣.

(٨٧) الجامع الأقمر: فصل المقريزي أخباره في الخطط ٢/٢٩٠ وصبح الأعشى ٣/٣٦٥

(٨٨) صبيان الخاص: هم حرس الخليفة الخاص وكان عددهم خمس مئة يطلق عليهم أحياناً صبيان الحجر. انظر حاشية ١٨ أعلاه.

Marfat.com

يأكلونه ليكونوا شجعاناً. فقد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة.

وأصاب ذلك اليوم رجلاً من أصحابنا الشأميين جراح كثيرة فجاءني أخوه وقال: أخي تالف، قد وقع فيه كذا وكذا جرح سيوف وغيرها وهو مغمور ما يفيق!! قلت: ارجع افصده. قال: قد خرج منه عشرون رطل دم. قلت: ارجع افصده فأنا أخبر منك بالجراح، وليس له دواء غير الفصاد. فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر قال: أنا فصدته، وهو آفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس. قلت: الحمد لله ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك.

ـ ٢٢ ـ

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين[٨٩]، رحمه الله. وكاتب الملك الصالح[٩٠] في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر، وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج. وكتب إليَّ يقول: ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك. وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين، وأُسيِّر إليك أهلك وأولادك.

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال: يا فلان، ما صَدَّقت متى تخلص من مصر وفتنها تعود إليها؛ العمر أقصر من ذلك. أنا [١٠ ب] أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج[٩١] وأُسيِّر من يُحضرهم. فانفذ، رحمه الله، أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر.

---

(٨٩) نقل صاحب كتاب الروضتين هذه الحكاية من كتاب الاعتبار (١/ ٩٩).
(٩٠) هو طلائع بن رزيك أبو الغارات، فارس المسلمين.
(٩١) كان بلدوين الثالث ملك الإفرنج إذ ذاك.

Marfat.com

ـ ٢٣ ـ

وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح فسيرهم في عشارى[٩٢] من الخاص إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ووصى بهم وأقلعوا من دمياط في بُطسة[٩٣] من بطس الإفرنج فلما دنوا من عكا والملك لا رَحِمَهُ الله فيها نفذ قوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس وأصحابي يرونهم. وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه.

فخرج إليه غلام لي سباحة، والأمان معه وقال له: يا مولاي الملك، ما هذا أمانك؟ قال: بلى، ولكن هذا رسم المسلمين: إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد. قال: فتسبينا[٩٤]؟ قال: لا، وأنزلهم، لعنه الله في دارٍ وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلى أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار. فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال: توصلوا بهذه إلى بلادكم ـ وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمة.

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل[٩٥] في بلاد الملك مسعود[٩٦] رعبان[٩٧]

---

(٩٢) عشاري: نوع من السفن، انظر عنها: السفن الإسلامية لدرويش النحيلي (الإسكندرية ١٩٧٤) ٩٥ ـ ١٠١.

(٩٣) بطسة: نوع من المراكب، ورد ذكرها كثيراً في تواريخ العصر (دوزي ١ ٩٤) والنحيلي ١٤ ـ ١٧.

(٩٤) بمعنى: أتأخذنا أسارى؟ وردت الحكاية باختصار مع أبيات ثلاثة في ديوان أسامة ٦٠ والروضتين ١/٩٩.

(٩٥) الملك العادل هنا هو نور الدين محمود.

(٩٦) الملك مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقسرا وعدة بلاد (ابن بيبي ١ ٧٢) تولى الملك بعد مقتل والده (الكامل ١٠/ ١٥٠ ـ ١٥١) وعلى ولده الحفيد (البداية والنهاية ٣٧/٣).

(٩٧) رعبان وكيسون: قلعتان في شمال حلب وجنوب بهسنا (الكامل ١٠/ ٤٦١، ٥٠٢، الموسوعة الإسلامية مادة «بنس»).

Marfat.com

وكيسون فَهَّون عليَّ سلامة أولادي وأولاد أخي، وحز فينا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال، والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته. وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نُكبتُها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال، وأجحفت بهلاك المال.

ـ ٢٤ ـ

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين ما لا أحصيها. وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره. وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممر الأعوام وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام.

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، إننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا[٩٨]، صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا وبينه [١١ أ] ما تغِبّ[٩٩] والمواكب واقفة والطراد بين المُتَسرِّعة[١٠٠] فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير وهو يبكي فقلت له: مالك يا أبا محمود؟ هذا وقت بكاء؟ قال: طعنني سَرْهَنك بن أبي منصور. قلت: وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون؟ قال: ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك والله أن الموت أسهل عليَّ من أن يطعنني، لكنه استغفلني واغتالني. فجعلت أُسَكِّنه وأهوِّن عليه.

---

(٩٨) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة، توفي سنة ٥١٧ هـ من سهم مسموم أصابه في حصار أفامية. قال ابن الأثير فيه: «واستراح أهل عمله من ظلمه وجوره» (الكامل ٦١٨/١٠).

(٩٩) ما تغبّ: أي ما تنقطع.

(١٠٠) المتسرعة من الجيش: أوائله.

Marfat.com

فَردَّ رأس فرسه راجعاً، فقلت: إلى أين يا أبا محمود؟ قال: إلى سرهنك، والله لأطعننَّه أو لأموتن دونه. فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن يقابلني، ثم عاد وهو يضحك، فقلت: ما عملت؟ فقال: طعنته والله، ولو لم أطعنه لفاضت روحي. فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد. فكأن هذا الشعر عني سرهنك وجمعة بقوله:

لله دَرُّك مـا تَـظُنُّ بـثـائـرٍ حَرَّانَ ليس عن التِرات بِراقِدِ[101]
أيقظته ورقدت [عنه][102] ولم يَنَمْ حنقـاً عليك وكيف نَـومُ الجـاهِـدِ
إنْ تُمْكِن الأيـامُ منـك وعَـلَّهـا يـوماً يَكِـلْ لك بـالصواع الـزائـد

وقد كان سرهنك هذا من الفرسان المذكورين مقدماً في الأكراد إلا أنه كان شاباً وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة.

ـ ٢٥ ـ

وذكرت بفعلة سرهنك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر رحمه الله بأبي مُسَيكة الإيادي.

وذلك أنه لما ارتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق، رضوان الله عليه، وعزم الله سبحانه له على قتالهم، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين، فكان أبو مسيكة الأيادي مع بني حنيفة وكانوا أشد العرب شوكة. وكان مالك الأشتر في جيش أبي بكر رحمه الله. فلما تواقفوا برز مالك بين الصفين وصاح: يا أبا مُسيكة. فبرز له، فقال: ويحك يا أبا مسيكة بعد الإسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر؟ فقال: إياك عني يا مالك إنهم يُحَرِّمون الخمر ولا صبر عنها. قال: فهل لك في المبارزة؟ قال: نعم. فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف، فضربه أبو مسيكه فشق رأسه وشتر عينه [١١ ب] وبتلك الضربة سُمِّي الأشتر.

---

(١٠١) لم نقع على قائل الأبيات بعد ولم ترد في ديوان أسامة إن كانت له

(١٠٢) زيادة لا يتم الوزن إلاّ بها.

Marfat.com

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله. واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون. فقال لأحدهم: أدخل يدك في فمي، فأدخل إصبعه في فمه فعَضَّها مالك فالتوى الرجل من الوجع. فقال مالك: لا بأس على صاحبكم. يقال: إذا سلمت الأضراس سلم الرأس، احشوها ـ يعني الضربة ـ سويقاً وشُدُّوهاً بعمامة. فلما حشوها وشدُّوها، قال: هاتوا فرسي. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أبي مُسيكة فبرز بين الصفين وصاح: يا أبا مسيكة. فخرج إليه مثل السهم، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله. ورجع مالك إلى رحله فبقى أربعين يوماً لا يستطيع الحراك، ثم أبلَّ وعوفي من جرحه ذلك(١٠٣).

ـ ٢٦ ـ

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون وقد ظُنَّ أنه قد هلك، إننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى أرضنا وكمن لنا كمينا. فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا. فجاءني فارس من جندنا يقال له: علي بن سلام النميري وقال: أصحابنا قد انتشروا، إن حملوا عليهم اهلكوهم!! قلت: احبس عني إخوتي وبنى عمي حتى أردَّهم. فقال: يا أمراء، دعوا هذا يرد الناس ولا تتبعوه، وإلا حملوا عليهم قلعوهم، قالوا: يمضي. فخرجت أناقل حصاني حتى رددتهم وكانوا ممسكين عنهم ليستَجِرّوهم ويتمكنوا منهم.

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا. وخرج كمينهم وأنا على فسحة من أصحابي. فرجعت مباريهم(١٠٤) أريد أحمي أعقاب أصحابي. فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى رحمه الله، قد جذب من وراء أصحابي من قِبليَّ

---

(١٠٣) قصة مالك بن الأشتر مع أبي مسيكة أيام ردة بني حنيفة رواها أسامة في لباب الأداب ١٨٧ ـ ١٨٨.

(١٠٤) يباري فلان فلاناً: يعارضه ويراوغه في القتال وغيره.

Marfat.com

الطريق وأنا في شماليَّه، فجئناهم فَتَسرَّع فارس من خيلهم يقال له: فارس بن زمام، رجل عربي فارس مشهور، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا، فسبقني إليه ابن عمي، فطعنه فوقع هو وحصانه وفقع الرمح فقعةً سمعتها أنا وأولئك.

وكان الوالد، رحمه الله، أرسل رسولاً إلى شهاب الدين، فأخذه معه لما جاء لقتالنا فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سار فيه ورجع إلى حماة. فسألت الرسول: هل مات فارس بن زمام؟ قال: لا والله، ولا فيه جرح. قال: ليث الدولة طعنه وأنا أراه فرماه ورمى حصانه، وسمعت قعقعة كسر الرمح، لما غشيه ليث الدولة من يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطاريته فوقع حصانه [١٢ أ] على قنطاريته(١٠٥) وهي على وهدة فانكسرت وتَذَنَّب(١٠٦) ليث الدولة برمحه فوقع من يده. والذي سمعت قعقعة قنطارية فارس بن زمام. ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين، وأنا حاضر، وهو صحيح ما فيه كسر، ولا في فارس جرح، فعجبت من سلامته. وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنترة:

الخيل تعلم والفوارس أنني فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جميعهم وكمينهم ما نالوا منه ما أرادوه.

والبيت المقدم من أبيات لعنترة بن شداد يقول فيها:

إني امُرؤٌ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل

---

(١٠٥) القنطارية: نوع من الرماح الإفرنجية، ذكرها دوزي (٢/ ٤١٣)، وقوله «وهي على وهدة»، يعني: أن القنطارية وقعت على حفرة فلما وقع عليها الحصان انكسرت، والوهدة: المنخفض من الأرض.

(١٠٦) تذنّب الرمح: امسك بالرمح من نهايته.

Marfat.com

وإذا الكتيبة أحجمت فتلاحظت ألفيت خيراً من مُعمٍّ مخول
إن المنية لو تمثل مثلت مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس أنني فرقت جمعهم بطعنة فيصل
ودعوا نَزالِ فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل[١٠٧]

ومثل ذلك ما جرى لي على أفامية[١٠٨] فإن نجم الدين إيلغازي بن أرتق[١٠٩] رحمه الله كسر الإفرنج على البلاط[١١٠] وذلك يوم الجمعة خامس جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مئة وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه[١١١]. فسار إليه عمي عز الدين أبو العساكر سلطان رحمه الله وتخلف والدي رحمه الله في حصن شيزر[١١٢] وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية. وكان قد هدف[١١٣] من العرب إلينا خلق كثير.

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يويمات مُن مسيره. وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خياله ومعي

---

(١٠٧) انظر الأبيات في ديوان عنترة فهي مشهورة.

(١٠٨) أفاميه: قال ياقوت: «مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص» (معجم البلدان ١/٢٢٧) وانظر أيضاً: الموسوعة الإسلامية ١/٢١٥.

(١٠٩) نجم الدين إيلغازي بن أرتق، كان صاحب ماردين وديار بكر وحلب، وانظر حاشية ١١٤ و ٢٤٥.

(١١٠) البلاط: موضع يقع شمال قلعة الأثارب، قال البكري: «موضع بين الموصل ونصيبين» (معجم ما استعجم ١/٢٧٣، ٥٦٨) وهو من كور ديار ربيعة، وانظر المسالك والممالك للأصطخري (القاهرة ١٩٦٠) ٥٢ ـ ٥٣. وانظر صفحة ١٣٩ من الاعتبار.

(١١١) انظر الكامل ١٠/٥٥٤ ـ ٥٥٥. وانظر: حكاية رقم: ١١٣.

(١١٢) حصن شيزر: ذكره ابن الأثير فقال: «هو حصن قريب من حماة بينهما نصف نهار» وذكر ولاية بني منقذ للحصن (الباهر ١٩٦ ـ ٢٠٠). وانظر حاشية ٢٤٤.

(١١٣) بمعنى: قد تجمَّع وأسرع وأوى (تاج العروس ٦/٢٧٣).

Marfat.com

خلق عظيم من النَهَّابة والبادية. فلما صرنا على وادي أبو الميمون والنهابة والعرب متفرقون في الزرع، خرج علينا من الإفرنج جمع كثير. وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً. فكشفونا عن الوادي. فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه. فضجوا ضجة عظيمة فهان عليَّ الموت لهلاك ذلك العالم [١٢ ب] معي فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفّف ليجوزنا من بين أيدينا فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً. ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا، وأنا غرٌّ من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم، وتحتي فرس مثل الطير، ألحق أعقابهم لأطعـن فيهم ثم أجتنُّ عنهم.

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمـل بالـدرع ولامة الحرب، أنا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود عليَّ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه فعلمت أنه قد أعيا. فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس. ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا أظن أني قتلته. فجمعت أصحابي وهم سالمون.

وكان معي مملوك صغير يَجُرُّ فرساً لي دهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة، فنزل عن البغلة وسيَّبها وركب الحجرة فطارت به إلى شيزر. فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة سألت عن الغلام فقالوا: راح، فعلمت أنه يصل شيزر ويشتغل قلب الوالد رحمه الله فدعوت رجلاً من الجند وقلت: تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى.

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال: أي شيء لقيتم؟. قال: يا مولاي خرج علينا الإفرنج في ألف، وما أظن أحداً يسلم إلا مولاي. قال: كيف يسلم مولاك دون الناس؟ قال: رأيته قد لبس وركب الخضراء... وهو يحدثـه وذلك الفـارس قد وصله وأخبـره باليقين. ووصلت بعـده، فاستخبرني رحمه الله فقلت: يا مولاي كان أول قتال حضرته فلما رأيت

Marfat.com

الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان عليَّ الموت. فرجعت إلى الإفرنج لأقتلَ أو أحمي ذلك العالم، قال رحمه الله متمثلاً:

يَفِـــر جبـانُ القـــوم عن أم رأســه ويحمي شجاع القوم من لا يلازمه

ووصل عمي رحمه الله من عند نجم الدين إيلغازي[١١٤] رحمه الله بعد أيام فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه. فجئته فإذا عنده رجل من الإفرنج فقال: هذا الفارس قد جاء من أفامية يريد يبصر الفارس الذي طعن فيليب الفارس. فإن الإفرنج تعجبوا [١٣ أ] من تلك الطعنة وأنها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس. قلت: كيف سلم؟ قال ذلك الفارس الإفرنجي: جاءت الطعنة في جلدة خاصرته. قلت: نعم! الأجل حصن حصين، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة.

قلت: يجب على من وصل إلى الطعن أن يَشُدَّ يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة. فإنه متى حرَّك يده بالرمح أو مَدَّها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية.

ـ ٢٩ ـ

وشاهدت فارساً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القشيري، وكان من شجعاننا، وقد التقينا نحن والإفرنج وهو مُعَرًّى ما عليه غير ثوبين فطعنه فارس من الإفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة[١١٥] التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه. فرجع وما نظنه يصل منزله حياً. فَقدَّر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه. لكنه لبث سنةً إذا نام على ظهره لا يقدر يجلس إن لم يجلسه إنسان بأكتافه. ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان.

---

(١١٤) نجم الدين إيلغازي بن أرتق: انظر حاشية ١٠٦، ٢٤٥ وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٥.

(١١٥) العصفورة: اصل مثبت الناصية (القاموس المحيط ٣/ ١٨١).

Marfat.com

قلت: فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

ـ ٣٠ ـ

كان عندنا رجل من المصطنعة يقال له عتاب، اجسم ما يكون من الرجال وأطولهم، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه كانت فيه إبرة دخلت في راحته فمات منها. وبالله لقد كان يَئِنُّ في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته، يموت من إبرة وهذا القشيري تدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لا يصيبه شيء.

ـ ٣١ ـ

نزل علينا صاحب أنطاكية[١١٦] لعنه الله بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا. فجاؤوا نزلوا منزلاً كانوا ينزلونه وهجعوا في خيامهم. فرجعنا نحن إلى آخر النهار، ثم ركبنا، ونحن نظن أنهم يقاتلونا، فما ركبوا من خيامهم.

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من الإفرنج فجمع دواباً يريد يمضي إلى الغلة يحملها. فسرنا معه في عشرين فارساً مُعَدِّين، ووقفنا بينه وبين الفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى فعدلت أنا ورجل من مولّدينا يقال له حسام الدولة مسافر رحمه الله إلى كرم رأينا فيه [١٣ ب] شخوصاً وهم على شط النهر. فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها والشمس على مغيبها، فإذا شيخ عليه معرقة امرأة[١١٧] ومعه آخر. فقال له

---

(١١٦) صاحب أنطاكية: الظاهر أنه يومند الثاني، خرج سنة ٤٩٣ هـ إلى حصن أوفميه ونزل عليه وأتلف زرعه ووصل الخبر إليه بوصول الدانشمند مع عسكر فلبح أرسلان بن سليمان فعاد إلى أنطاكية وحصل في قبضة الأسر (ابن القلانسي ١٣٨)

(١١٧) المعرقة: غطاء للرأس ذات شكل خاص بالنساء، وقد ذكر دوزي أنواعاً منها (٢ ١٢٠) وقد

Marfat.com

حسام الدولة ـ وكان رحمه الله رجلاً جيداً كثير المزاح ـ: يا شيخ، أي شيء تعمل هاهنا؟ قال: انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار. قال: يا شيخ، بأسنانك تقطع عن خيلهم؟ قال: لا، بهذه السكين. وجذب سكيناً من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار وهو بغير سراويل، فتركناه وانصرفنا.

وأصبحت من بكرة ركبت انظر ما يكون من الإفرنج، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد. قلت: يهنئك السلامة! أي شيء عملت؟ قال: أخذت منهم حصاناً وترساً ورمحاً ولحقني رجل، وأنا خارج من عسكرهم طعنني نفذ القنطارية في فخذي، وسبقت بالحصان والترس والرمح ـ وهو مستقلٌ بالطعنة التي فيه كأنها قي سواه. وهذا الرجل يقال له: الزَمَركـل من شياطين اللصوص.

حدثني عنه الأمير معين الدين[١١٨]، رحمه الله، قال: أغرتُ زمان مقامي بحمص على شيزر وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماة وأنا عدو لصاحب حماة، قال: فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجاؤوني به. فقلت: يا شيخ أيش أنت؟ قال: يا مولاي، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ـ وأخرج يده وهي زمنة ـ قد أخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعلٍّ أن يتصدقوا عليَّ بهما. فقلت لقوم من الجندارية[١١٩]: احفظوه إلى غَدٍ فأجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه. فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار. فعدوا في أثره سبقهم ومضى. قال: وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغلْ فلما عادوا وفيهم جندار يقال له: سومان قد

= ورد لها ذكر في لباب الأداب لأسامة «معرقة امرأة» (صفحة ١٩٣). ولعلَّها ما تستعمله الفلاحات الفرنسيات والهولنديات الآن.

(١١٨) هو الأمير معين الدين أنر.

(١١٩) هم الحرس الخاص وهو اصطلاح فارسي الأصل (معجم الألفاظ الفارسية المعربة لادي شير ٤٦).

Marfat.com

كان يسكن بشيزر. فحدثته حديث الشيخ قال: واحسرتي عليه لو كنت لحقته كنت شربت دمه، هذا الزمركـل. قلت: فأي شيء بينك وبينه؟ قال: نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصاناً منهم. فلما أظلم الظلاَم مشيت إلى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي. فقال لي: إلى أين؟ قلت: آخذ حصاناً من هذه الطوالة. قال: [١٤ أ] وأنا من العشاء أنظرها حتى تأخذ أنت الحصان؟ قلت: لا تَهذِ. قال: لا تَغْتَرّ، والله ما أدعك تأخذ شيئاً. فما التَفتُّ إلى قوله ويمَّمت إلى الطوالة فقام وصاح بأعلى صوته: وافقري! واخيبـة تعبي وسهري! وصَيَّـح حتى خرج عليَّ الإفرنج. فأما هو فطار، فطردوني حتى رميت نفسي في النهر، وما ظننت أني أسلم منهم. ولو لحقته كنت شربت دمه، وهو لص عظيم وما تبع العسكر إلا يسرق منه.

فكان هذا الرجل يقول: من تراه يأتي[١٢٠] هذا يسرق رغيف خبز من بيته؟.

ومن عجيب ما اتفق في السرقة أن رجلاً كان بخدمتي يقال له علي بن الـدودويـه من أهـل مثكيـر[١٢١]. نـزل يـومـاً الإفـرنـج لعنهم الله على كفر طاب[١٢٢] وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[١٢٣]

---

(١٢٠) في المخطوط: «من يراه ما في هذا...».

(١٢١) مثكير أو مذكين: ورد لها ذكر في كتاب سنا البرق الشامي للسنداري في حديثه عن إقطاع صلاح الدين الأيوبي فقال: «وأقطعه في تلك السنة ضيعتين أحدها من ضياع كفر طاب مذكين» (بيروت ١٩٧١، ٧٠) فلعلّها في كتاب الاعتبار مصحّفة من «مذكين أو مذكين» ومع ورودها مرتين في كتاب الاعتبار فإن كتب البلدان لم تذكرها، ومع هذا فقد وردت بصورة «مذكين» في كتاب زبدة الحلب لابن العديم (٢/ ٤٧) ومن محقق الكتاب ولم نقع على موقعها فيما بين أيدينا من معاجم البلدان.

(١٢٢) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحلب، ذكرها القزويني في آثار البلاد (٢٤٨) وقال «في ريفه معطشة أعز الأشياء عند أهلها الماء وليس لها إلاّ ما يجمعونه من مياه الأمطار».

(١٢٣) صلاح الدين الغسياني أو الياغسياني، انظر: حاشية ٨

Marfat.com

رحمه الله، فخرج هذا علي بن الدودويه دار بهم وأخذ حصاناً ركبه وخرج به من العسكر يركض وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن بعضهم قد ركب في طلبه وهو مُجدٌّ في الركض والحسُّ خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه. فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام وإذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته. فوقف حتى شَدَّ فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان والبغلة. وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها.

ـ ٣٣ ـ

كنت يوماً عند أتابك[١٢٤] وهو يحاصر رفنية[١٢٥] وقد استدعاني فقال لي: يا فلان، أي شيء من حصانك الذي خبّأته[١٢٦]؟ وكان قد بلغه خبر الحصان. قلت: لا والله يا مولاي مالي حصان مُخَبًّى[١٢٧]، حُصُني كلها في العسكر. قال: فالحصان الإفرنجي؟ قلت: حاضر. قال: انفذ احضره، أنفذت أحضرته وقلت للغلام: امضِ به إلى الإصطبل. قال أتابك: اتركه الساعة عندك. ثم أصبح سبق [به][١٢٨]، فسبق، وردَّه إلى إصطبلي. وعاد استدعاه من الغد وسبق به فسبق. فحملته إلى إصطبله.

ـ ٣٤ ـ

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة، كان عندنا رجل من الجند يقال

---

(١٢٤) أتابك: هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ترجم له ابن العديم في بغية الطلب (٢٥١ ـ ٢٧٢) وأخباره منثورة في الباهر لابن الأثير والكامل له وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة وتواريخ حلب ودمشق.

(١٢٥) رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص. يقال لها: رفنية تدمر (معجم البلدان ٣/٥٥) وما تزال المدينة تعرف بهذا الإسم في سوريا الآن إلاَّ أنها خرائب كما روى لي الأخ ممدوح خوَّام.

(١٢٦) في الأصل: خبيته.

(١٢٧) كذا في الأصل والصواب: مخبأ.

(١٢٨) زيادة اقتضاها سياق الكلام وتمام معناه.

Marfat.com

له: رافع الكلابي وهو فارس مشهور، اقتتلنا نحن وبنو قراجا[١٢٩] وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم وحشدوا وباسطناهم على فسحة من البلد. ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضاً. وهذا رافع في من يحمي الأعقاب وهو لابس كزاغند[١٣٠] وعلى رأسه خوذة بلا لثام فالتفت لعله يرى فيهم فرصة [١٤ ب] فينحرف عليهم فضربه سهم كشما[١٣١] في حلقه ذبحه ووقع مكانه ميتاً.

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا[١٣٢] وقد انصلح ما بيننا وبينه وقد نفذ إلى عمي يقول له: تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد إلى كرعة[١٣٣] لنمضي نبصر موضعاً نكمن فيه لأفامية ونقاتلها. فأمرني عمي بذلك. فركبت ولقيته وأبصرنا المواضع.

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره وأنا على عسكر شيزر وهو في عسكره وسرنا إلى أفامية فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها وهو مكان لا تتصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب. فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان فقال لي رجل من جندنا: تريد تكسرهم؟ قلت: نعم، قال: اقصد بنا باب الحصن قلت: سيروا، وندم القائل وعلم أنهم

---

(١٢٩) بنو قراجا: أولهم قراجا صاحب حماة، قال فيه ابن القلانسي: «وقد كان مؤثراً للظلم مشاركاً للحرامية وقطاع الطرق» وتوفي سنة ٥٠٥ هـ «وأقيم ولده حين حان مكانه تابعاً في الظلم لأفعاله ناسجاً في العدوان والجور على منواله» (١٨٢). وعن ولده الآخر انظر حاشية ٩٨.

(١٣٠) كزاغند: سترة سميكة تحمي الصدر (دوزي ٢/٤٦٢) وقد ورد ذكرها كثيراً في وقائع العصر.

(١٣١) سهم كشما: لعله من الجدع فيقال: أنف أكشم وكشم مقطوع من أصله وأذن كشماء لم يبن القطع منها شيئاً وهي كالصلماء، والمعنى هنا سهم غير مريش (تاج العروس ٩/٤٩ ـ ٥٠).

(١٣٢) شهاب الدين محمود بن قراجا: انظر ترجمته في حاشية رقم ٩٨

(١٣٣) الظاهر أنها قرية قرب رفنية. لم نقع عليها بعد.

Marfat.com

يدوسونا ويجوزون إلى حصنهم. فأراد أن يَردَّني عن ذلك فأبيت وقصدت الباب.

فساعة ما رآنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا، ترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم إلى الحصن وصفُّوا عوالي قنطارياتهم في الباب وأنا وصاحب لي من مُولِّدي أبي رحمه الله اسمه: رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والنشاب. وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على حوف(١٣٤) الأكراد، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة النميري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعاً فبقيت مسبلة على أعضادها.

وشهاب الدين بمعزل عن القتال. فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة. فجاءني رسوله يقول: لا يزول مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد فأنا قد جرحت وكأني أحس الجرح في قلبي. وأناء راجع فاحفظ أنت الناس، ومضى، ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خربة(١٣٥) وكان الإفرنج لهم عليه ديدبان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية.

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه وعمي قد منعه وقال: والله ما تحل جرحك إلا في دارك. قال: أنا في دار والدي ـ يعني الوالد ـ رحمه الله. قال: إذا [١٥ أ] وصلت

---

(١٣٤) كذا في الأصل ولعلها: حرف جبل الأكراد أو لحف جبل الأكراد، والحرف من الشيء ناحيته والحرف من الجبل ما نتأ في جنبه كهيئة الدكان الصغير أو نحوه (تاج العروس ٦/٦٧.

(١٣٥) في الأصل: «برج مسفار حرييه» دون إعجام وضرب بخط على «مسفار» وانظر حاشية ٢١٤ فلعله هو.

Marfat.com

دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك. فركب المغرب وسار إلى حماة فأقام الغد وبعد الغد، ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات، وما كان به إلا فراغ الأجل(١٣٦).

ـ ٣٦ ـ

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الإفرنج، خذلهم الله، فارساً من أجنادنا يقال له سابه(١٣٧) بن قنيب ـ كلابي ـ(١٣٨) قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ومات لساعته.

ـ ٣٧ ـ

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مَيَّاح فارساً من الإفرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله. ثم إن الإفرنج غاروا علينا بعد أيام، وميَّاح قد تزوج وخرج، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس، قد تشهر به، فطعنه فارس من الإفرنج فقتله، رحمه الله. «يا قرب مأتمه من العرس».

فذكرت به الخبر عن النبي، ﷺ، وقد أُنشد قول قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحفيظة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فقال النبي ﷺ للحاضرين من الأنصار، رضي الله عنهم: هل حضر

---

(١٣٦) ذكر ابن القلانسي هذه الحادثة في تاريخه (حوادث سنة ٥١٧ هـ، صفحة ٢١٠) ولم يذكر مشاركة عسكر شيزر في الحملة ضد أفامية. والظاهر أنه أصيب بسهم مسموم، فلعل عدم أسامة شك في ذلك فأراد أن لا يتهم بقتله حين أصر على رحيله إلى حماه. ووصف ابن القلانسي محمود بن قراجا هذا فقال: «وكان عاهراً ظالماً متمرداً».

(١٣٧) كذا في الأصل دون إعجام.

(١٣٨) أي: من بني كلاب.

Marfat.com

أحد منكم يوم الحديقة؟ فقال رجل منهم: أنا حضرته، يا رسول الله، ﷺ، وحضره، قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء. فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه(١٣٩).

ومن عجائب الطعن أن رجلاً من الأكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي، رحمه الله، إلى أصبهان إلى دركاه(١٤٠) السلطان ملكشاه(١٤١). فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد. فقال له عمي عزّ الدين، رحمه الله: يا حمدات، قد كبرت وضعفت. ولك علينا حق وخدمة. فلو لزمت مسجدك ـ وكان له مسجد على باب داره ـ وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك. قال: أفعل يا أمير، فأجرى له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال: يا أمير، والله، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت. وقتلي على فرسي أشهى إلى من موتي على فراشي. قال: الأمر لك، وأمر [١٥ ب] بِردِّ ديوانه عليه كما كان. ء

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني(١٤٢) صاحب

---

(١٣٩) قيس بن الخطيم: شاعر جاهلي من الأوس، انظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (تحقيق محمد علي الهاشمي ـ الرياض ١٤٠١) ٦٥١/٢ والأغاني (بولاق ١٢٨٥ هـ) ١٦٢/٢ وقد ذكر د. الهاشمي مصادر ترجمته (٦٤٥/٢). ويروى البيت: «أجالدهم يوم الحديقة..».

(١٤٠) دركاه السلطان: بلاطه وسرير ملكه.

(١٤١) ملكشاة: السلطان السلجوقي، توفي سنة ٤٨٥ هـ، انظر عنه: الروضتين ٢٦/١ ووفيات الأعيان ١٢٣/٢ (المطبعة الميمنية) والنجوم الزاهرة ١٣٤/٥ وشذرات الذهب ٣٧٤/٣ والمنتظم ٦٩/٩، وسير أعلام النبلاء ٥٤/١٩ وما بعدها مع مصادر ترجمته.

(١٤٢) السرداني: هو كونت سردان ابن أخت سان جيل (صنجيل) Cerdagne.
انظر عنه: ذيل تاريخ دمشق ١٦٣، والظاهر أنه كان متملكاً لعرقة حين قُتل سنة ٥٠٢ هـ.

Marfat.com

طرابلس. ففزع الناس إليهم، وحمدات في جملة الروع، فوقف على رقعة من الأرض مستقبل القبلة فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيه، فصاح إليه بعض أصحابنا «يا حمدات» فالتفت رأى الفارس قاصده. فرد رأس فرسه شمالاً ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الإفرنجي فطعنه نفذ الرمح منه. فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه. فلما انقضى القتال قال حمدات لعمي: يا أمير، لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟.

فاذكرني قول الفِنْد الزَّماني:

أيا طعنةَ ما شيخٍ كبيرٍ يَفَنٍ بالي
تَفَتَّيتُ بها إذ كَ.....رِه الشِّكَةَ أمثالي[١٤٣]

وكان الفِنْد قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مُقْتَرِنَين فرماهما جميعاً.

وقد كان جرى لنا مثل ذلك: وهو أن فلاحاً من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي، رحمهما الله، قال: شاهدت سربة[١٤٤] إفرنج تائهين قد جاؤوا من البرية لو خرجتم إليهم أخذتموهم. فركب أبي وعمّاي وخرجوا بالعسكر إلى السربة التائهة وإذا به السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي[١٤٥] وهم رماة الإفرنج. فلما رأوا أصحابنا ركبوا خيلهم

---

(١٤٣) انظر: كتاب معاني أبيات الحماسة للنمري (تحقيق عبدالله عسيلان) ١٠٠، ٠٠٠، ٢٤/٩٦، والاشتقاق ٢٤٤ ولباب الآداب ٢٠٦ وكتاب الحماسة ١/١٧٩، ٠٠٠ ٢/٥١ ـ ٥٣.

(١٤٤) السربة (بالباء الموحدة) الجماعة من الناس أو الوحش، ٠٠٠ المشاة) وهي الجماعة من الجند.

(١٤٥) كلمة محرفة من Turcopole وهم الجند المهجنون الذين كانوا في خدمة الإفرنج، ٠٠٠ آباؤهم من الأتراك أو العرب وأمهاتهم يونانيات وكانوا رماة الإفرنج ٠٠٠ في تواريخ العصر. انظر: الفتح القسي للعماد الأصفهاني (لايدن ١٨٨٨) ٤٢٥، ٠٠٠

Marfat.com

وأطلقوا على أصحابنا هزموهم وتموا يطردونهم. فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقال له ياقوت الطويل، وأبي وعمي رحمهما الله، يريانه فطعن فارساً منهم إلى جانبه فارس آخر وهما يتبعان أصحابنا فرمى الفارسين والفرسين.

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لا يزال قد فعل فعلةً يجب تأديبه عليها. فكلما هَمَّ والدي به وبتأديبه يقول عمي: يا أخي، بحياتك هب لي ذنبه ولا تنس له تلك الطعنة فيصفح عنه لكلام أخيه.

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث. حدثني والدي، رحمه الله، قال: قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق أصبهان سحراً: أمير حمدات، أكلت اليوم شيئاً؟ قال: نعم يا أمير، أكلت ثريدة، قلت: ركبنا في الليل وما [١٦ أ] نزلنا ولا أوقدنا ناراً. من أين لك الثريدة؟ قال: يا أمير عملتها في فمي. أخلط في فمي الخبز وأشرب عليه الماء يصير كالثريدة.

وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة ومات على فراشه. وحضر يوماً القتال وهو لابس وعليه خوذة إسلامية بأنف فزرقه رجل بحربة ـ وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان ـ فوقعت الحربة في أنف الخوذة فانطوى وأدمى أنفه ولم يؤذه. ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف الخوذة كان أهلكه. وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه، وفي خفه دشني[١٤٦] فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه. هذا لحسن دفاع الله تعالى.

وشهد، رحمه الله، الحرب يوم الأحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع

= ابن العديم باسم «كافر ترك» (تاريخ حلب ٢/٢٦٤) وانظر: النوارد السلطانية لابن شداد ٢٢٤ وسنا البرق الشامي ٩٠، ١٧٠، ١٧٤، وكتاب الحروب الصليبية لباركر (تعريب الباز العريني (بيروت ١٣٨٦/١٩٦٧) ٥٣، ٥٨، ١١٠ ومفرج الكروب لابن واصل ٢/١٤٩ حاشية (١).

(١٤٦) الدشني: هو الخنجر بالفارسية ومثله: دشن.

Marfat.com

وتسعين وأربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي(١٤٧) صاحب أفامية بأرض كفر طاب(١٤٨) فلبس جوشنه(١٤٩) وعجل الغلام عن طرح كِلاَّب الجوشن من الجانب. فجاءه خشت(١٥٠) فضربه في ذلك الموضع الذي أخلَّ الغلام بِسِتْره فوق بَزِّه(١٥١) الأيسر خرج الخشت من فوق بزه الأيمن. فكانت أسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب.

فطعن رحمه الله، في ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وثَنَّى يده برمحه وجذبه من المطعون فحدثني قال: حسست شيئاً قد لذع زندي، فظننته من حرارة صفائح الجوشن. إلا أن رمحي سقط من يدي، فرددتها فإذا قد طُعِنْتُ في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الأعصاب. فحضرتهِ، رحمه الله، وزيد الجرائحي يداوي جرحه وعلى رأسه غلام واقف فقال: يا زيد، أخرج هذه الحصاة من الجرح فما كلمه الجرائحي. فعاد فقال: يا زيد ما تبصر هذه الحصاة؟ ما تزيلها من الجرح؟ فلما أضجره قال: أين الحصاة؟ هذا رأس عصب قد انقطع. وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصى الفرات.

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه، رحمه الله يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة.

ـ ٤١ ـ

وكان يكتب خطاً مليحاً، فما غيرت تلك الطعنة من خطه. وكان لا

---

(١٤٧) ذكر ابن الأثير شيئاً من سيرته بافامية ومقتله على يد الباطنية سنة ٤٩٩ هـ (الكامل ١٠/٤٠٨ - ٤١٠) وترجم له ابن العديم (بغية الطلب، البقرة ١٩٧٦) ١٢٤ - ١٣٢ [illegible] تواريخ عديدة بما فيها تواريخ آل منقذ المفقودة: تاريخ أبي الحسن منقذ بن مرشد ومرهف بن أسامة، ومن روايات أسامة نفسه، وانظر ذيل تاريخ دمشق ١٤٩ - ١٥٠

(١٤٨) كفر طاب: مدينة تقع بين معرة النعمان وحلب.

(١٤٩) الجوشن: هو الدرع من زرد الحديد يغطي الصدر والحيزوم (تاج العروس ٩/١٦١)

(١٥٠) الخشت: هو الحربة بالفارسية.

(١٥١) البز عند الرجل مقابل النهد عند المرأة.

Marfat.com

ينسخ سوى القرآن. فسألته يوماً فقلت: يا مولاي كم كتبت ختمة؟ قال: الساعة تعلمون. فلما حضرته الوفاة قال: في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها [١٦ ب] ـ يعني المساطر ـ تحت خدي في القبر فعددناها فكانت ثلاثاً وأربعين مسطرة.

فكان كتب بعدَّتها ختمات: منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن، قراآته وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه، بالحبر والحمرة والزرقة، وترجمه «بالتفسير الكبير»، وكتب ختمة أخرى بالذهب مجردة من التفسير. وباقي الختمات بالحبر مُذهَّبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الأجزاء.

وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممن وقف عليه.

أعود إلى ما تقدم:

وفي ذلك اليوم أصاب(*) غلاماً كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر، رحمه الله، يقال له: موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدولة أبي العساكر سلطان رحمه الله. واتفق أن عمي أرسله رسولاً إلى الملك رضوان(١٥٢) بن تاج الدولة تتش إلى حلب. فلما حضر بين يديه قال لغلمانه: مثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليهم. وقال لشمعون: حَدِّثهم حديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك. فقال: يا مولانا

(*) الفاعل هنا متأخر «طعنة عظيمة».

(١٥٢) الملك رضوان بن تتش السلجوقي، ترجم له ابن العديم في بغية الطلب ١٣٨ ـ ١٥١. وانظر: وفيات الأعيان ١/٢٩٦ وأخباره منثورة في تواريخ العصر مثل مفرج الكروب لابن واصل وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والكامل في التاريخ والباهر كلاهما لابن الأثير وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها.

Marfat.com

بالأمس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه. فدخلت بينه وبين مولاي لأفديه بنفسي فطعنني قطع من أضلاعي ضلعين وهي ـ ونعمتك ـ عندي في قمطرة. فقال له الملك رضوان: والله، ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والأضلاع. فأقام عنده وأرسل من أحضر القمطرة وفيها عظمان من أضلاعه. فعجب رضوان من ذلك وقال لأصحابه: كذا اعملوا في خدمتي.

فأما الأمر الذي سأله عنه أيام والده تاج الدولة[١٥٣] فإن جدي سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رحمه الله، سَيَّر ولده عز الدولة نصراً، رحمه الله إلى خدمة تاج الدولة وهو معسكر بظاهر حلب، فقبض عليه واعتقله ووكل به من يحفظه وكان لا يدخل إليه سوى مملوكه هذا شمعون والموكلون حول الخيمة. فكتب عمي إلى أبيه رحمهما الله يقول: تنفذ لي في الليلة الفلانية ـ وعينها ـ قوماً من أصحابه ـ ذكرهم ـ وخيلاً أركبها إلى الموضع الفلاني. فلما كانت تلك الليلة دخل شمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل فما أنكروه ومضى إلى أصحابه وركب وسار، ونام شمعون في فراشه.

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان، رحمه الله، من الزهاد القائمين [١٧ أ] ليلهم يتلون كتاب الله تعالى. فلما أصبحوا ولم يروا شمعون دخل كعادته، دخلوا الخيمة فوجدوا شمعون وعز الدولة قد راح. فانهوا ذلك إلى تاج الدولة، فأمر بإحضاره. فلما حضر بين يديه قال: كيف عملت؟ قال: أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح، ونمت أنا في فراشه. قال: وما خشيت أن أضرب رقبتك؟ قال: يا مولاي، إذا ضربت رقبتي وسلم

---

(١٥٣) تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، قتل في معركة مع أخيه بركياروق في سنة ٤٨٨ هـ وخلف ولدين هما رضوان ودقاق فتولى الأول حلب والثاني دمشق. وانظر هذه الحوادث في الكامل لابن الأثير (٨/١٧٥) طبعة المنيرية ـ الاستقامة) وعن تتش وفيات الأعيان ١/٩٦ وابن عساكر ٣/٣٤٠ والمنتظم لابن الجوزي ٩/٨٧

Marfat.com

مولاي وعاد إلى بيته فأنا السعيد بذلك، ما اشتراني وربَّاني إلا لأفديه بنفسي.

فقال تاج الدولة، رحمه الله، لحاجبه: سلم إلى هذا الغلام خيل مولاه ودوابه وخيامه وجميع بركه، وسيره يتبع صاحبه. وما أنكر عليه وما أحنقه ما فعل في خدمة مولاه. فهذا الذي قال له رضوان: حدث أصحابي ما عملته أيام والدي مع مولاك.

— ٤٣ —

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب. وجرح عمي عز الدولة رحمه الله، في ذلك اليوم عدة جراح منها طعنة طُعِنَها في جفن عينه السفلاني من ناحية المأق[١٥٤]. ونشب الرمح في الماق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقاً بجلده من مؤخر العين، والعين تلعب لا تستقر. وإنما الجفون التي تمسك العين. فخاطها الجرائحى وداواها فعادت كحالها الأوَّلة، لا تعرف العين المطعونة من الأخرى.

— ٤٤ —

وكانا رحمهما الله من أشجع قومهما. ولقد شهدتهما يوماً وقد خرجا إلى الصيد بالبُزاة نحو تل الملح[١٥٥] وهناك طير ماء كثير. فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه. فرجعنا وكان الوالد من أثر مرض. فأما عمي فخَفَّ بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الإفرنج وهم يرونه. وأما الوالد فسار والحصان يخب به، وأنا معه صبي

---

(١٥٤) الموق والماق: لغتان بمعنى المؤخر وهو ما يلي الصدغ (المصباح المنير ٢/٥٨٥).

(١٥٥) تل الملح: لم يرد عند ياقوت في معجم البلدان، وورد ذكره عند دوسو، ٢٠٨: «تل الملح» أو «تل الملاح» بتشديد اللام.

Marfat.com

وفي يده سفرجلة يمتص منها. فلما دنونا من الإفرنج قال لي: امض أنت ادخل من السكر[١٥٦]، وعبر هو من ناحية الإفرنج.

ـ ٤٤ أ ـ

ومرة أخرى شاهدته وقد أغارت علينا خيل محمود بن قراجا[١٥٧]، ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقرب إليه منا. وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب. فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي وهو رحمه الله، على بغلة فقلت: يا مولاي ما تركب حصانك؟ قال: بلى! وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل وأنا لخوفي عليه أُلِحُّ عليه في ركوبه حصانه إلى أن وصلنا إلى البلد وهو على بغلته. فلما عاد أولئك وأمِنّا قلت: يا مولاي، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك [١٧ ب] وأنا أخاطبك فلا تسمع، قال: يا ولدي، في طالعي أنني لا أرتاع.

وكان رحمه الله له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن. وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فآبى وامتنع. فيقول: فاعرف أسماء النجوم، ما يطلع منها ويغرب. فكان يُريني النجوم ويُعرِّفني أسماءها.

ـ ٤٥ ـ

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سربة من الإفرنج نحواً من عشرة فوارس جاؤوا إلى باب المدينة قبل [أن][١٥٨] يفتح. فقالوا للبواب: أي شيء اسم هذا البلد؟ ـ والباب خشب بينهما عوارض، وهو داخل الباب ـ قال: شيزر، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تَخِبُّ بهم. فركبنا فكان عمي رحمه الله، أول

(١٥٦) نوع من السدود واطىء يعترض مجرى النهر.
(١٥٧) محمود بن قراجا: انظر ترجمته في حاشية رقم (٩٨).
(١٥٨) زيادة مني اقتضاها السياق وتمام المعنى.

Marfat.com

راكب وأنا معه والإفرنج رائحون غير منزعجين فلحقنا من الجند نفر فقلت لعمي: على أمرك آخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين؟! قال: لا، ـ وكان أخبر مني بالحرب ـ في الشام إفرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة.

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق، وقال: امضيا اكشفا تل الملح وكان مكمناً للإفرنج. فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبل ركود الحرب ومعنا جمعة النميري وابنه محمود، وجمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة: يا فرسان الخيل! ولدي! فرجعنا معه في ستة عشر فارساً طعنا ستة عشر فارساً من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس [ابن][159] جمعة تحت إبطه فخلص ببعض تلك الطعنات.

ـ ٤٦ ـ

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه. فوالله لقد سرت مع عمي رحمه الله أغرنا على أفامية[160]. واتفق أن رجالها خرجوا ليسيِّروا قافلة فسيِّروها وعادوا، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً. ورأيت جمعة النميري رحمه الله، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من اللُّباد إلى فخذه ونفذ إلى خلفه فانكسرت القنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال: لا بأس، أنا سالم. ومسك سنان القنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان.

فقلت يا أبا محمود اشتهى أتقرَّب [١٨ أ] من الحصن أبصره. قال: سر، فرحت أنا وهو نخب فرسينا فلما أشرفنا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل

---

(١٥٩) سقطت من المخطوطة واقتضاها المعنى.
(١٦٠) أفامية: انظر حاشية رقم (١٠٨).

Marfat.com

منه إلا من تلك الطريق فقال لي جمعه: قف حتى أريك ما أصنع فيهم، قلت: ما هذا إنصاف، بل نحمل عليهم أنا وأنت. قال: سر، فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا ـ نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السبيل الصعب معه قوس ونشاب فرمانا ولا سبيل لنا إليه فَهَزمنا، والله ما صدَّقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة. ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا حسرة الذي ما كان لنا إليه سبيل وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

وشهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كفر طاب في قلة ففزعنا إليهم طامعين فيهم لقلتهم وقد كمنوا لنا كميناً في جماعة منهم. وانهزم الذين أغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد. فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم. فرأينا أننا إن انهزمنا قلعونا كلنا. فالتقيناهم مستقتلين، فنصر الله عليهم. فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً: منهم من طعن فمات، ومنهم من طعن فوقع وهو سالم، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل.

فجذب الذين في الأرض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتازبهم ضربوه. فاجتاز جمعة النميري، رحمه الله، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه وعلى رأسه قلنسوة فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح. وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة. فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الإفرنج فقلت له: يا أبا محمود، ما تعصب جرحك؟ فقال: ما هذا وقت

Marfat.com

العصائب وشد الجراح، وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينيه عروق حمر. فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم: «فربما صحت الأجسام بالعلل»[١٦١].

[١٨ ب] وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا. فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة أبو القنا خطام[١٦٢]، رحمه الله، فقال: «يا ابن عمي، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم. قلت للغلام: قَدِّم له الحصان الأحمر، فقدمه له. فساعة ما استوى في سرجه حمل على الإفرنج وحده فأفرجوا له حتى توسطهم وطعنوه ورموه وطعنوا الحصان وأقلبوا قنطارياتهم وصاروا يركشونه[١٦٣] بها، وعليه زردية حصينة ما تعمل رماحهم فيها. فتصايحنا: صاحبكم! صاحبكم!! وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم. وأما الحصان فمات في يومه. فسبحان المسلم القادر.

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه. فسبحان القائل

---

(١٦١) البيت للمتنبي وهو مشهور وتمامه: لعلَّ عتبك محمود عواقبه.

(١٦٢) ذخيرة الدولة أبو القنا خطام، ابن عم أسامة: لم نجد له ذكراً في كتب تراجم العصر وتواريخه، فلعل «خطام» كانت مصحفة من «حطان» وهو ابن كامل بن مقلد الذي ذكره أسامة في كتابه هذا (حكاية رقم ٨٢). ولحطان ذكر في التواريخ أيام شمس الدولة تورانشاه أخي صلاح الدين الأيوبي في فتح اليمن سنة ٥٦٩ هـ إذ ذهب وأخوه المبارك بن كامل مع تورانشاه إلى اليمن. وقد أعلن حطان العصيان فقبض عليه طغتكين الأيوبي وصادرة وقتله سنة ٥٨٧ هـ. انظر: (وفيات الأعيان ١٤٤/٤ (تحقيق إحسان عباس) والنجوم الزاهرة ٩١/٦ (دار الكتب)، وقد ورد اسمه «خطاب» بن منقذ وأنه قتل بزبيد سنة ٥٨٠ هـ.

(١٦٣) يركشونه: وردت هكذا في الأصل ولعلها «يركسونه» بمعنى يدوسونه أو لعلها تصحيف «يدعسونه» بمعنى: «يطعنونه».

Marfat.com

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾[١٦٤].

ـ ٥٠ ـ

وقد جرى لي مثل ذلك. كنت بالجزيرة[١٦٥] في عسكر أتابك فدعاني صديق لي إلى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تَغَرَّب معي فأنا أرعى له ذلك. فدخل بالبغلة إلى إصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر فخرج إلى الإصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان، فانهزموا وخرجوا. وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام. فما قام حتى خرج كل من في الإصطبل، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرته فشق من جوفه قدر أربع أصابع، فوقع موضعه فحمله الذي دعانا وهو صاحب قلعة باشمرا[١٦٦] إلى داري وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه إلى داري، فأطلقته. وتردد إليه الجرائحى فصلح ومشى وتصرف. إلا أن الجرح ما ختم، وما زال يخرج منه مثل القشور وماء أصفر مدة شهرين. ثم ختم وضمر جوفه وعاد إلى الصحة. فكان ذلك الجرح سبباً لعافيته.

ـ ٥١ ـ

ورأيت يوماً البازدار قد وقف بين يدي والدي، رحمه الله، وقال: مولاي، هذا الباز قد لحقه حَصٌّ[١٦٧] وهو يموت. وعينه الواحدة قد تلفت. فتَصيَّد به فهو [١٩ أ] باز شاطر وهو تالف. فخرجنا إلى الصيد وكان معه

---

(١٦٤) القرآن الكريم ٢/٢١٣.

(١٦٥) انظر معجم البلدان لياقوت (٢/١٣٤ ـ ١٣٦) فقد فصّل القول في الجزيرة

(١٦٦) قلعة باشمرا: تقع في جبل سمعان في شمال سوريا الحالية كما ذكر ديسم ٢٢٤ وأكدها الأخ محمد عكل الحلبي الدار فله شكري.

(١٦٧) هو داء يتناثر منه الشعر (والريش) (القاموس المحيط ٢/٢٩٨)

Marfat.com

رحمه الله، عدة بزاة، فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في النبج[١٦٨] فنبجت الدراجة في أجمة غلفاء[١٦٩]. ودخل الباز معها. وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة فضربته شوكة من الغلفاء في تلك النقطة ففقأتها. فجاء به البازدار وعينه قد سالت وهي مطبوقة فقال: يا مولاي، تلفت عين الباز. فقال: كله تالف. ثم من الغد فتح عينه وهي سالمة. وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين[١٧٠] فكان من أشطر البزاة.

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصدوا جوفه فمات، وغنيم شَقَّ ذلك السكران جوفَه سَلِم وعوفى. فسبحان القادر.

ـ ٥٢ ـ

وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إليَّ لعلِّي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرون عليَّ منهزمين. فعبر عليَّ في من عبر محمود بن جمعة. فقلت: قف يا محمود! فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عَنّي. ووصلني أوائل خيلهم، فاندفعت بين أيديهم وأنا رادٌّ رمحي إليهم ملتفتٌ أنظرهم لا[١٧١] يتسرع إليَّ منهم فارس يطعنني وبين يدي جماعة من أصحابنا ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل. فَنَدَسَتْ فرسي بصدرها رجلاً من أصحابنا. فرددت رأس فرسي على يساري، فضربتها بالمهاميز فقفزت الحائط فضبطت

---

(١٦٨) النبجة: محركة، الاكمة وجمعها نباج، ونبجت بمعنى خرجت (القاموس المحيط ٢٠٨/١).

(١٦٩) الغلفاء: التي لم ترع بعد ففيها كل صغير وكبير من الكلاء (القاموس المحيط ١٨١/٣ ـ ١٨٢).

(١٧٠) بمعنى: اصطاد مرتين أو امتلكه مالكان أو سقط ريشه وتجدد مرتين (القاموس المحيط ٢٤٠/٢، ٣٠٣/٤) ففيه تفصيل.

(١٧١) لا يتسرع: لئلا يتسرع.

Marfat.com

حتى صرت أنا والإفرنج مصطفين وبيننا الحائط فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر. فظننت أن ما تحته درع[١٧٢]. فتركته حتى تجاوزني وضربت الفرس بالمهاميز فقفزت الحائط، وطعنته فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخوذة عن رأسه ونحن قد وصلنا إلى رجالتنا ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زردية تحت التشهير. فما جرحته الطعنة. وأدركه أصحابه ثم عادوا وأخذ الرجالة الترس والرمح والخوذة.

ـ ٥٣ ـ

فلما انقضى القتال ورجع الإفرنج جاءني جمعة رحمه الله يعتذر عن ابنه محمود وقال: هذا الكلب انهزم عنك. قلت: وأي شيء يكون؟ قال: ينهزم عنك ولا يكون شيء؟ قلت: وحياتك [١٩ ب] يا أبا محمود وأنت تنهزم عني أيضاً، قال: ياشين والله أن موتي أسهل عليَّ من أن أنهزم عنك. ولم تَمْضِ إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوا لنا باقورة[١٧٣] وحبسوها في جزيرة تحت الطاحون الجلالي، وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة. فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي ـ مولد لنا وكان رجلاً شجاعاً ـ فقلت لهما: نعبر الماء ونأخذ الدواب. فعبرنا فأما ماضي فَضَربت فرسَه نشابة فقتلتها وبالجهد أوصلته إلى أصحابه. وأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها أحست بالجرح وأما جمعة فرجع خوفاً على فرسه. فلما عدنا قلت: يا أبا محمود، ما قلت لك إنك تنهزم عني؟ وأنت تلوم ابنك محمود! قال: والله ما خفت إلا على الفرس، فإنها تَعُزُّ عليَّ، واعتذر.

ـ ٥٤ ـ

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة

---

(١٧٢) يعني: ظننت أن ليس عليه درع.

(١٧٣) جماعة من البهائم وبخاصة البقر الأليف أو الوحش

Marfat.com

إلى الجزيرة فاقتتلنا نحن وهم وفيهم فرسان عسكر حماة: سرهنك وغازي التلّي ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط وإسباسلار خطلخ، وهم أكثر عدداً منا فحملنا عليهم، فهزمناهم وقصدت فارساً منهم أريد طعنه وإذا هو خضر الطوط فقال: الصنيعة يا فلان، فعدلت عنه إلى آخر فطعنته فوقع الرمح تحت إبطه. فلو تركه ما كان وقع، فَشَدَّ عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة[١٧٤] بي فطار في السرج على رقبة الحصان فوقع ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالي[١٧٥]. فضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل. وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التَّلى وكان رحمه الله رجلاً جيداً.

ـ ٥٥ ـ

ونزل علينا عسكر أنطاكية في بعض الأيام منزلاً كان ينزله كلما نزل علينا. ونحن رُكَّاب مقابلهم وبيننا النهر. فلم يقصدنا منهم أحد، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ونحن نراهم من الحصن فخرج من جندنا نحو من عشرين فارساً ألى بندرقنين قرية بالقرب من البلد يرعـون خيلهم وقد تركوا رماحهم في دورهم فخرج من الإفرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم فصادفوا رجلاً [٢٠ أ] على الطريق يسوق بهيمة فـأخـذوه وبهيمته ونحن نراهم من الحصن، وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح. فقال عمي: هؤلاء عشرون لا يخلصون أسيراً مع فارسين! لو حضرهم جمعة رأيتم ما يعمل. هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم، فقال عمي: أبصروا الساعة ما يعمل. فلما دنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة. فلما رأى عمي توقفه عنهما، وهو على روشن له في الحصن يراه، دخل من الروشن مغضباً

---

(١٧٤) مسندرة: مسرعة (القاموس المحيط ٢/٥٢).
(١٧٥) بهر يصب في نهر العاصي.

Marfat.com

وقال: هذا خذلان. وكان توقف جمعة خوفاً من خورة[١٧٦] كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين. فلما وصل تلك الخورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام.

وكان ابن ميمون[١٧٧] صاحب أنطاكية يرى ما جرى فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف للدواب ورمى خيمتهما وطردهما وقال: فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج؟ ما أنتم رجال، أنتم نساء!!.

وأما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما. فقال: يا مولاي خِفت لا يكون لهم في خورة رابية القرامطة كمين يخرج عليَّ. فلما كشفتها وما رأيت فيها أحداً استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما. فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه.

والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ـ فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس[١٧٨] من الشَعْراء[١٧٩]

---

(١٧٦) الخورة: المنخفض من الأرض (القاموس المحيط ٢/٢٥) والخور مثل الغور وهو المنخفض من الأرض بين النشزين (لسان العرب ٥/٣٤٨).

(١٧٧) هو بومند الثاني.

(١٧٨) كان رينيه صاحب بانياس إذ ذاك.

(١٧٩) الشعراء المجاورة لبانياس، الظاهر أنها مكان رعي الماشية والحشارات، ذكرها أبو شامة (الروضتين ١/٢٥٩) وابن الأثير (الباهر ١٣١) فقال: «وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان». وانظر: ذيل تاريخ دمشق ٣٣٧، قال: «ونهضوا (الفرنج) إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس وقد اجتمع فيها من جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين... فاستاقوا جميع ما وجدوه».

Marfat.com

وبيننا وبينهم صلح وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك(١٨٠): هذا تعدي علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وَردَّها علينا بعد أن أتلفها. فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: قوموا اعملوا له حكماً. فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا: قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم. فأمره الملك بالغرامة، فتوسل إليَّ وثَقَّل عليّ وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن يعقده الفرسان [٢٠ ب] ما يقدر الملك ولا أحدٌ من مقدَّمي الإفرنج يُغيِّره ولا يَنقُضه. فالفارس أمر عظيم عندهم.

ولقد قال لي الملك: يا فلان، وحق ديني! لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً. قلت: الله يُفْرِح الملك بماذا فرحت؟ قال: قالوا لي: إنك فارس عظيم، وما كنت أعتقد أنك فارس. قلت: يا مولاي، أنا فارس من جنسي وقومي. وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم.

وكان نزل علينا دنكري(١٨١) وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون(١٨٢)، فقاتلنا ثم اصطلحنا فنفذ يطلب حصاناً لغلامٍ لعمي عز الدين رحمه الله، وكان فرساً جواداً، فنفذه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي، يقال له: حسنون، وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق ليسابق بالحصان بين يدي دنكري. فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها.

---

(١٨٠) هو فلك الخامس Fulk V ملك القدس سنة ٥٢٦ هـ بعد موت بلدوين الثاني وكان فلك الخامس زوج ابنته.

(١٨١) هو تنكرد Tancred الذي خلف بومند الأول على أنطاكية وهاجم شيزر وقرر عليها عشرة آلاف دينار في سنة ٥٠٣ هـ (ابن القلانسي ١٦٧).

(١٨٢) هو بومند الأول وقد خلفه تنكرد سنة ٤٩٨ هـ على حكم أنطاكية.

Marfat.com

وحضر بين يدي دنكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه وقد عرفوا أنه فارس شجاع. فخلع عليه دنكري. فقال له حسنون: يا مولاي، أريدك تعطيني أمانك أنك إن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني. فأعطاه أمانه ـ على ما توهم حسنون فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ما ندري ما يقولون.

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح. وجاءنا دنكري في عسكر أنطاكية فقاتلنا عند سور المدينة. وكانت خيلنا لقيت أوائلهم، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي، وهو وحسنون نظراء في الشجاعة وحسنون واقف مع والدي رحمه الله، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده. فأبطأ عليه وأقلقه طعن كامل المشطوب، فقال لوالدي: يا مولاي أأمر لي بلباس خفيف، فقال: هذه البغال عليها السلاح واقفة، مهما صَلُحَ لك البسه، وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي، وهو أول يوم رأيت فيه القتال. فنظر الكزاغندات في عِيبَها[١٨٣] على البغال فما وافقته، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب، فتقدم على حجرته وهو مُعَرًّى، فاعترضه فارس منهم فطعن الفرس في قطأتها[١٨٤] فعضت على فاس[١٨٥] اللجام وحملته حتى رمته في وسط موكب الإفرنج فأخذوه أسيراً وعذبوه أنواع العذاب وأرادوا قلع عينه [٢١ أ] اليسرى. فقال لهم دنكري: ـ لعنه الله ـ اقلعوا عينه اليمين حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً. فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة[١٨٦] جواداً من أحسن الخيل. فاشتراه بالحصان، رحمه الله.

---

(١٨٣) العيبة: زبيل من آدم يجعل فيه الثياب وغيرها وهي بمعنى الخرج (القاموس المحيط ١/١٠٩).

(١٨٤) قطاة الفرس: عجزها وما بين الوركين أو مقعد الرديف (القاموس المحيط ٤/٣٧٩)

(١٨٥) الفاس من اللجام: الحديدة القائمة على الحنك (القاموس المحيط ٢/٢٣٥)

(١٨٦) خفاجة: القبيلة العربية المعروفة اشتهرت خيلها بالجودة.

Marfat.com

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم فحرد دنكري وقال: أنتم فرساني وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم. وهؤلاء سرجند ـ يعني رجالة ـ ما تقـدرون تقلعونهم من موضعهم؟ قالوا: إنما خوفنا على الخيل وإلا دسناهم وقلعناهم. قال: الخيل لي!! من قتل حصانه أخلفته عليه، فحملوا على الناس عدة حملات فقتل منهم سبعون حصاناً وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم.

ـ ٥٨ ـ

وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهـو[١٨٧]. فكان أبداً يقول: ترى ما التقي جمعة في القتال؟ وجمعة يقول: ترى ما التقي بدرهـو في القتال؟.

فنزل علينا عسكر أنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله وبيننا وبينهم الماء، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم. فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم: فيكم جمعة؟ قالوا: لا، والله ما كان حاضراً فيكم. وكان ذلك الفارس بدرهو. فالتفت فرأى أربعة فوارس منّا من ناحيته: يحيى بن صافي الأعسر وسهل بن أبي غانم الكردي وحارثة النميري وفارس آخر. فحمل عليهم فهزمهم ولحق واحداً منهم طعنه طعنة فَشِلةً ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن، وعاد إلى الخيام.

ودخل أولئك النفر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وازروا بهم وقالوا: أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد؟ كنتم افترقتم له فكان طعن واحداً منكم وكان الثلاثة قتلوه ولا قد افتضحتم. وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري.

---

(١٨٧) قال ديرنبرج: لعله Pedrovant أحد فرسان الصليبيين المعاصرين لأسامة:
Derenbourg, H., Vie D,ousama, Paris 1889, P. 57, Note. 2.

Marfat.com

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة.

وأما بدرهو فإنه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد أنطاكية فخرج عليه الأسد من غاب في الروج(١٨٨) في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به إلى الغاب أكله ـ لا رحمه الله.

ومن إقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير: فمن ذلك [٢١ ب] أن اسباسلار مودود(١٨٩) رحمه الله نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مائة وقد قصده دنكري صاحب أنطاكية في جمع كثير. فخرج إليه عمي ووالدي رحمهما الله، وقالا: الصواب أن ترحل ـ وكان نازلاً شرقي البلد على النهر ـ وتنزل في البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة. ونلقى الإفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا. فرحل ونزل كما قالا له. وأصبحا خرجا إليه وخرج من شيزر خمسة آلاف راجلٍ مُعدِّين. ففرح بهم إسباسلار وقويت نفسه.

وكان معه رحمه الله، رجال جياد، فصفوا من قبلي الماء والإفرنج نزول شماليه فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلما كان الليل رحلوا راجعين إلى بلادهم والناس حولهم. فنزلوا على تل الترمسي(١٩٠) فمنعوهم الورود كما عملوا بالأمس. فرحلوا في الليل ونزلوا على تل التلول(١٩١) والعسكر قد

---

(١٨٨) الروج: كورة من كور حلب في غربيها بينها وبين المعرة (معجم البلدان ٣ / ٧٦).

(١٨٩) هو شرف الدين مودود بن التونتكين حاكم الموصل، انظر هذه الحوادث في الكامل (١٠/ ٤٨٥ ـ ٤٨٨)، النجوم الزاهرة (٢/ ٣٥٤ القسم الثاني)، ابن القلانسي ١٧٧.

(١٩٠) وردت دون إعجام في المخطوط ولم يرد اسم هذا التل في ما لدينا من كتب البلدان. وذكر ابن القلانسي أن الفرنج نزلوا شمالي تل ابن معشر، فلعل «الترمسي» تصحيف «ابن معشر» (ذيل تاريخ دمشق ١٧٤، ١٧٧).

(١٩١) تل التلول: لم نقف عليه في ما لدينا من كتب البلدان.

Marfat.com

ضايقهم ومنعهم من المسير. فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود، ورحلوا في الليل متوجهين إلى أفامية ففزع إليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون فخرج منهم فارس واحد فحمل على الناس حتى توسطهم فقتلوا حصانه وأثخنوه بالجراح فقاتل وهو راجل حتى وصل إلى أصحابه. ودخل الإفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم.

ومضى إسباسلار مودود، رحمه الله، إلى دمشق. فجاءنا بعد أشهر كتاب دنكري صاحب أنطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول: هذا فارس محتشم من الإفرنج وصل وحج ويريد الرجوع إلى بلاده. وسألني أن أُسيِّره إليكم يبصر فرسانكم، وقد نفذته فاستوصوا به. وكان شاباً حسن الصورة حسن اللباس إلا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قَدَّت من مِفرقه إلى حكمته(١٩٢). فسألت عنه فقالوا: هذا الذي حمل على عسكر إسباسلار مودود وقتلوا حصانه وقاتل حتى رجع إلى أصحابه. فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء، لا يؤخر الأجل الإحجام ولا يُقَدِّمه الإقدام.

ـ ٦٠ ـ

ومن ذلك ما حكاه لي العُقاب الشاعر، رجل من أجنادنا من العرب، قال: خرج أبي من تدمر(١٩٣) يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجالة وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها. [٢٢ أ] قال: بينا نحن نسير إذا فارس مقبل من صدر البرية. فجاء يسير حتى صار بالقرب منا، فقال: خلوا عن الجمال، فصحنا عليه وشتمناه. فأطلق حصانه علينا، فطعن منا فارساً

(١٩٢) الحكمة ـ محركة ـ ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه ومن الإنسان مقدم وجهه ورأسه (القاموس المحيط ٤/٩٨).

(١٩٣) مدينة بالشام، قال ياقوت: «بينها وبين حلب خمسة أيام» (معجم البلدان ٢/١٧) وجاء بشيء من أخبارها وما قيل فيها من شعر.

Marfat.com

رماه عن فرسه وجرحه. فطردناه فسبق، ثم عاد إلينا وقال: خلوا عن الجمال، فصحنا عليه وشتمناه. فحمل علينا، فطعن راجلاً منا أوثقه بالجرح، وتبعناه فسبقنا، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا، فاستقبله رجل منا ـ فطعنه صاحبنا فوقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا، وطعنه الفارس فجرحه ثم حمل علينا فطعن رجلاً منا فصرعه، وقال: خلوا عن الجمال وإلا أفنيتكم. قلنا: تعال خذ نصفها. قال: لا، احبسوا منها أربعة اتركوها وقوفاً وخذوا أربعة وامضوا. ففعلنا وما صدقنا نخلص بما سلم معنا. وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولا طمع. وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال.

ـ ٦١ ـ

ومن ذلك أن دنكري صاحب أنطاكية أغار على شيزر فاستاق دواباً كثيرة وقتل وسبى ونزل على قرية يقال لها زلين[١٩٤] فيها مغار معلقة لا يوصل إليها في وسط الجبل: ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع. إنما ينزل إليها من يحتمي فيهاب الحبال. وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مئة. فجاء شيطان من فرسانهم إلى دنكري فقال: اعمل لي صندوقاً من خشب، وأنا أقعد فيه ودَلُّوني من الجبل إليهم بسلاسل أوثقوها في الصندوق حتى لا يقطعوها بالسيوف، فاسقط. فعملوا له صندوقاً ودلوه بالسلاسل المعلقات إلى المغار فأخذها وأنزل كل من كان فيها إلى دنكري. وذلك أن المغار بَهوٌ ما فيه مكان يستتر الناس فيه ـ وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة إلا في إنسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه.

ـ ٦٢ ـ

وكان ممن أُسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من أصل

---

(١٩٤) زلين: لم يذكرها ياقوت ولم نجدها في ما بين أيدينا من كتب البلدان والظاهر من قول أسامة واضح في أنها قرية قريبة من شيزر.

Marfat.com

جيد من العرب وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان، رحمه الله، قبل ذلك وهي في بيت أبيها. فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها فعادت تصفها [٢٢ ب] وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلوها لها وإما أروها غيرها، فخطبها عمي وتزوجها. فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها، ثم هي خرساء، فوفّاها مهرها وردَّها إلى قومها. فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم. فقال عمي: ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت عليَّ في أسر الإفرنج. فاشتراها، رحمه الله، بخمس مئة دينار وسلمها إلى أهلها.

ـ ٦٣ ـ

ومن ذلك ما حدثني به المؤيَّد الشاعر البغدادي[١٩٥] بالموصل سنة خمس وستين وخمس مئة قال: اقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد إليها. وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ووالدي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه. فنحن يوماً جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجارية راكبة فوق الخرج، فنزل وأنزل الجارية فقال: يا فتيان، أسعدوني على حَطِّ الخرج. فجئنا حططناه معه وإذا به كله دنانير ذهب ومصاغ فجلس هو والجارية أكلوا شيئاً. ثم قال: أسعدوني على رفع الخرج، فرفعناه معه. فقال لنا: كيف طريق الأنبار؟ فقال له والدي: الطريق هاهنا، وأشار إلى الطريق. ولكن في الطريق ستون عياراً أخاف عليك منهم، فضرط له[١٩٦] وقال: أنا أخاف من العيارين؟.

فتركه والدي ومضى إلى العيارين أخبرهم خبره وما معه. فخرجوا حتى عارضوه في الطريق فلما رآهم أخرج قوسه وترك فيه سهماً واستوفاه يريد

---

(١٩٥) المؤيد البغدادي: ذكره الأصفهاني في: خريدة القصر وعده من فضلاء بغداد (مخطوطة لايدن شرقي ٢١ أ، ورقة ١٠٤ أ ـ ١٠٥ أ)، وترجم أبو شامة لأبي البركات محمد بن أحمد ويعرف بالمؤيد «وكان أديباً شاعراً فاضلاً وتوفي سنة تسع وتسعين وخمس مئة» (الروضتين ـ ذيلها ٣٦). وانظر خريدة القصر (قسم العراق) ٢/١٧٢.

(١٩٦) أي: فصوت له بفمه استهزاءاً والصواب: اضرط به (القاموس المحيط ٢/٣٧١).

Marfat.com

يرميهم فانقطع الوتر، فهجم عليه العيارون فانهزم. وأخذوا البغل والجارية والخرج فقالت لهم الجارية: يا شباب، بـالله لا تهتكوني. وبيعوني نفسي والبغل أيضاً بعقد جوهر مع التركي قيمته خمس مئة دينار، وخذوا الخرج وما فيه. قالوا: قد فعلنا. قالت: ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مع التركي وآخذ العقد ـ فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له: قد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق موزك (خفك)[١٩٧] اليسار. فادفعه لي. قال: نعم! وانفسح عنهم وأخرج الساق موزاً وإذا فيه وتر قوس، فركبه على قوسه ورجع إليهم. فما زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحداً واحداً حتى قتل منهم ثلاثة وأربعين رجلاً ونظر فإذا والدي في [٢٣ أ] الجماعة الباقين من العيارين، فقال: وأنت فيهم؟! فتشتهي أعطيـك نصيبك من النشاب؟ قال: لا! قال: خذ هؤلاء السبعة عشر الباقين امض بهم إلى شحنة البلد يشنقهم. وأولئك قد زنهروا[١٩٨] ورموا سلاحهم وساق بغله بما عليه ومضى. وقد أرسل الله تعالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة.

ومن ذلك ما حضرته في سنة تسع وخمس مئة وقد خرج والدي، رحمه الله، بالعسكر إلى إسباسلار برسق بن برسق[١٩٩] رحمه الله وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء: منهم أمير الجيوش أوزبه صاحب الموصل وسنقر دراز صاحب الرحبة والأمير كندغدي والحاجب الكبير بكتمر وزنكي بن برسق وكان من الأبطال وتميرك وإسمعيل البكجي وغيرهم من الأمراء فنـزلوا على كفـر طاب، وفيهـا أخوا ثيـوفل والإفرنج، فقاتلوها، ودخلوا الخراسانية في الخندق ينقبون، والإفرنج قد

(١٩٧) موزه: الخف بالفارسية والظاهر أن الناسخ أضاف كلمة «خفك» لتوضيح المعنى

(١٩٨) زنهر: شدّ نظره وأخرج عينه من العجب والخوف والإنكار

(١٩٩) برسق بن برسق: هو صاحب همدان السلجوقي أرسله السلطان محمد السلجوقي في سنة ٥٠٩ هـ لقتال إيلغازي وطغتكين والفرنج وقد انتهت حوادثه بالهزيمة. انظر الكامل ١٠/٥٠٩ ـ ٥١١، أما الرحبة فهي رحبة مالك بن طوق

Marfat.com

أيقنوا بالهلاك، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى، فاحترق الجميع. وبقي الإفرنج معلقين في أعلاه على الحيطان.

فوقع لي أن أدخل في النقب أبصره، فنزلت في الخندق والنشاب والحجار مثل المطر علينا ودخلت النقب، فرأيت حكمة عظيمة: قد نقبوا من الخندق إلى الباشورة[٢٠٠] وأقاموا في جوانب النقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع مِنْ تَهَدُّمِ ما فوقها ونظموا النقب بالأخشاب كذلك إلى أساس الباشورة. ثم نقبوا حائط الباشورة وعلقوه، وبلغوا أساس البرج. والنقب ضَيِّق إنما هو طريق إلى البرج. فلما وصلوه وسعوا النقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ويخرجون نقارة الأحجار أولاً فأولاً. وأرض النقب من النقش قد صارت طيناً. فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية، ولو عرفوني ما تركوني أخرج إلا بغرامة كثيرة لهم.

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا النقب بذلك الخشب. وأصبحوا طرحوا فيه النار، وقد لبسنا وزحفنا إلى الخندق [٢٣ ب] لنهجم الحصن إذا وقع البرج، وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم. فأول ما عملت النار صار يسقط ما بين الأحجار من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج، ونحن نظن أنه إذا وقع تمكننا من الدخول عليهم. فوقع الوجه البَرَّاني وبقي الحائط الجَوَّاني كما هو. فوقفنا إلى أن حميت علينا الشمس ورجعنا إلى خيامنا وقد نالنا من الحجارة أذى كثير.

فمكثنا إلى الظهر وإذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى إلى حائط البرج الذي قد وقع وقد صارت جوانبه كدرج السلم

---

(٢٠٠) الباشورة: هي الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال وهي الخط الأول من الدفاع (دوزي ١/٨٩). وقال ابن الشحنة في (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩): «هي قطعة أرض ظاهر سور البلد يجعل عليها سور خاص يحول بينها وبين الخندق يخرج منها إلى ظاهر البلد».

Marfat.com

فتوقَّل فيه حتى صعد إلى أعلاه. فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بِعُدَّتهم فصعدوا واحداً وراء واحد حتى صاروا على البرج والإفرنج لا يشعرون بهم. ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا، فكبَّروا على البرج قبل أن يتكامل الناس عندهم.

ففزع إليهم الإفرنج فرموهم بالنشاب فجرحوا الذي طلع في الأول فنزل، وتتابع الناس في الطلوع وصاروا مع الإفرنج على بدن[٢٠١] من حيطان البرج، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج. وعلى البرج جماعة من الإفرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة. فصعد رجل من الأتراك ونحن نراه ومشى والبلاء يأخذه إلى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نفظ فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البُهْمِ وقد رموا نفوسهم إلى الأرض خوفاً من الحريق، ثم عاد.

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس. فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديتان وبيده قنطارية وما معه ترس. فلقيه التركي وفي يده سيفه فطعنه الإفرنجي، فدفع سنان القنطارية عنه بالترس ومشى إلى الإفرنجي وقد دخل على الرمح[٢٠٢] إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفاً على رأسه، فضربه التركي ضربات ما عملت فيه شيئاً، ومشى حتى دخل البرج. وقوى عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى إلى خيام برسق بن برسق.

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمناً يخلصون به. فوقف وكان سرجندياً[٢٠٣] وقال: كم تأخذون مني؟ قالوا: نريد ست مئة دينار، فضرط

---

(٢٠١) لعله يعني: الممرات التي تلي الأبراج من الداخل أو رؤوس الحيطان أو الأسوار بين الأبراج. والذي نفهمه من تواريخ العصر أن البدن تعني الأسوار والبدنه السور

(٢٠٢) لعله يعني: وقد دخل إليه التركي على الرغم من وجود الرمح بيد الإفرنجي

(٢٠٣) سرجندي: هو الجندي من المشاة الذي يستأجره الإقطاعي أو الكنيسة ويُستدعى للحملات ـ

Marfat.com

لهم وقال: أنا سرجندي ديواني كل شهر ديناران [٢٣ ب]، من أين لي ست مئة دينار؟ وعاد جلس بين أصحابه. وكان خلقة عظيمة. فقال الأمير السيد الشريف[٢٠٤] ـ وكان من كبار الأمراء ـ لوالدي، رحمهما الله: يا أخي، ترى هؤلاء القوم؟ نعوذ بالله منهم.

فقضى الله سبحانه أن العسكر رحل عن كفر طاب إلى دانيث[٢٠٥] وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر. وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر. فقتل الأمير السيد رحمه الله وخلق كثير من المسلمين.

وعاد الوالد، رحمه الله، وكنت فارقته من كفر طاب وقد كسر العسكر ونحن في كفر طاب نحرزها نريد نُعمِّرها وكان إسباسلار سلمها إلينا ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد مع أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه، وذا قد مات في النار، فرأيت منهم عبرة عظيمة. فتركناها وعدنا إلى شيزر مع الوالد، رحمه الله، وقد أُخِذَ كلُّ ما كان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتَجمُّل[٢٠٦] وتفرق العسكر[٢٠٧].

وكان ما جرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم[٢٠٨] صاحب حلب ذلك

= التي يتوقع لها أن تدوم فترة قصيرة. انظر: كتاب الحروب الصليبية لسميل (ترجمة سامي هاشم ـ بيروت ١٩٨٢) ٩٧ ـ ٩٨.

(٢٠٤) الأمير السيد الشريف (من كبار أمراء جيش برسق بن برسق) لم نقف على شخصيته بعد.

(٢٠٥) دانيث: بلد بين حلب وكفرطاب (معجم البلدان ٢/٤٣٤).

(٢٠٦) والتجمل: كذا وردت في المخطوطة وهي من ألفاظ العصر (دوزي ١/٢١٨) وهي بمعنى الثياب والأثاث والحلي والفرش وما إلى ذلك وقد وردت مرتين في تاريخ الفارقي (القاهرة ١٣٧٩ هـ) ١٥١، ١٨١ وانظر كذلك: المنتظم لابن الجوزي ٩/٢٠٥.

(٢٠٧) انظر: الكامل ١٠/٥٠٩ ـ ٥١١ ففيه سرد تاريخي لهذه الحوادث بيد أن سرد الحوادث عند أسامة أوسع تفصيلاً وأدق رواية لأنه شاهدها بنفسه.

(٢٠٨) بدر الدين لؤلؤ خلف رضوان بن تتش على إمارة حلب وقد قتله أصحابه الأتراك سنة ٥١١ هـ انظر: الكامل ١٠/٥٣١.

Marfat.com

الوقت. قرر مع صاحب أنطاكية أن يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم. فأرسل إلى إسباسلار برسق رحمه الله يقول: تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أُسلِّم إليه حلب فإني أخاف من أهل البلد أن لا يطاوعوني على التسليم. فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين. فنفذ إليه أمير الجيوش أوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس. وصبحهم روجار لعنه الله[٢٠٩]، كسرهم لنفاذ المشيئة. وعاد الإفرنج لعنهم الله، إلى كفر طاب عمروها وسكنوها.

وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفر طاب. فإن الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم إلا ما كان من أمير الجيوش فإنه قَدَّم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل [أن] يتوجه إلى حلب. وافترق العسكر ـ من سلم منهم من دانيث ـ وتوجهوا إلى بلادهم. فذلك الرجل الذي طلع وحده إلى برج كفر طاب كان سبب أخذها.

ـ ٦٦ ـ

ومن ذلك: كان في خدمتي رجل يقال له نمير العَلاروزي، رجل شجاع أيِّدٌ، نهض هو وقوم من رجال شيزر إلى الرُّوج[٢١٠] إلى الإفرنج. فعثروا في البلد على قافلة من الإفرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعض: من يدخل عليهم؟ قال نمير: أنا، فدفع إليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل [٢٤ ب] عليهم. فاستقبله رجل منهم، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله، وخلفه إفرنجي معه سيف فضربه، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز فهو يرد عنه. فلما قتل الرجل الذي تحته التفت إلى صاحب السيف يريده.

---

(٢٠٩) هو روجر Roger ابن أخت تنكرد الذي ملك أنطاكية سنة ٥٠٦ هـ ودام حكمه إلى سنة ٥١٣ هـ وقد قتل في وقعة البلاط ويرد اسمه في تواريخ العصر «روجار أو روجاره»

(٢١٠) الروج: كورة من كور حلب في غربيها بينها وبين المعرة (معجم البلدان ٣/ ٧٦)

Marfat.com

فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا. فتدلى جانب وجهه على صدره، فخرج من المغارة إلى أصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة، فَخَّيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد إلى ما كان عليه، إلّا أن عينه تلفت. وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الإسماعيلية من حصن شيزر، وقد تقدم ذكرهم[٢١١].

ـ ٦٧ ـ

وحدثني الرئيس سهري، وكان في خدمة الأمير شمس الخواص آلتونتاش[٢١٢] صاحب رفنية وكان بينه وبين علم الدين علي كرد[٢١٣] صاحب حماة عداوة وخلف، قال: أمرني شمس الخواص أن أخرج أُقدِّر بلد رفنية وأبصر زرعه. فخرجت ومعي قوم من الجند فقدرت البلد ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفنية لها برج صعدنا إلى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج. فما شعرنا إلا برجل قد أشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه إلينا وفي يده سكينة فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ونزلنا في السلم الثاني وهو خلفنا حتى وصلنا الباب فخرجنا، وإذا قد رتب لنا رجالاً على الباب فقبضونا جميعنا وأوثقونا رباطاً ودخلوا بنا إلى حماة إلى علي كرد، فما سلمنا من ضرب الرقبة إلّا بفسحة الأجل. فحبسنا وغرمنا، وكان الذي فعل بنا ذلك كله رجل واحد.

---

(٢١١) الظاهر أنَّ الإشارة هنا إلى الجزء الضائع من أول هذا الكتاب، وقد ذكر ابن الأثير أن واقعة الإسماعيلية في شيزر كانت في سنة ٥٠٢ هـ (الكامل ٤٧٢/١٠) وانظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ، صفحة ١٩٠. وقد أشار أسامة إلى وقعة الإسماعيلية أكثر من مرة في كتابه الاعتبار انظر الحكايات رقم: ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٦٢، ١٦٤.

(٢١٢) شمس الخواص التونتاش صاحب رفنية، انظر: ابن القلانسي ١٦٩، وحماة بعدها (المصدر نفسه ٢٤٨) وقد عزل عنها سنة ٥٢٩.

(٢١٣) هو علي الكردي صاحب حماة كما جاء في الكامل (٤٨٢/١٠) وقد ورد اسمه: على كرد كذلك في تاريخ حلب (١٧٤/٢، ٥٣٨) وفي الأعلاق الخطيرة لابن شداد (١٥٤/١).

Marfat.com

ومثل ذلك جرى في حصن الخربة[٢١٤] كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[٢١٤] رحمه الله وفيها الحاجب عيسى واليها. وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ثم يُرفع السلم فلا يبقى إليها طريق. وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له: ابن المرجى يطلع إليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله. فتحدث مع الإسماعيلية وقرر له معهم قراراً أرضاه من مال وإقطاع ويسلم إليهم حصن الخربة. ثم جاء إلى الحصن فاستأذن وطلع. فبدأ بالبواب قتله ولقيه الغلام فقتله ودخل على الوالي قتله وعاد إلى ابن الوالي قتله وسلمه إلى [٢٥ أ] الإسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له. والرجال إذا قَوَّوا نفوسهم على شيء فعلوه.

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم. وكان الوالد، رحمه الله، يقول لي: كلُّ جيدٍ من سائر الأجناس من الرديء من جنسه ما يكون بقيمته؛ مثل حصان جيد يسوى مئة دينار؛ خمس حصن رديئة تسوى مئة دينار، وكذلك الجمال، وكذلك أنواع الملبوس: إلا ابن آدم فإنَّ ألف رجل أرديا لا يساوون رجلاً واحداً جيداً، وصدق رحمه الله. كنت قد نفَّذت مملوكاً لي في شغل مهم إلى دمشق واتفق أن أتابك زنكي رحمه الله أخذ حماة ونزل على حمص فاستدَّت الطريق على صاحبي فتوجه إلى بعلبك ومنها إلى طرابلس واكترى بغل رجل نصراني يقال له: يونان. فحمله إلى حيث اكتراه وودعه ورجع. وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل إلى شيزر

---

(٢١٤) حصن الخربة: لم يذكره ياقوت وذكره ابن القيسراني فقال «وفي رجب (سنة ٥٣١) بهض ابن صلاح الدين (الغيساني) وإلى حماة في رحاله إلى حصن الخربه فملكه» صفحه ٢٥٨، والظاهر أنه كان قريباً من حماة.

Marfat.com

من حصون الجبل. فلقيهم إنسان فقال: لأرباب الدواب: لا تمضوا! فإن في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين ـ سبعين رجلاً يأخذونكم، قال: فوقفنا لا ندري ما نعمل! ما تطيب نفوسنا بالرجوع ولا نجسر على المسير من الخوف. فنحن كذلك إذا الريس يونان قد أقبل مسرعاً. فقلنا: مالك يا ريس؟ قال: سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيِّركم، سيروا. فسرنا معه إلى ذلك الموضع، وإذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا. فلقيهم يونان وقال: يا فتيان، موضعكم أنا يونان وهؤلاء في خفارتي. والله ما فيكم من يتقرب منهم؟ فردَّهم والله جميعهم عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز. ومشى معنا يونان حتى أمَّنا ثم ودعنا وانصرف.

ـ ٧٠ ـ

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة. قال: حدثني ابن والي الطور ـ وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله رحمه الله إذا أراد أبعاد بعض الأمراء ولاه الطور ـ وهو قريب من بلاد الإفرنج ـ قال: وليها والدي وخرجت أنا معه إلى الولاية وكنت مغرىً بالصيد. فخرجت أتصيد، فوقع بي قوم من الإفرنج فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل[٢١٥] فحبسوني فيه في جب وحدي. وقطع عليَّ صاحب بيت جبريل ألفي دينار. فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد. فأنا في بعض الأيام في الجب وإذا قد رفع عنه الغطاء [٢٥ ب] ودُلِّي إليَّ رجل بدوي. فقلت: من أين أخذوك؟ قال: من الطريق. فأقام عندي يويمات وقطعوا عليه خمسين ديناراً. فقال لي يوماً من الأيام: تريد تعلم أن ما يخلصك من هذا الجب إلا أنا؟ فخلِّصني حتى أخلِّصك. فقلت في نفسي: رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص، فما جاوبته.

(٢١٥) بيت جبريل أو جبرين، بليد بين بيت المقدس وغزة كانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين الأيوبي لما استنقذ بيت المقدس من الفرنج (معجم البلدان ١/٥١٩).

Marfat.com

ثم بعد أيام أعاد على ذلك القول. فقلت في نفسي: والله لأسعينَّ في خلاصه لعل الله يخلِّصني بثوابه. فصحت بالسجان فقلت له: قل للصاحب[٢١٦] أشتهي أتحدث معك. فعاد وأطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب. فقلت له: لي في حبسك سنة ما سأل أحد عني ولا يدري أنا حي أو ميت، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين ديناراً، اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني أُسيِّره إلى أبي حتى يَفكَّني، قال: افعل. فرجعت عَرَّفت البدوي وخرج ودَّعني ومضى. فانتظرت ما يكون منه شهرين فما رأيت له أثراً ولا سمعت له خبراً، فيئست منه. فما راعني ليلة من الليالي إلا وهو قد خرج على من نقب في جانب الجب وقال: قم والله لي خمسة أشهر أحفر هذا السرب من قرية خَرِبة حتى وصلت إليك. فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني إلى بيتي. فما أدري مم أعجب؟! من حسن وفائه أو من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب.

وإذا قضى الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه.

- ٧١ -

كنت أتردد إلى ملك الإفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك[٢١٧] رحمه الله ليد كانت للوالد، رحمه الله، على بغدوين[٢١٨] الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك[٢١٩]. فكان

---

(٢١٦) الصاحب: بمعنى المتولي على المدينة وصاحب الأمر فيها.

(٢١٧) محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين أمير دمشق إذ ذاك. تولى دمشق بعد أخيه شمس الملوك إسماعيل الذي قتلته أمه لأنه أراد تسليم دمشق للفرنج وقد توفي سنة ٥٤٨ وخمس مئة (وفيات الأعيان ١/٢٩٦) وانظر: الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة، (بيروت ١٩٧١) ١٠٩ - ١١١.

(٢١٨) بغدوين: هو بولدوين الثاني ملك القدس Baldwin.

(٢١٩) هي ملسندا Melisende التي تزوجها فلك الخامس Fulk V الذي تتوج ملكاً على القدس سنة ٥٢٦ هـ.

Marfat.com

الإفرنج يسوقون أساراهم إليَّ لأشتريهم. فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يقال له كليام جيباً في مركب له يغزي فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مئة نفس رجال ونساء. فكان يجيء أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدرت على شرائه. وفيهم رجل شاب يُسَلِّم ويقعد لا يتكلم. فسألت عنه فقيل لي: هو رجل زاهد صاحبه دباغ. فقلت له: بكم تبيعني هذا؟ قال: وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة وأربعين ديناراً. فاشتريتهما واشتريت لي منهم نفراً. واشتريت للأمير معين الدين[٢٢٠]، رحمه الله منهم نفراً بمئة وعشرين ديناراً ووزنت [٢٦ أ] ما كان معي وضمنت عليَّ بالباقي.

وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين، رحمه الله: قد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كانت معي ثمنهم، والآن قد وصلت إلى بيتي، إن أردتهم وزنتَ ثمنهم، وإلا وزنته أنا. قال: لا بل أنا أزن، والله، ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم. وكان رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليام جيباً ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي. فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها. فركبت إلى داره، لعنه الله، وقلت: تبيعني منهم عشرة؟ قال: وحق ديني ما أبيع إلا الجميع قلت: ما معي ثمن الجميع، وأنا أشتري بعضهم، والنوبة الأخرى اشترى الباقي. قال: ما أبيعك إلا الجميع. فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام.

وتَطلَّبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد، وأحسن الله سبحانه خلاصهم. وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وما وزنت ثمنها وقد هربت في من هرب. فقلت: سلِّمها إليَّ وخذ ثمنها قال: ثمنها لي من

(٢٢٠) هو معين الدين أنر، انظر حاشية رقم (١١).

Marfat.com

أمس قبل أن تهرب. وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك عليَّ لمسرَّتي بخلاص أولئك المساكين.

ـ ٧٢ ـ

ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق[٢٢١] رحمه الله، عمل على مدينة آمد عدة مرار وأنا في خدمته ولا يبلغ منها مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مُدَيْوِناً[٢٢٢] بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن يصله العسكر في ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد. فَعَّول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي يقال له: ياروق، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه. فركب في بعض العسكر وتقدم، وركب باقي الأمراء فتبعوه، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى آمد. فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلواً إليهم بالحبال وقالوا: اطلعوا، ـ ما طلع منهم أحد. فنزلوا كسروا أقفال [٢٦ ب] باب المدينة وقالوا: ادخلوا، ـ ما دخلوا. كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار.

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان[٢٢٣] والبلدية والجند، ففزعوا إليهم فقتلوا بعضهم، ورمى بعضهم نفسه، وقبضوا بعضهم. ومدَّ بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل في الهواء يده كأنه يريد شيئاً يتمسك به، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلُّوها أول الليل وما طلعوا فيها فتعلق

---

(٢٢١) هو صاحب حصن كيفا في ديار بكر (معجم البلدان ٢ / ٢٦٥) وترجمة ابن خلكان لجده أرتق ولأبيه (وفيات الأعيان ١ / ١٩١). أراد مراراً أن يضم آمد إلى ملكه ولم يتم له ذلك لمجيء صلاح الدين الأيوبي سلمها لولده نور الدين بن قرا أرسلان (الروضتين ٢ / ٤٠).

(٢٢٢) مديون: اشتقاق عامي من: دين إذا ضمّه إلى الديوان والمعنى به مسجل في ديوان الجند.

(٢٢٣) كمال الدين علي بن نيسان كان وزير صاحب آمد وقد كان ابن نيسان مدبر آمد ونسبها والقائم بأمرها. أخرجه صلاح الدين الأيوبي من آمد بماله وأهله سنة ٥٧٩ هـ (الروضتين ٢ / ٣٩).

Marfat.com

به ونجا دون أصحابه، إلا أن كفيه انسلختا من الحبل. هذا وأنا حاضر. وأصبح صاحب آمد يتتبَّع الذين عملوا عليه فقتلهم، وسلم ذلك من دونهم. فسبحان من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد فذلك حق لا مثل.

ـ ٧٣ ـ

كان في حصن الجسر(٢٢٤) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له. فاجتاز بكفر نبودا(٢٢٥) وقافلة عابرة على الطريق فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع. فصاح إليه أهل القافلة: يا صاحب الخُشْت(٢٢٦) البراق دونك الأسد! فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فحاصت به الفرس، فوقع، وجاءه فبرك عليه. وكان ـ لما يريد الله من سلامته ـ الأسد شبعان، فالتقم وجهه وجبهته، فجرح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه. قال: ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد، ثم جذبت نفسي من تحته ورفعت فخذه عَنِّي وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه وصعدت فيها. فرآني وجاء خلفي، فسبقت وطلعت في الشجرة. فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح؛ والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر(٢٢٦أ). قال: فرأيت الأسد قد قعد وانصب آذانه كأنه يتسمَّع، ثم قام يهرول. فإذا قافلة قد أقبلت على الطريق، كأنه سمع حِسَّها، فعرفوه وحملوه إلى بيته. وكان أثر أنياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار، فسبحان المُسَلِّم.

---

(٢٢٤) حصن الجسر: هو الحصن الذي كان قائماً على جسر شيزر وكان هذا الجسر الطريق الوحيد الموصل بين شيزر وضفة نهر العاصي اليمني.

(٢٢٥) كفر نبودا: هو موضع دون حلب (معجم البلدان ٤/٧٤١) وأخبرني الأخ محمد عكل الحلبي أن هذا الكفر يسمى الآن «كفر نبودي». الظاهر أنه سار في طريق الجبل مشرِّقاً ثم مغرِّباً إلى كفر طاب إذا كان هذا الكفر هو المقصود. فلعل أسامة يعني موضعاً قريباً من كفر طاب.

(٢٢٦) الخشت: كلمة فارسية تعني: الحربة القصيرة.

(٢٢٦ أ) انظر: كتاب الدلائل للحسن بن البهلول (فرانكفورت ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥ م) صفحة ٣٨٣ إذ يبدو أن أسامة قد اطّلع على الكتاب.

Marfat.com

قلت: تفاوضنا يوماً في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة(٢٢٧)، رحمه الله، يسمع. فقلت له: يا أستاذ، لو ركبت حصاناً ولبست كزاغندا(٢٢٨) وخوذة وتقلدت سيفاً وحملت رمحاً وترساً ووقفت عند مشهد [٢٧ أ] القاضي(٢٢٩) ـ موضع ضيِّق كان الإفرنج، لعنهم الله يجتازون به ـ ما كان يجوزك أحد منهم. قال: بلى والله، كلُّهم. قلت: كانوا يهابونك، ولا يعرفونك. قال: سبحان الله فأنا ما أعرف نفسي؟! ثم قال لي: يا فلان، ما يقاتل عاقل. قلت: يا أستاذ تحكم على فلان وفلان ـ وعددت له رجالاً من أصحابنا من شجعان الفرسان ـ إنهم مجانين؟ قال: ما ذا قصدت(٢٣٠)، إنما قصدي أن العقل لا يحضر وقت القتال، ولو حضر ما كان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام، ما هذا شيء يقضي به العقل.

وكان رحمه الله بالعلم أخبر مما هو بالحرب، فإن العقل هو الذي

---

(٢٢٧) ابن المنيرة: هو من أهل كفر طاب ثم نزل حصن شيزر. ترجم له ياقوت فقال: «أبو عبدالله النحوي نزيل شيزر، سمع الحديث على أبي السمح الحنبلي وصنف بحر النحو نقض فيه مسائل كثيرة من أصول النحويين ونقد الشعر وغريب القرآن، مات في رمضان سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة» (معجم الأدباء ـ طبعة دار المأمون ـ ١٩/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
وقد وردت هذه الحكاية في «لباب الآداب لأسامة» (صفحة ١٠١) ووردت عبارة «مسجد القاضي» بدلاً من «مشهد العاصي». والظاهر أن هناك وهما في وفاة ابن المنيرة، فقد ولد أسامة سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، والصحيح أن ابن المنيرة توفي سنة ثلاث وخمس مئة على ما ذكر السيوطي في «بغية الوعاة (ص ١٢٤) وفي كشف الظنون (١/ ١٨٦، ٢/ ١٥٨، ٦١٢ ـ طبعة الآستانة) وله ترجمة في الخريدة (١/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤) «قد تلمذ قد وا الأدب على أبي عبدالله الطليطلي. وذكر محقق الخريدة: الدكتور شكري فيصل (رحمه الله) شيئاً من ترجمته نقلاً من تاريخ ابن عساكر وبغية الوعاة للسيوطي

(٢٢٨) انظر: حاشية ١٣٠.

(٢٢٩) في لباب الآداب لأسامة (١٠١) «مسجد القاضي» أيضاً وليس «العاصي» كما عند فيليب حتي.

(٢٣٠) يعني: ما هذا قصدت.

Marfat.com

يحمل على الإقدام على السيوف والرماح والسهام أنفةً من موقف الجبان وسوء الأحدوثة. ودليل ذلك أن الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغيُّر اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكِّرُ فيه ويُحدِّثُ به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطر، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه. فإذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون. وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل.

ـ ٧٥ ـ

ومن ذلك أن الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها، وفيها زرع مخصب، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع. وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يدورون بعسكر الإفرنج يسرقون منه فرأوا الخيام في الزرع. فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال: الليلة أحرق عسكر الإفرنج كله. قال: إن فعلت خلعت عليك. فلما أمسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح إلى خيامهم، فصار الليل بضوء النار كالنهار. فرآهم الإفرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم. وما نجا منهم إلا من رمى نفسه في الماء وسبح إلى الجانب الآخر. فهذه آثار الجهل وعواقبه.

ورأيت مثل ذلك، وإن لم يكن في الحرب، وقد عسكر الإفرنج على بانياس[٢٣١] في جمع كثير ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش فكثرت البراغيث فوقعْ لذلك الشماس أن يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث. فطرح فيه النار، وقد يبس، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا. فهذا لم يحضره العقل.

---

(٢٣١) بانياس: بلدة على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب مائلة إلى الجنوب (تقويم البلدان ٢٤٩) وتُسمَّى قلعتها: الصبيبة. وانظر: الأعلاق الخطيرة لابن شداد جزء ٢ قسم ٢/١٣٩.

Marfat.com

وضده أننا ركبنا في بعض الأيام من شيزر إلى الصيد [٢٧ ب] وعمي رحمه الله معنا وجماعة من العسكر. فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له: زهر الدولة بختيار القبرصي ـ سمى بذلك للطف خلقته ـ وكان، رحمه الله، من فرسان المسلمين. فاستقبله السبع فحاص به الحصان فرماه. وجاءه السبع وهو ملقى، فرفع رجله فتلقمها السبع، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم. فقلنا له: يا زهر الدولة، لم رفعت رجلك إلى فم السبع؟ قال: جسمي كما ترونه ضعيف نحيف، وعلى ثوب وغلالة، وما فيَّ أكسى من رجلي، فيها الرانات والخف والساق موزاً[٢٣٢]. فقلت: أشغَله بها عن أضلاعي أو يدي أو رأسي إلى أن يُفرِّج الله تعالى[٢٣٣]. فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول وأولئك ما حضرهم العقل. فالإنسان أحوج إلى العقل من كل ما سواه. وهو محمود عند العاقل والجاهل.

ومن ذلك أن روجار صاحب أنطاكية كتب إلى عمي يقول: قد نفذت فارساً من فرساني في شغل مهم إلى القدس. اسأل تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه إلى رفنية. فركب وأرسل إليه من أحضره. فلما لقيه قال: قد نفَّذني صاحبي في شغل وسرٌّ له، لكني رأيتك رجلاً عاقلاً، فأنا أحدثك به. فقال له عمي: من أين عرفت أني عاقل وما رأيتني قبل الساعة؟ قال: لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامراً. فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك. وحدثه بما جاء فيه.

---

(٢٣٢) الران: حذاء كالخف إلا أنه لا قدم له، والساق موزا: ما يلبس على الساق من جلد أو قماش وهو أطول من الخف (القاموس المحيط ـ ران)

(٢٣٣) ذكر أسامة هذه الحكاية في «لباب الآداب» صفحه ١٩٩

Marfat.com

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب أربل قال: حدثني [أبي] أبو الهيجاء(٢٣٤) قال: بعثني السلطان ملك شاه لما وصل إلى الشام إلى الأمير ابن مروان(٢٣٥) صاحب ديار بكر يقول: أريد ثلاثين ألف دينار. فاجتمعت به وأعدت عليه الرسالة، فقال: تستريح ونتحدث. وأصبح أمر أن يُدخلوني الحمام ونَفَّذ آلة الحمام جميعها فضة ونفَّذ لي بدلة ثياب وقالوا لفراشي: كل آلة الحمام لكم. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج. فتركني أياماً ثم أمر لي بالحمام وما أنكر رَدَّ الحوائج. وحملوا معي آلة الحمام أفضل من الآلة الأوَّلة وبدلة ثياب أفضل من البدلة الأوَّلة. وقال الفراش لفراشي كما قال أولاً. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب. فتركني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد أدخلني إلى [٢٨ أ] الحمام، وحملوا معي آلات فضة أفضل من الأوَّلة وبدلة ثياب أفضل من الأوَّلة، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع. فلما حضرت عند الأمير قال لي: يا ولدي، نَفَّذت إليك ثياباً ما لبستها وآلة الحمام ما قبلتها ورددتها أيُّ شيء سبب هذا؟ قلت: يا مولاي جئت برسالة السلطان في شغل ما انقضى، أقبل ما تفضلت به وأرجع وما انقضى شغل السلطان فكأني ما جئت إلاّ في حاجتي؟ قال: يا ولدي، ما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها؟ أتراني كنت أُتلفُ هذا كلَّه من أجل ثلاثين ألف دينار؟ والله أن الذهب قد كَيَّسته من يوم وصولك. وإنما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي

---

(٢٣٤) أبو الهيجاء ابن موسك الكردي الهذباني صاحب أربل، ورد ذكره عند ابن الأثير (الكامل: لايدن ١٨٧٦، ١٠/٢٩٢، ٢٩٤، ٣٢٠، ٣٤٠، ٣٧٨ و ٤٥٠) وذكر ابن الأثير والده الأمير أبا الهيجا الكردي الهذباني في (التاريخ الباهر ٣٠، ١٤٢).

(٢٣٥) هو أبو نصر أحمد بن مروان الكردي، ترجم له ابن خلكان ١/١٧٧ ـ ١٧٨ وانظر عنه أيضاً: مرآة الجنان لليافعي ٣/٧٤، المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٢٢، العبر للذهبي ٣/٢٢٩، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣/٢٩٠، الكامل لابن الأثير ٩/٣٤٧ ـ ٣٤٩، وأفرد الفارقي في تاريخ ميا فارقين جزءاً في تاريخ الدولة المروانية، والبداية والنهاية ٢/٨٧ وسير أعلام النبلاء (بيروت ١٤٠٥ هـ ١٨/١١٧).

Marfat.com

وتلحقه بالمال خوفاً من أن أستقبله بالذي طلب فيطلب مني إذا دنا من بلادي أضعافه، فلا تشغل قلبك، فشغلك قد انقضى. ثم نفَّذ لي الثلاث بدلات التي كان نَفَّذها لي ورددتها مع جميع حوائج الحمام التي نفَّذها لي في الثلاث دخلات فقبلتها. ولما تجاوز السلطان ديار بكر أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان.

ـ ٧٩ ـ

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد. فمن ذلك أن أتابك زنكي، رحمه الله، خطب بنت صاحب خلاط[٢٣٦] وقد مات أبوها وأمها مدبرة البلد. ونفذ حسام الدولة ابن دلماج خطبها لابنه وهو صاحب بدليس[٢٣٧] فسار أتابك بعسكرٍ حَسَنٍ إلى خلاط على غير الطريق المسلوك لأجل دربند بدليس. فسلك فيها الجبال، فكنا ننزل بغير خيام وكل واحد في موضعه من الطريق، حتى وصلنا خلاط. فخيم أتابك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر، فلما انقضى الشغل أمر أتابك[٢٣٨] أن يأخذ صلاح الدين[٢٣٩] معظم العسكر ويسري إلى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على بدليس فخرج إلينا حسام الدولة صاحبها. فلقينا على فسحة من البلد وأنزل صلاح الدين في الميدان وحمل إليه الضيافة الحسنة وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال: يا مولاي، أي شيء ترسم؟ فقد تعنَّيت وتعبت في مجيئك. قال: أتابك أحنقه خطبتك للبنت التي كان خطبها وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار يريدها منك. قال: السمع والطاعة! فعجَّل له بعض المال، واستمهله بباقيه أياماً عيَّنها. ورجعنا وبلده بحُسن سياسته عامرٌ ما دخل عليه خلل [٢٨ ب].

---

(٢٣٦) خلاط: قاعدة أرمينية وكان سقمان القطبي صاحبها إذ ذاك (ياقوت معجم البلدان ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠، الباهر ١٨).

(٢٣٧) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط (معجم البلدان لياقوت ١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩)

(٢٣٨) انظر: تاريخ حلب ٢/ ٢٥٤)، وقد تمَّ الزواج في سنة خمس وعشرين وخمس مئة

(٢٣٩) هو صلاح الدين الياغسياني.

Marfat.com

ـ ٨٠ ـ

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم[٢٤٠] رحمه الله. وذلك أن جوسلين[٢٤١] أغار على الرقة والقلعة فأخذ كلَّ ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات. فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه وعبر الفرات إلى جوسلين، وبينهما معرفة قديمة ولمالك عليه جميل. وظن جوسلين أن في الزورق رسولاً من مالك، فجاءه واحد من الإفرنج وقال: هذا مالك في الزورق، قال: ما هو صحيح!! فأتاه آخر قال: قد نزل مالك من الـــزورق وهو جاي[٢٤٢] يمشي. فقام جوسلين والتقاه وأكرمه ورد عليه جميع ما كان أخذه من الغنائم والسبي. ولولا سياسة نجم الدولة كان خُرِّب بلده.

ـ ٨١ ـ

إذا أنقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة.

شاهدت يوماً وقد زحف إلينا عسكر الإفرنج يقاتلنا، ومضى بعضهم مع طغدكين أتابك[٢٤٣] إلى حصن الجسر[٢٤٤] يقاتله. وكان أتابك اجتمع وهو

---

(٢٤٠) مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر: انظر تاريخ حلب ٢/ ١٧٠ والباهر ٨، ٧٣، ١٣٦ ـ ١٣٧، والكامل ١١/ ١٠٩ وعن القلعة، انظر: القاموس المحيط «جعبر».

(٢٤١) هو جوسلين Joscelin صاحب تل باشر إذ ذاك.

(٢٤٢) وهو جاي: هكذا في المخطوطة وهو تعبير عامي ما يزال يستعمل في البلدان العربية، وهو تخفيف من «جاءى» بمعنى: قادم.

(٢٤٣) أتابك طغدكين: هو ظهير الدين طغتكين أو تغدكين، كان من أمراء تاج الدولة تتش السلجوقي صاحب دمشق، وقد زوَّجه تتش بام ولده دقاق ثم صار أتابك دقاق. وقد حكم دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة، (مرآة الزمان ٨/ ١١ وشذرات الذهب ٤/ ٦٥) وأخباره منثورة في تواريخ العصر، وانظر سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥١٩ ـ ٥٢١ مع مصادر ترجمته.

(٢٤٤) عن حصن الجسر انظر حاشية رقم (١١٢) وهو الحصن القائم على جسر شيزر والجسر يوصل بين شيزر وجانب العاصي الأيمن، وانظر تاريخ أبي الفدا ٣/ ٣٣.

Marfat.com

وإيلغازي بن أرتق[٢٤٥] والإفرنج في أفامية[٢٤٦] لمحاربة عساكر السلطان. وكان وصل بها إلى الشأم إسباسلار برسق بن برسق[٢٤٧] وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مئة. فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة[٢٤٨]. فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم. فشاهدت رجلاً من أصحابنا يقال له محمد بن سرايا وهو شاب شديدٌ أيِدٌ، قد حمل عليه فارس من الإفرنج، لعنه الله، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها. فمسكها محمد وهي في فخذه وجعل الإفرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قَوَّرت فخذه. واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ومات بعد يومين، رحمه الله.

ـ ٨٢ ـ

ورأيت في ذلك اليوم وأنا في جانب الناس في القتال، فارساً قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله وصاحبنا راجل في الأرض ولا أدري من هو لبعد ما بيننا. فدفعت حصاني إليه خوفاً عليه من الإفرنجي الذي طعنه وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه والإفرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبله. فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد، رحمه الله، فوقفت عليه وأخليت [٢٩ أ] له ركابي، وقلت: اركب. فلما ركب رددت رأس حصاني إلى الغرب والمدينة من شرقيِّنا، قال لي: إلى أين تروح؟ قلت: إلى هذا الذي طعن حصانك فهو

---

(٢٤٥) إيلغازي بن أرتق: نجم الدين إيلغازي، ملك مدينة ماردين بعد أن أخذ الأفضل [illegible] منه ومن أخيه سقمان أو سكمان سنة إحدى وتسعين وأربع مئة فملك [illegible] إيلغازي ماردين سنة إحدى وخمس مئة. وكان السلطان محمد [illegible] بغداد (وفيات الأعيان ١/ ١٩١ والكامل (٣٣٧) وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٥ مع مصدر ترجمته وانظر حاشية ١٠٩.

(٢٤٦) أفامية: انظر حاشية رقم (١٠٨).

(٢٤٧) انظر عن هذه الحادثة: الكامل ١٠/ ٥٠٩ وما بعدها

(٢٤٨) انظر: تاريخ حلب ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥

Marfat.com

فرصة. فَمَدَّ يده وقبض على عنان الحصان وقال: ما تطاعن وعلى حصانك لابسان، إذا أوصلتني ارجع طاعنه. فمضيت أوصلته وعدت إلى ذلك الكلب وقد دخل في أصحابه.

— ٨٣ —

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الإفرنج، لعنهم الله، نزلوا علينا بالفارس والراجل. وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم. فنزلوا على الجبل بخيامهم، ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، هملوا(٢٤٩) خيلهم في القصيل وناموا. فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم، وتكاثروا على أصحابنا، فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية(٢٥٠) فيه رجل يقال له: حسن الزاهد، وهو واقف على سطح بيوت(٢٥١) في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف، ونحن نراه ومالنا إليه سبيل. وقد جاء الإفرنج فنزلوا على باب المسجد، وصعدوا إليه ونحن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله الساعة يقتلونه. فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه. وعاد الإفرنج نزلوا ركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه

---

(٢٤٩) هملت الماشية: سرحت بغير راع فهي هاملة والجمع هوامل. والقصيل: هو زرع الشعير يجزُّ وهو أخضر لعلف الدواب.

(٢٥٠) ذكر ابن العديم (تاريخ حلب ٢/٢٦٧) أن صاحب أنطاكية نزل في مسجد سمون، ولعل الإسم هنا قد تصحف على المحقق الفاضل.

(٢٥١) وردت هذه الكلمة خلوا من الإعجام في الأصل. وقرأها فيليب حتى «يتوّب» (صفحة ٩٢ حاشية ٢٣٩) وهو خطأ منه ظاهر. وقرأها ديرنبورج «ينوب» (صفحة ٦٩). وقد ذكر أسامة الحكاية بكاملها في كتاب العصا وقال: «يعرف بحسن الزاهد ـ رحمه الله ـ واقف يصلي على سطحه وعليه ثياب سود...» نشرة هارون الناقصة في (نوادر المخطوطات، المجموعة الثانية، القاهرة ١٣٧١ هـ ١٩٧٠).

Marfat.com

يصلي. ولا نشك أن الله سبحانه أعماهم عنه وستره عن أبصارهم. فسبحان القادر الرحيم(٢٥٢).

— ٨٤ —

ومن ألطاف الله تعالى أن ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة(٢٥٣) خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال. فاقتطعوهم(٢٥٤) الروم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً. فكان في جملة من أسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية من مولدي محمود بن صالح(٢٥٥) صاحب حلب. فلما عاد الروم كان معهم مأسوراً. فوصل القسطنطينية. فهو في بعض الأيام فيها إذ لقيه إنسان فقال: أنت ابن كردوس؟ قال: نعم، قال: سر معي أوقفني على صاحبك. فسار معه حتى أراه صاحبه، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه [٢٩ ب] فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: تبلغ بها إلى أهلك، وامض في دعة الله تعالى. فخرج من القسطنطينية وتوصل إلى أن عاد إلى شيزر وذلك من فرج الله تعالى وخفى لطفه، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه.

— ٨٥ —

وقد جرى لي ما يشبه ذلك. لما خرج علينا الإفرنج في طريق مصر

---

(٢٥٢) وردت هذه الحكاية في كتاب العصا لأسامة. انظر: القسم الذي نشره ديرنبورج (باريس ١٨٨٩ - ١٨٩٣) ٥٢٠ - ٥٢١ والقسم الذي نشره هارون ١٩٧ وتحقيق حسن عباس (الإسكندرية ١٩٨١) ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢٥٣) انظر: الكامل لابن الأثير ١١/٥٧ - ٥٨، والباهر له ٥٥ - ٥٧ وملك الروم يدعى ذلك يوحنا الثاني كومينيوس.

(٢٥٤) كذا في المخطوطة، والصواب: فاقتطعهم.

(٢٥٥) محمود بن صالح المرداسي، حكم حلب من سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٦٧ هـ، انظر تاريخ حلب ٢/٩ وما بعدها وكتاب الإمارات العربية في بلاد الشام لمحمد محمد موسى الشيخ (القاهرة ١٩٨٠) ١٣٢ - ١٣٩.

Marfat.com

وقتلوا عباس بن أبي الفتوح[٢٥٦] وابنه نصراً الكبير، انهزمنا نحن إلى جبل قريب منا. فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرُّون خيلهم وأنا على إكديش[٢٥٧] ولا أستطيع المشي. فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى كلما وطئه الفرس انهرَّ تحت قوائمه. فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع، ونزل والحصى والنقارة تنزل به. فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على المشي. فنزل إليَّ رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي الأخرى حتى أطلعني. ولا، والله، ما أدري من هو ولا عدت رأيته.

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الإحسان ويطلب المكافأة عنه. ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء أعطيته عنها دينارين، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصل بي إلى أغراضه لأجل تلك الشربة التي سقانيها. وما كان ذلك الذي أعانني إلا ملكاً رحمني الله تعالى فأغاثني به.

ـ ٨٦ ـ

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبدالله المشرف قال: حبست بحيزان[٢٥٨] وقيدت وضُيِّق عليَّ. فأنا في الحبس والموكلون على بابه فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: اقلع القيد واخرج. فانتبهت جذبت القيد، فخرج من رجلي. وقمت إلى الباب أريد أفتحه، فوجدته مفتوحاً. فتخطَّيت الرجال

---

(٢٥٦) هو ربيب العادل ابن السلار (الكامل ١١/١٤٢، ١٨٢) أصبح وزيراً للظافر الفاطمي بعد مقتل ابن السلار هذا، انظر: وفيات الأعيان ٣/٤١٦ ـ ٤١٩، وذكر محقق الوفيات مناجم ترجمته أما عن ولده نصر، فانظر الوفيات أيضاً ١/٢٣٧ في ترجمة الظافر العبيدي. وذكر ابن القلانسي شيئاً من أخبار ابن السلار (ذيل تاريخ دمشق ٣٢٠، ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

(٢٥٧) الأكديش هو الحصان غير الأصيل أو أحياناً البغل يسمى أيضاً الأكديش. وفي العامية «الكديش».

(٢٥٨) حيزان: بلد قرب أسعرت (سعرت) من ديار بكر (معجم البلدان ٢/٣٣١).

Marfat.com

الموكلين إلى منفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه. فخرجت منه، ووقعت على مزبلة، فبقى فيها آثار وقوعي وآثار رجلي. ونزلت في وادٍ حول السور ودخلت مغارةً في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا أقول في نفسي: الساعةَ يخرجون يرون أثري ويأخذوني، فأرسل الله سبحانه ثلجاً غطَّى ذلك الأثر. وخرجوا [٣٠ أ] يطوفون عليَّ، وأنا أراهم نهارهم ذلك. فلما أمسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت إلى مأمني. كان هذا الرجل مشرفاً على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني، رحمه الله.

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة.

ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي، لعنه الله لما وصل الشأم اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج. وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي[٢٥٩]، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي، رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى! قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله تعالى. فتقدما فقاتلا حتى قتلا، رحمهما الله، في مكان واحد[٢٦٠].

---

(٢٥٩) في الروضتين (١/٥٢) «الفندلاوي المالكي ... الحلحول ...» وقال ياقوت (معجم البلدان ٢/٢٩٠) في حديثه على حلحول وذكر الحلحولي: «قتله الإفرنج سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة بظاهر دمشق».

(٢٦٠) انظر: الروضتين ١/٥٢ ـ ٥٣ نقلاً من كتاب الاعتبار هذا، وفي هذه الحوادث وفضل الفندلاوي والحلحولي، انظر: وفيات الأعيان ٢/٤٥٢، وشذرات الذهب ٥٩، والتحفة اللطيفة ٥/٢٨٢، وشذرات الذهب ٤/١٣٦، معجم البلدان ٤/٢٧٧، وذيل تاريخ دمشق ٢٩٨. وأشار محقق الكتاب إلى أن الذهبي ذكر الفندلاوي في كتاب العبر وقال: «قتل شهيداً في حصار الفرنج مقبلاً غير مدبر» والكامل ١١/١٢٩ ـ ١٣٠، وحلحول قرية من قرى

Marfat.com

ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك أن رجلاً من الأكراد يقال له: فارس، وكان كاسمه فارساً وأي فارس!! فحضر أبي وعمي، رحمهما الله، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف بن ملاعب(٢٦١) عمل عليهم فيها وغدر بهم وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما جرى. وسبب ذلك أنه راسلهم وقال: نمضي إلى اسفونا(٢٦٢) وفيها الإفرنج نأخذها. فسبقه أصحابنا إليها وترجلوا وزحفوا إلى الحصن نقبوه، وهم في القتال وابن ملاعب وصل، فأخذ خيل من كان ترجل من أصحابنا ووقع القتال بينهم، بعد ما كان للإفرنج، واشتد بينهم القتال، فقاتل فارس الكردي قتالاً عظيماً وجرح عدة جراح. وما زال يقاتل ويجرح حتى أثخن بالجراح، وانفصل القتال. فاجتاز به أبي وعمي، رحمهما الله، وهو محمول بين الرجال فوقفا عليه وهنآه بالسلامة فقال: والله ما قاتلت أريد السلامة، لكن لكم على جميل وفضل كثير، وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم، فقلت: أقاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدّامكم.

وقضى الله سبحانه أنه عوفي من تلك الجراح ومضى إلى جبلة(٢٦٣)

= فلسطين دمرها اليهود وقتلوا أهلها ورموهم في بئر، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/٢٠٩ ـ ٢١٠ مع مصادر ترجمته.

(٢٦١) خلف بن ملاعب الأشهبي الكلابي صاحب حمص وبعدها أفامية (تاريخ حلب ٢/١٠٦) وانظر عنه: الكامل ١٠/٤٠٨ ـ ٤١٠. وقد قتلته الباطنية الإسماعيلية بحيلة في أفامية (تاريخ حلب ٢/١٥٢) وترجم له ابن العديم أيضاً في بغية الطلب ترجمة طويلة نقل فيها من روايات بنى منقذ فيه (١٢٤ ـ ١٣٢)، واتعاظ الحنفا للمقريزي ٣/١٨ وانظر حاشية ٣٤٠.

(٢٦٢) حصن أسفونا: كان قرب معرة النعمان بالشام، افتتحه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي (معجم البلدان ١/١٧٩) من العامل الفاطمي، وله ذكر كثير في تواريخ العصر. وملكته الروم سنة إحدى وستين وأربع مئة (ذيل تاريخ دمشق ٩٨).

(٢٦٣) جبلة: قلعة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية (ياقوت ٢/١٠٥) تناقلتها أيدي المسلمين في طرابلس والفرنج مراراً.

Marfat.com

وفيها فخر الملك بن عمار[٢٦٤] وفي اللاذقية الإفرنج. فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على اللاذقية، وخرجت خيل من اللاذقية تريد الغارة على جبلة. فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابيـة. فطلع فارس من الإفرنج [٣٠ ب] من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر يكشف لأصحابه. فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين. وبقيت الحُصُن تتصاول على الرابية، والفارسان قتيلان.

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علاَّن من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة، ولكن ما كان كأبيه. فنزل علينا دنكري[٢٦٥] صاحب أنطاكية يوماً وقاتلنا قبل ضرب الخيام. وهذا عَلاَّن بن فارس على حصان مليح باغز[٢٦٦] من أحسن الخيل وهو واقف على رفعة من الأرض. فحمل عليه فارس من الإفرنج وهو كالغافل فطعن حصانه في رقبته نَفَذ القنطارية، فشب الحصان رمى علاَّن. وعاد الإفرنجي، والحصان معارضه والقنطارية في رقبته كأنه جنيبة يتمختر[*] بغنيمة حسنة.

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار. فمن ذلك أنه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين

---

(٢٦٤) فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار: تولى طرابلس سنة ٥٠١ هـ. انظر عنه الإمارات العربية في بلاد الشام للدكتور محمد محمد مرسي الشيخ (القاهرة ١٩٨٠) ٢٢٥ - ٢٧٨، ثم تغلب على جبلة (ابن القلانسي ١٣٩) خرج إلى بغداد فسجن بالسلطان فلم يحظ بطائل، ولما استولى الفرنج على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ سار إلى [illegible] فأكرمه سلطان بن علي بن منقذ عم أسامة ثم توجه إلى عند طغتكين فسجنه [illegible] منثورة في تواريخ العصر. ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٩ ٣١١، ٣١٢ [illegible] محققا الكتاب مصادر ترجمته.

(٢٦٥) هو تنكرد.

(٢٦٦) الباغز: النشط الذي فيه حدة وهو في الإبل حمضه (القاموس المحيط ٢ ١٦٧)

(*) كذا في الأصل. والصواب «يتبختر». واستعمال أسامة عامي ما زال شائعاً

Marfat.com

والخير، رحمه الله، وله حصان أدهم أصمُّ مثل الجمل. فالتقى هو وفارس من الإفرنج فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر. وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة، ولا فارسه. فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذه بعد ما اندمل وختم وهو كاكبر ما يكون من الجراح وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال، فالتقى هو وفارس من الإفرنج فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع. وسلم من تلك الطعنة الثانية، فكانت بعد أن أختمت إذا أطبق الإنسان كفَّه وأدخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح وسعتها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عزالدولة أبا الحسن علياً رحمه الله اشتراه من كامل المشطوب، وكان ثقيل العدو، فأخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من إفرنج كفر طاب، فبقي عنده سنة ثم مات. فأرسل إلينا يطلب ثمنه. قلنا: اشتريته وركبته، ومات عندك، كيف تطلب ثمنه؟ قال: أنتم سقيتموه شيئاً يموت منه بعد سنة. فعجبنا من جهله وسخافة عقله.

وجُرح تحتي حصان على حمص شَقَّت الطعنة قلبَه وأصابه عدة سهام، فأخرجني من المعركة ومنخراه يرميان [٣١ أ] بالدم كالعزلتين[٢٦٧]. وما أنكر منه شيئاً. وبعد وصولي إلى أصحابي مات.

وجُرح تحتي حصان في بلد شَيزر في حرب محمود بن قراجا[٢٦٨] ثلاثة جراح. وأنا أقاتل عليه ولا أعلم، والله، أنه قد جرح، لأني ما أنكرت منه شيئاً.

---

(٢٦٧) العزلاء: وزان حمراء، فم المزادة الأسفل أو مصب الماء من الرواية.

(٢٦٨) محمود بن قراجا صاحب حماة، مات سنة ٥١٧ من سهم أصابه في حصار حصن أفامية، قال فيه ابن الأثير: «واستراح أهل عمله من ظلمه وجوره «الكامل ٦١٨/١٠ وانظر حاشية رقم ٩٨ في أعلاه.

Marfat.com

- ٩٠ -

وأما خورها وضعفها على الجراح فإن عسكر دمشق نزل على حماة، وهي لصلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني[٢٦٩] ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين[٢٧٠] وأنا بها. وزحفواإلينا في جمع كثير ووالي حماة شهاب الدين أحمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد[٢٧١]. فجاءه الحاجب غازي التلِّي فقال: قد انتشرت الرجالة، والخوذ تتلامع بين الخيام، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم. فقال: امض رُدَّهم. فقال: والله ما يَرُدُّهم إلا أنت أو فلان: يعنيني. فقال لي: تخرج تَرُدُّهم. فقلعت زردية كانت على غلامٍ لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبُّوس، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل وأتلعها[٢٧٢]. فلما رددت الناس زحفوا إلينا، وما برَّا من سور حماة فارس غيري: منهم من دخل المدينة وأيقنوا أنهم مأخوذون ومنهم من هو مترجل في ركابي. فإذا حملوا علينا أخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم، وإذا عادوا مشيت خلفهم سترةً لضيق المجال وازدحام الناس. فضَربَتْ حصاني نشابة في ساقه خمشته، فوقع بي وقام، ووقع، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي: ادخل إلى الباشورة اركب غيره. فقلت: والله ما أنزل عنه. فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم أره من غيره.

- ٩١ -

ومن حسن صبر الخيل أن طَرَّاد بن وهيب النميري حضر القتال بين

---

(٢٦٩) صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني انظر حاشية (٧)

(٢٧٠) شهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين، انظر ولاة دمشق في [illegible]
(نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق لابن عساكر) لصلاح الدين [illegible]
اللغة العربية بدمشق، جـ ١، مجلد ٢٥، لسنة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠، ١١ - ٩٦) و[illegible]
وفيات الأعيان ١/٢٩٦.

(٢٧١) تل مجاهد: الظاهر أنه على مشارف حماة، لم يهتد له في كتب البلدان، وقد ورد ذكر تل
ابن معشر عند ابن القلانسي (١٧٤، ١٧٧) ويظهر أنه بين حماة وشيزر.

(٢٧٢) أي: طويل العنق، فهو أتلع وتليع (القاموس المحيط ٣، ١٠)

Marfat.com

بني نمير وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها(٢٧٣). والحرب بينهم وبين أخيه شهاب الدين مالك بن شمس الدولة. وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجود الخيل له قيمة كبيرة. فطعن في خاصرته، فخرجت مصارينه. فشدَّها طَرَّاد في السموط(٢٧٤) لا يدوسها فيقطعها، وقاتل حتى انقضى القتال. فدخل به إلى الرقة فمات.

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمد بن أيوب الغسياني رحمه الله وذلك أن ملك الأمراء أتابك زنكي، رحمه الله، نزل على دمشق في سنة ثلاثين وخمس مئة بأرض داريا(٢٧٥) وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد(٢٧٦) بن [٣١ ب] بوري بن طغدكين رحمه الله، في الوصول إليه وخرج من بعلبك متوجهاً إلى خدمة أتابك. فبلغه أن عسكر دمشق خرج يريد أخذه. فأمر صلاح الدين أن نركب للقائه ودفع الدمشقيين عنه. فجاءني رسوله في الليل يقول: اركبْ، وخيمتي إلى جانب خيمته، وهو قد ركب ووقف عند خيمته فركبت في الوقت. فقال: كنت قد علمت بركوبي؟، قلت: لا، والله، قال: الساعة نفذت إليك، فركبت في الوقت؟؟ قلت: يا مولاي، حصاني يأكل شعيره ويلجمه الركابى ويقعد، وهو في يده على باب الخيمة، وأنا ألبس عُدَّتي وأتقلد سيفي وأنام، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني.

فوقف إلى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر وقال: البسوا سلاحكم.

---

(٢٧٣) يقول ابن الأثير (١٠/٤٦٣): «فوثب جوشن النميري ومعه جماعة من بني نمير فقتل علياً (ابن سالم بن مالك) وملك الرقة».

(٢٧٤) هو السيور التي تتدلى من السرج على جانبي بطن الحصان من السرج نفسه.

(٢٧٥) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق (ياقوت ٢/٤٣١).

(٢٧٦) ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين في سنة ٥٣٣ هـ. (الكامل ١١/٦٨).

Marfat.com

وقد لبس أكثر الحاضرين وأنا إلى جانبه. ثم قال: كم أقول لكم البسوا سلاحكم؟ قلت: يا مولاي، لا تكون تعنيني؟! قال: نعم. قلت: والله ما أقدر ألبس، نحن في أول الليل. وكزاغندي فيه زرديتان مطبقة إذا رأيت العدو لبسته، فسكت.

وسرنا فأصبحنا عند ضُمير(٢٧٧)، فقال لي: ما ننزل نأكل شيئاً؟ فقد جعت من السهر، قلت: الأمر لك، فنزلنا. فما استقر على الأرض حتى قال: أين كزاغندك؟ فأمرت الغلام فأحضره، وأخرجته من عيبته(٢٧٨) وأخرجت السكين فتقته عند صدره وأظهرت جانب الزرديتين وكان فيه زردية إفرنجية إلى ذيله وفوقها أخرى إلى وسطه على كل زردية البطائن واللبد واللاسين(٢٧٩) ووبر الأرنب. فالتفت إلى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول. فأحضر بين يديه حصاناً كميتاً كان أعطاه إياه أتابك في تلك الأيام كالصخرة الصماء قُدَّت من قُنَّة الجبل. فقال: هذا الحصان يَصْلُح لهذا الكزاغند، سَلِّمْه إلى غلام فلان، فسلمه إلى غلامي.

قلت: كان عمي عز الدين رحمه الله يتفقد مني حضور فكري في القتال ويمتحنني بالمسألة. فنحن يوماً في بعض الحرب التي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب. فجرد عمي من العسكر نحواً من ستين سبعين فارساً، وقال لي: خذهم وسر إليهم. فمضينا نتراكض والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه. ونفذت فارساً من أصحابي إلى عمي وأبي، رحمهما الله، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر في جبل كثير

(٢٧٧) ضمير: موضع قرب دمشق، قيل هو قرية وحصن في أحد حدود دمشق (ياقوت ٣ ٤٦٣)
(٢٧٨) العيبة: زِبْيل من أدم وما يجعل فيه الثياب (القاموس المحيط ١ / ١٠٩)
(٢٧٩) اللاسين: هو نقاية الحرير، وبالعامية السورية «اللسين»

Marfat.com

أقول لهما: سيرا بالرجالة فقد كسرتهم، فسارا إليَّ. فلما قَرُبا حملنا عليهم، كسرناهم، ورموا خيلهم في الشاروف[٢٨٠] وعبروه سباحة وهو زائد ومضوا وعدنا بالنصر. فقال لي عمي: [٣٢ أ] أي شيء نفذت تقول لي؟ قلت: نفَّذت أقول لك: تقدم بالرجالة فقد كسرناهم، فقال: مع من نفَّذت إليّ؟ قلت: مع رجب العبد. قال: صدقت، ما أراك كنت إلا حاضرَ القلب ما أدهشك القتال.

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة، وكان محمود بن قَراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص. وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة يوصل الرمح إلى بعض رمحٍ آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعاً أو ثمانية عشر ذراعاً، فوقف مقابلي موكب منهم وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارساً، فحمل علينا منهم علوان العراقي ـ وهو من فرسانهم وشجعانهم ـ فلما دنا منّا وما تزعزعنّا، رجع وردّ رمحه [فوقع منه][٢٨١] فرأيته كالحبل مطروحاً على الأرض لا يقدر يرفعه. فأطلقت حصاني عليه فطعنته وقد وصل إلى أصحابه، وعُدتُ ورياتهم على رأسي. فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ، رحمه الله، فردَّهم وقد انقطع نصف يرقي[٢٨٢] في كزاغند علوان ونحن بالقرب من عمي، وهو يراني. فلما انفصل القتال قال لي عمي: أين طعنت علوان العراقي؟ قلت: أردت ظهره، فمال الهواء بالبيرق[٢٨٣] فوقع الرمح في جانبه. قال: صدقت، ما كنت إلا حاضرِ القلب ذلك الوقت.

ـ ٩٤ ـ

وما رأيت الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما

---

(٢٨٠) الشاروف: نهر من روافد نهر العاصي.

(٢٨١) زيادة اقتضاها الكلام وهي ليست في الأصل.

(٢٨٢) اليرق أو اليراق: لفظة تركية معناها: السلاح والعدة وهو هنا الرمح أو القنطارية.

(٢٨٣) البيرق: هو اللواء.

Marfat.com

كان يرى فيَّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي. ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين[٢٨٤] ملك الإفرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي[٢٨٥]، رحمه الله: فرسان إفرنج وأرمن. فلما وَفَّوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم نفَّذ خير خان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم في ظاهر شيزر. فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم، ووقع الصائح. فركب عمي وأبي، رحمهما الله، ووقفا؛ وكل من يصل إليهما قد سيَّراه من خلفهم. وجئت أنا فقال لي أبي: اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم. فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص، وعجبت من قوله: ارموا نفوسكم عليهم.

ومرة كنت معه، رحمه الله، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها. فحملت سُلَّماً كان في جانب الدار أسندته [٣٢ ب] تحت الحية وصعدت إليها وهو يراني فلا ينهاني وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع وجعلت أحز رأسها - وخرجت التَفَّت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها إلى الدار وهي ميتة.

بل رأيته، رحمه الله، وقد خرجنا يوماً لقتال أسدٍ ظهر على الجسر[٢٨٦] فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها. فحمل على الخيل ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ، رحمه الله، بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمي، رحمهما الله، ومعهما جماعة من الجند، والأسد قد ربض على جرف النهر

---

(٢٨٤) بغدوين: هو بولدوين الثاني Boldwin II ملك القدس إذ ذاك

(٢٨٥) هو ابن صاحب ماردين إيلغازي بن أرتق، انظر: الكامل ١٠/ ٥٣٢، ٥٩٢، ٦٠٤، وانظر حاشية ٣٨٥.

(٢٨٦) أي: جسر شيزر على العاصي

Marfat.com

يتضرَّب بصدره على الأرض ويهدر. فحملت عليه، فصاح عليَّ أبي، رحمه الله، لا تستقبله يا مجنون فيأخذك!! فطعنته، فلا والله ما تحرك من مكانه، ومات موضعه. فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم.

ـ ٩٥ ـ

خلق الله عزّ وجلّ خلقه أطواراً مختلفي الخلق والطبائع: الأبيض والأسود، والجميل والقبيح، والطويل والقصير، والقوي والضعيف، والشجاع والجبان بمقتضى حكمته وعموم قدرته.

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتابك زنكي، رحمه الله، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخى وانحلت أعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه، وهو رجل مثل الأسد أجسمُ ما يكون من الرجال. فأحضروا له الطبيب والجرائحي، فقال الطبيب: ما به بأس، بل متى ما جُرح ثانية مات. فهدأ وركب وتصرف كما كان. ثم أصابته نشابة أخرى بعد مدة أحقرُ من الأوَّلة وأقلُّ نكاية، فمات.

ـ ٩٦ ـ

ورأيت ما يقارب ذلك أيضاً. كان عندنا بشيزر أخَوان يقال لهما: بنو مجاجو، الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن، وهما ضُمَّان رحاة[٢٨٧] الجسر بثمان مئة دينار وعند الرحا مذبحٌ للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم. فاجتاز محاسن بن مجاجو يوماً إلى الرحا فلسعه زنبور فانفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت. وبقي كذلك مدة، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له: يا أخي، معنا هذه

(٢٨٧) رحى وأرحية وأرحاء وأُرحيٌّ ورحيٌّ، والظاهر أن رحاة عامية إذا كانت كذلك فلعل التاء من زيادة الناسخ.

Marfat.com

الرحا بثمان مئة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟!! وغداً ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس. فقال [٣٣ أ] له محاسن: أنت مقصودك أن يلسعني زنبور آخر فيقتلني! وأصبح جاء إلى الرحا فلسعه زنبور فمات. فأيسر الأشياء يقتل إذا فرغ الأجل والفأل موكل بالمنطق.

ـ ٩٧ ـ

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع. فركبنا إليه فوجدنا غلاماً للأمير سابق[٢٨٨] بن وثاب بن محمود بن صالح في ذلك المكان يرعى فرسه اسمه: شماس فقال له عمي: أين الأسد؟ قال: في تلك الغلفاء، قال: سِرْ قُدَّامي إليها. قال: أنت مقصودك أن يخرج الأسد يأخذني؟! ومشى قدامه فخرج الأسد كأنه مرسل إلى شماس فأخذه فقتله دون الناس، وقُتِل الأسد.

ـ ٩٨ ـ

وشهدت من الأسد ما لم أكن لأظنه، ولا اعتقدت أن الأسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان. وذلك أن جوبان[٢٨٩] الخيل جاءنا يوماً يركض وقال: في أجمة تل التلول ثلاثة سباع، فركبنا فخرجنا إليها وإذا لبؤة خلفها أسدان. فدرنا في تلك الأجمة، فخرجت علينا اللبؤة فحملت على الناس ووقفت. فحمل عليها أخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ، رحمه الله، طعنها قتلها، وتكسر رمحه فيها.

---

(٢٨٨) في تاريخ ابن العديم وفي الكامل لابن الأثير وفي معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي لزامباور، لم يرد اسم ولد لوثاب بهذا الإسم وهو أخو وثاب بن محمود بن صالح.
الكامل: ٩/٢٣٤، ١٠/١١٥
زمباور ٢٠٤.
ابن العديم ٢/٤٨، ٥٣، ٥٥، ٥٦ (راجع فهرس الأعلام)

(٢٨٩) جوبان: لفظة تركية معناها الراعي أو السائس

Marfat.com

ورجعنا إلى الأجمة، فخرج علينا أحد السبعين فطرد الخيل، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولـة فـي طريقه عند عودته من طرد الخيل، فإن الأسد إذا خرج من موضع لا بُدَّ له من الرجوع إليه بلا شبهة وجعلنا إعجاز خيلنا إليه ورددنا رماحنا نحوه ونحن نعتقد أنه يقصدنا فننشب الرماح فيه فنقتله. فما راعنا إلا وهو عابر علينا كالريح إلى رجل من أصحابنا يقال له: سعد الله الشيباني، فضرب فرسه رماها فطعنته وسَّطْتُ القنطارية فيه فمات مكانه.

ورجعنا إلى الأسد الآخر ومعنا نحو من عشرين راجلاً من الأرمن الأجناد: رماة[٢٩٠] فخرج السبع الآخر وهو أعظمها خلقة يمشي، وعارضه الأرمن بالنشاب وأنا معارض الأرمن انتظره يحمل عليهم يأخذ واحداً منهم فأطعنه وهو يمشي. وكلما وقعت فيه نشابة قد هدر ولوَّح بذنبه فأقول: الساعة يحمل، ثم يعود يمشي. فمازال كذلك حتى وقع ميتاً. فرأيت من ذلك الأسد شيئاً ما ظننته.

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك.

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سَبَّاع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس به. فقيل للأمير معين الدين[٢٩١] رحمه الله وأنا عنده هذا السبع قد آذى الناس، والخيل تنفر منه، وهو في الطريق. وكـان على [٣٣ ب] مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل. فقال: قولوا للسباع يجيء به. فقال للخوان سلار[٢٩٢]: أخرج من ذبائح المطبخ خروفاً اتركه في قاعة الدار حتى نُبصرَ كيف يكسره السبع. فاخرج خروفاً إلى قاعة

---

(٢٩٠) أي: النشابون أو رماة السهام.

(٢٩١) هو معين الدين أنر، أتابك دمشق وصاحب أسامة.

(٢٩٢) الخوان سلار: هو قيِّم المائدة، والخوان: ما يوضع عليه الطعام وقد يكون صينية. انظر دوزي ١/٤١٤.

Marfat.com

الدار. ودخل السبَّاع ومعه السبع، فساعة رآه الخروف، وقد أرسله السباع من السلسلة التي في رقبته حمل عليه فنطحه، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خلفه يطرده وينطحه ونحن قد غلبنا الضحك عليه. فقال الأمير معين الدين: رحمه الله، ذا سبع منحوس اخرجوه اذبحوه واسلخوه، وهاتوا جلده، فذبحوه وسلخوه وأُعتق ذلك الخروف من الذبح.

ـ ١٠٠ ـ

ومن عجيب أمور السباع أن أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر. فخرجنا إليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام للمُفَنَّد(٢٩٣) الذي كان يطيعه أهل الجبل ويكاد أن يُعبَد، ومع ذلك الغلام كلب له. فخرج الأسد على الخيل، فَجَلَتْ قُدَّامه جافلةً ودخل في الرجالة، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه، فوثب الكلب على ظهر الأسد فنفر عن الرجل وعاد إلى الأجمة. وخرج الرجل إلى بين يدي والدي رحمه الله يضحك وقال: يا مولاي، وحياتك ما جرحني ولا آذاني. وقتلوا الأسد. ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه إلا انقطع قلبه. فكنت أعجب من إقدام ذلك الكلب على الأسد وكل الحيوان ينفر من الأسد ويتجنبه.

ـ ١٠١ ـ

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل إلى بعض دورنا فترى السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات وما رأت الأسد قط. وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن إلى سفح الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من

(٢٩٣) هكذا في المخطوطة، وقرأه فليب حتي: للمعتُد (ص ١٠٧) وقرأه درسبورغ «المفضد» والإشارة هنا إلى شيخ الجبل الباطني من الحشاشين الذي كان مقره في حصن مصياف (ياقوت ٥/١٤٤)، وانظر كتاب: العدوان الصليبي على بلاد الشام، تحرير نسيم يوسف (بيروت ١٩٨١) ٢٣٣ وما بعدها.

Marfat.com

الطير. وإذا رأت القيقان[٢٩٤] اللحم نزلت إليه ثم إذا دنت منه صاحت وطارت. وما أشبه هيبة الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير فإن العقاب يبصره الفروج، الذي ما رأى العقاب قط، فيصيح وينهزم، هيبة ألقاها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا إخوان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة يترددان من شيزر إلى اللاذقية ـ واللاذقية لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر وفيها أخوه عز الدين أبو العساكر سلطان رحمهما الله ـ بالكتب بينهما. قالا: خرجنا من اللاذقية [٣٤ أ] فأشرفنا من عقبة المندة وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من الوطاء فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد، فرأينا رجلاً قد أقبل فصحنا عليه ولوحنا بثيابنا إليه نُحذِّره من الأسد فما سمعنا. وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى، فرآه الأسد فوثب إليه، فضربه بما أخطأ قلبه فقتله، ومشى إليه فتمم قتله، وأخذ نشابته وجاء إلى ذلك النهر فنزع زربوله[٢٩٥] وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ثم طلع لبس ثيابه ونحن نراه وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء. ثم لبس فردة زربوله واتكى(*) على جنبه وطَوَّل في الإتكاء فقلنا، والله ما قَصَّر ولكن على من يتيه؟ ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتاً ما ندري ما أصابه. فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد لسعته في أبهامه، فمات لوقته فعجبنا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتلته عقرب مثل الإصبع فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق.

---

(٢٩٤) القيق: طائر مائي طويل العنق، القاق: هو الغراب عند أهل الشام ويجمعونه قيقان (ياقوت ٤/٤٢٣) وانظر الدميري، حياة الحيوان ٢/١٧.

(٢٩٥) الزربول: الحذاء باليونانية، انظر: دوزي ١/٥٨٤ وقال لي الصديق هزاع الشمري أنها مستعملة الآن في مدينة حائل.

(*) هكذا في الأصل: والصواب «اتكأ».

Marfat.com

ـ ١٠٣ ـ

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أُحصيها، وقتلت عدةً منها ما شركني في قتلها أحد سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري. فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ما لم يُجرح فحينئذ هو الأسد وذلك الوقت يُخاف منه. وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع إلى الأجمة التي خرج منها ولو أن النيران في طريقه. وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة فمتى حمل على الخيل ووقفت في طريق رجوعه قبل أن يُجرح فإذا رجع تركته إلى أن يتجاوزني وطعنته قتلته.

ـ ١٠٤ ـ

فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبُعْد وثبتها. وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع. والأسد ما يكون إلا في الغابات والآجام. وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها: معرزف[٢٩٦] من أعمال شيزر فركب إليه عمي عز الدين رحمه الله وأرسل إليَّ فارساً وأنا راكب في شغل لي يقول: الحقني إلى معرزف. فلحقته وجئنا إلى الموضع الذي [٣٤ ب] زعموا أن النمر فيه، فما رأيناه وكان هناك جب فنزلت عن حصاني ومعي قنطارية وجلست على فم الجب وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالمجحر. فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية. فلما علمنا أنه في ذلك الموضع نزل معي بعض أصحابنا وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع ليخرج فإذا خرج طعنه الآخر وكلما أراد الصعود من الجب أوقفته الرمح، حتى قتلناه. وكان خلقة عظيمة إلا أنه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه. وهو دون سائر الحيوان يقفز إلى فوق أربعين ذراعاً.

---

(٢٩٦) معرزف: بليدة تقع إلى الشمال الغربي من حماه

Marfat.com

وقد كان في كنيسة حُناك[٢٩٧] طاقة في ارتفاع أربعين ذراعاً فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب إليها ينام فيها إلى آخر النهار ويثب منها ينزل ويمضي. ومقطع حناك ذلك الوقت فارس إفرنجي يقال له سير آدم من شياطين الإفرنج فأخبروه خبر النمر فقال: إذا رأيتموه أعلموني، فجاء النمر كعادته وثب إلى تلك الطاقة فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء إلى الكنيسة وهي خراب إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى فكان فلاحو حُناك يسمونه: النمر المجاهد.

ومن خواص النمر أنه إذا جُرح الإنسان وبالت عليه فأرة مات. ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر. حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر[٢٩٧أ].

ـ ١٠٥ ـ

والنمر لا يكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم. وقد كنت مرة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل، وهي للإفرنج، فقال لي إفرنجي منهم: تشتري مني فهداً جيداً؟ قلت: نعم، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قَدِّ الكلب. قلت: لا ما يصلح لي، هذا نمر ما هو فهد. فعجبت من أنسه وتصرفه مع الإفرنجي.

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرق والفهد وجهه مدور وعيناه سود. وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمراً وجاء به في عِدل إلى صاحب القدموس[٢٩٨]، وهو لبعض بني محرز وهو يشرب،

---

(٢٩٧) حصن كان بمعرة النعمان، خربة عبدالله بن طاهر في سنة ٢٠٩ هـ (ياقوت ٢/٣٠٨) وقد ورد له ذكر في زبدة الحلب ١/٦٦، ٢/١٠.

(٢٩٧ أ) انظر: كتاب الدلائل للحسن بن البهلول (فرانكفورت ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥) ٣٨٣، فقد ورد هذا القول فيه.

(٢٩٨) حصن قديم غرب مصياف، بينه وبين بانياس إلى الجنوب الغربي من شيزر اشتراه الإسماعيلية الباطنية من صاحبه ابن عمرون في سنة ٥٢٧ هـ (زبدة الحلب ٢/٢٥١ ـ ٥٢، والكامل ١١/٨) وعن الحصن ومن تملكه في سنة ٥٢٣، انظر الكامل ١٠/٦٥٦، ٦٥٩.

Marfat.com

ففتح العدل فخرج النمر على من في المجلس فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلَّق عليه الباب. وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم إلى أن قتلوه.

وسمعت وما رأيت [٣٥ أ] أن في السباع الببر(٢٩٩). وما كنت أصدق ذلك. فحدثني الشيخ الإمام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد بن ظفر(٣٠٠)، رحمه الله، قال: سافرت إلى المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرَّب الأمور ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث إنما نحن: أنا وهو على نجيبين فقصدنا ماءً في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه. ونزل صاحبي عن جَمَلهِ وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربةً معنا وقال لي: احتفظ برأس النجيب، ومشى إلى الماء، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه. ثم صاح فثارت إليه جُرِّيات(٣٠١) له عدواً لحقوه وما عارضنا ولا آذانا، فشربنا واستقينا ثم مضينا.

هكذا حدثني، رحمه الله، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه.

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم إلى شيزر(٣٠٢) سنة اثنتين وثلاثين

---

(٢٩٩) الببر: هو الفهد المخطط، ذكره القزويني في: عجائب المخلوقات (كوتنكن ١٨٤٩، ١/٣٩١). وقال الدميري في حياة الحيوان ١/١٠٠ - ٢٠١: «ضرب من السباع» ونقل قول الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار أن النمر «على صورة الأسد الكبير يلمع بصفرة وخطوط سود».

(٣٠٠) أورد له ابن خلكان ترجمته وكنَّاه: أبا عبدالله، محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي. ولد في صقلية ونشأ بمكة المكرمة وتوفي بحماة سنة ٥٦٥ هـ [illegible] عباس - محقق الوفيات - مصادر ترجمته ٤/٣٩٥ وانظر [illegible] ٢٠/٥٢٢ - ٥٢٣ مع مصادر ترجمته أيضاً ويكنى بأبي هاشم [illegible]

(٣٠١) في المخطوطة: «مجريات» وهي تصحيف «جريات» جمع تصغير «جرو» وهو ولد الكلب والأسد وجمعه أجرٍ وأجراء وجراء (القاموس المحيط ٤/٣١٢)

(٣٠٢) عن محاصرة الروم لشيزر سنة ٥٣٢ هـ، انظر ابن قاضي شهبة الحوادث الواقعة في المئة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت ١٩٧١، ١٠٨ - ١٠٩، والباهر لابن الأثير ٥٥

Marfat.com

وخمس مئة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل، ويبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة. وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً. ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له: يوسف ابن أبي الغريب، رحمه الله ببيت قوفا[٣٠٣] فهدَّمت عُلَّوها وسفلها بحجر واحد. وكان على برج في دار الأمير قنطارية فيها راية منصوبة وطريق الناس في الحصن من تحتها. فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها، ! وانقلب كسرها الذي فيه السنان تَنَكَّس ووقع إلى الطريق، ورجل من أصحابنا عابر، فوقع السنان من ذلك العُلوِّ وفيه نصفُ القنطارية في ترقوته خرج إلى الأرض وقتله.

وحدثني خطلخ، مملوك لوالدي، رحمه الله، قال: كنا في حصار الروم جلوساً في دهليز الحصن بعُدَدِنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: يا مسلمون الحريم! دخل الروم معنا. فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم. وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم وعدنا فتفرقنا وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا. فوقف وأدار وجهه إلى الحائط يريق الماء، فأعرضت عنه. فسمعت وَجْبَةً[٣٠٤]، فالتفتُّ وإذا الشيخ قد ضربت[٣٠٥] رأسه [٣٥ ب] حجر المنجنيق كسرته وألصقته بالحائط ومُخه قد سال على الحائط فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه، رحمه الله.

وضربت حجر المنجنيق رجلاً من أصحابنا كسرت رجله، فحملوه إلى بين يدي عمِّي وهو جالس في دهليز الحصن، فقال: هاتوا المُجَبِّر، وكان بشيزر رجل صالح يقال له: يحيى، صانع في التجبير. فحضر وجلس يُجَبِّر

---

(٣٠٣) في المخطوطة «بعلب قوف» وهو تصحيف «بيت قوفا»: قرية من قرى دمشق (ياقوت ٤/٤١٣). وذكر ابن شداد مسجداً باسم مسجد بيت قوفا في دمشق في: الأعلاق الخطيرة، تحقيق سامي الدهان ١٦٣.

(٣٠٤) الوجبة: السقطة مع الهدَّة.

(٣٠٥) الحجر: مذكر وقد أنَّثه أسامة في استعماله العامي مراراً.

Marfat.com

رجله وهو في سترة خارج باب الحصن فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته. فدخل المُجَبِّر إلى الدهليز فقال عمي: ما أسرع ما جَبَّرته؟! قال: يا مولاي، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير.

ـ ١٠٧ ـ

قصد الفرنج دمشق(٣٠٦):

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الإفرنج، خذلهم الله، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها(٣٠٧). فاجتمع منهم خلق كثير، وسار إليهم صاحب الرها(٣٠٨) وتل باشر(٣٠٩) وصاحب إنطاكية(٣١٠). فنزل صاحب أنطاكية على شيزر في طريقه إلى دمشق وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها واشتروها البرجاسة(٣١١) ووزنوا لهم أثمانها، وما عندهم شك في فتحها وملكها. وكفر طاب إذ ذاك لصاحب أنطاكية فَجَرَّد من عسكره مئة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلَنا ومقابلَ حماة فلما سار إلى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفر طاب وأنفذوا رجلاً من أصحابنا يقال له قُنيب بن مالك، فَجَسَّ لهم كفر طاب في الليل، فوصلها دار بِها(٣١٢) وعاد، وقال: ابشروا بالغنيمة والسلامة. فسار المسلمون إليهم

---

(٣٠٦) ورد هذا العنوان في المخطوطة في الحاشية بخط الناسخ نفسه.

(٣٠٧) انظر هذه حوادث في الكامل ١٠/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦ (حوادث سنة ٥٠٧ هـ) وكان بلدوين الأول ملك القدس على رأس الفرنج. وذكر ابن القلانسي ٢٩٨ «استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق.. وتبايعوا ضياعها وجهاتها».

(٣٠٨) الرها: هي أوديسا وتسمى الآن أورفة (في تركيا).

(٣٠٩) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة تقع بين حلب والرها وكان جوسلين الأول صاحب الرها وتل باشر أثناء هذه المعركة.

(٣١٠) انظر: التاريخ الباهر لابن الأثير ١٨ ـ ١٩).

(٣١١) البرجاسة أو البرجاسية: لفظ فرنسي Bourgeoisie ويستعمل في اللغات الأوروبية بمعنى صغار التجار والفعلة والصناع أو الطبقة الوسطى بالمفهوم الخاص. انظر لتفصيل الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية (الرياض ١٤٠٣ هـ) ٧٤ عن أصل اللفظة

(٣١٢) يعني: فوصل إليها ودار حول سورها ثم عاد

Marfat.com

فالتقوا على مثكير[٣١٣]، فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم. وكان قنيب الذي جَسَّ لهم كفر طاب قد رأى في خندقها دواباً كثيرة، فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده. فمضى يركض إلى الخندق فرمى عليه رجل من الإفرنج من الحصن حجراً فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها. فكانت إذا ندبت على ابنها قنيب يتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها. فإذا فرغت من ندبها [٣٦ أ] عليه وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلدتين ما فيهما قطرة لبن. فسبحان من أشرب القلوب الحنَّة على الأولاد.

ولما قيل لصاحب أنطاكية وهو على دمشق: قد قتل المسلمون أصحابك، قال: ما هو صحيح، قد تركت بكفر طاب مئة فارس تلتقي المسلمين كلَّهم.

وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نُصِروا على الإفرنج وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دَوابِّهم. فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذَلَّه ـ والحمد لله رب العالمين.

ـ ١٠٨ ـ

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بالإفرنج أنه كان في عسكر حماة إخوان أكراد اسم الواحد بدر واسم الآخر عَنَّاز. وكان هذا عناز ضعيف النظر، فلما كُسِر الإفرنج وقُتِلوا قَطَعوا رؤوسهم وشدُّوها في سموط خيلهم. وقطع عَنَّاز رأساً [وشدَّه][٣١٤] في سموطه. فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا له: يا عناز، أي شيء هذا الرأس معك؟ قال: سبحان الله! لما جرى بيني

(٣١٣) انظر حاشية (١٢١) والظاهر أنَّه موضع قريب من كفر طاب.
(٣١٤) زيادة يقتضيها سياق الكلام.

Marfat.com

وبينه حتى قتلته. قالوا له: يا رجل!! هذا رأس أخيك بدر، فنظره وتأمله فإذا هو رأس أخيه، فاستحى من الناس وخرج من حماة، فما ندري أين قصد ولا عُدنا سمعنا له خبراً. وكان أخوه بدر قتل في تلك الوقعة قتله الإفرنج، خذلهم الله تعالى.

ـ ١٠٩ ـ

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ، رحمه الله، ضرب السيوف الماضية. فمن ذلك أن رجلاً من أصحابنا يقال له: همام الحاج، التقى هو ورجل من الإسماعيلية(٣١٥) لما عَمِلوا على حصن شيزر في رواقٍ في دار عمي، رحمه الله، وفي يد الإسماعيلي سكين والحاج في يده سيف. فهجم عليه الباطني بالسكين، فضربه همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض فانبسط عليها وتطاير. فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في بطنه لِما لحِقَه من نظر ذلك المخ، من العتبان. ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي. فهجم عليّ بالسيخ فضربته في وسط ساعده والسيخ في يده قبضته ونصله لاصق بساعده فقطع قَدَّ أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه فأبانه وبقي أثر ثلْم السيخ في حد السيف. فرآه صانع عندنا فقال: أنا أخرج هذا الثلم منه. قلت: دَعْهُ كما هو، فهو أحسن ما فيه. وهو إلى الآن إذا رآه الإنسان علم أنه أثر سكين [٣٦ ب].

ـ ١١٠ ـ

ولهذا السيف خبرانا ذاكره:

كان للوالد رحمه الله ركابي يقال له جامع. فأغار الفرنج علينا، فلبس

(٣١٥) انظر الكامل ١٠/٤٧٢، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (بيروت ١٩٠٨) ١٩٠، سير أعلام النبلاء ١٩/٤٠٨.

Marfat.com

الوالد كزاغنده وخرج من داره ليركب فما وجد حصانه فوقف ساعةً ينتظره. فوصل جامع الركابي بالحصان وقد أبطأ، فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غِمْدِه مُتَقلدٌ به فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا[٣١٦] كان على الركابي وصوفيةً وعظمَ مرفقه، فرُمِيَتْ يده. فكان رحمه الله، يقوم به وبأولاده بعده، لتلك الضربة. وكان السيف يسمى الجامعي باسم ذلك الركابي.

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمرون[٣١٧] صاحب حصن أبو قبيس[٣١٨] صعدوا إليه إلى الحصن وهو نائم أوثقوه بالجراح وما معه في الحصن غير ابنه. ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمراً عظيماً، فقام من فراشه عُريان وسيفه معلق في البيت معه، فأخذه وخرج إليهم، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم فضربه افتخار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفاً من أن يصل إليه بسكين كانت في يده. ثم التفت إليه فوجده مُلقىً قد قتله بتلك الضربة. وصار إلى الآخر ضربه قتله، وانهزم الاثنان الباقيان، فرميا أنفسهما من الحصن. فمات أحدهما ونجا الآخر. وأتانا الخبر إلى شيزر فنفذنا من هنأه بالسلامة، وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته فإنَّ أخته كانت عند عمِّي عز الدين وله منها أولاد. فحدَّثنا حديثه وكيف كان أمره، ثم قال: متن كتفي يَحُكُّني وما أصلُ إليه، ودعا غلاماً له ليُبصِرَ ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه؟ فنظر فإذا هو

---

(٣١٦) البشت: العباءة الواسعة (معجز الألفاظ الفارسية ٢٣).

(٣١٧) انظر حاشية (٢٩٨) وذكر ابن العديم: إنَّ الفرنج أسروا صاحب الكهف ابن عمرون وكان قد سلمها إلى الباطنية (زبدة الحلب ٢/٢٧١).

(٣١٨) أبو قبيس: حصن مقابل شيزر (ياقوت ١/٨١) وورد ذكره في (زبدة الحلب ٢/٢٦٨) وفي تواريخ العصر له ذكر كثير.

Marfat.com

جرح وفيه رأس دشن[٣١٩] قد انكسر في ظهره، وما معه منه علم ولا أحس به فلما قاح حَكَّه.

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلا يقدر يخلص رجله من يده. ويأخذ المسمار البيطاري بين أصابعه وينفذه في دَفِّ خشب البَلُّوط. وكان أكلُه مثلَ قُوَّته لا بل أعظمَ.

ـ ١١٢ ـ

قد ذكرت شيئاً من أفعال الرجال وسأذكُرُ شيئاً من أفعال النِساءِ بعد بِساطٍ أُقدِّمُه.

ـ ١١٣ ـ

وذلك أن أنطاكية كانت لشيطانٍ من الإفرنج يقال له: روجار[٣٢٠]. فمضى يَحُجُّ إلى بيت المقدس وصاحبُ البيت المُقدَّس بغْدوين الرُوَيِّس[٣٢١] وهو رجلٌ شيخٌ وروجارُ شابٌ فقال لبغدوين: اجعل بيني وبينك شرطاً [٣٧ أ] إنْ مُتَّ قبلَك كانت أنطاكية لك، وإنْ متَّ قبْلي كان البيتُ المقدَّس لي. فتعاقدا وتواثقا على ذلك.

وقدَّرَ الله تعالى أنَّ نجم الدين إيلغازي بن أرتُق[٣٢٢]، رحمه الله، لقي

---

(٣١٩) الدشن: الخنجر أو المدية.

(٣٢٠) هو روجر Roger ويسميه ابن العديم: سيرجال (زبدة ٢/١٨٧ ـ ١٨٩)، وفي (الكامل ١٠/٥٥٥) قال: «وأما سيرجال صاحب أنطاكية فإنه قتل وحمل رأسه، وكانت [illegible] منتصف شهر ربيع الأول». وقال ابن العديم: «وقتل سرجال في الحرب [illegible] يوم السبت وقت الظهر...». ويسمى أيضاً: روجار وروجيل وهو [illegible] ويسميه ابن القلانسي «روجير» (الذيل ٢٠١).

(٣٢١) بغدوين الرويس: هو بولدوين أو بودوين الثاني Boudouin II [illegible] انظر ابن القلانسي (تحقيق أمدروز) (فهرس الأعلام).

(٣٢٢) صاحب ماردين ـ ملك حلب سنة ٥١١ هو واقع الفتح سنة ٥١٣، وقطعه السلطان محمود السلجوقي ميافارقين وكانت مع الأمير سكمان صاحب حلاط (الكامل ١٠ ٥٩٢)، وانظر حاشية: ١٠٩ و١١٤ و٢٤٥.

Marfat.com

روجار بدانيت[٣٢٣] يوم الخميس خامس جُمادي الأولى سنةَ ثلاث عشرةَ وخمسِ مئةٍ فقتله وقتل جميع عسكره، ولم يدخل أنطاكية منهم إلاَّ دون العشرين رجلاً. وسار بغدوين إلى أنطاكية فَتَسلَّمها[٣٢٤].

وضرب مع نجم الدين مَصافّاً بعد أربعين يوماً. وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يَخْمُر عشرين يوماً[٣٢٥]، فشرب بعد كَسْرِ الإفرنج وقَتْلِهم ودخل في الخُمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين الرُويِّس إلى أنطاكية بعسكره[٣٢٦].

— ١١٤ —

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء: كسر بعض الفرنج بعض المسلمين وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة. وأسر المسلمون روبرت[٣٢٧] صاحب صهيون وبلاطنس[٣٢٨] وتلك الناحية، وكان صديقاً لأتابك طغدكين صاحب دمشق ذلك الوقت وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالإفرنج في أفامية،حين وصلت عساكر الشرق مع برسق بن برسق. فقال هذا روبرت الأبرص لأتابك طغدكين: ما أدري

---

(٣٢٣) الظاهر أن روجر قتل في وقعة تل عفرين، كما في تاريخ ابن العديم والكامل أما ابن القلانسى (ذيل ٢٠١) فيقول: في الموضع المعروف بسرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب». وقد ذكر أسامة فيما سبق (صفحة ٦٢، حكاية ٢٨) إن الوقعة كانت على البلاط.

(٣٢٤) انظر «زبدة الحلب ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١ قال: «وبادر بغدوين فدخل أنطاكية وسلمت إليه أخته زوجة سرجال خزائنه وأمواله».

(٣٢٥) ذكر ابن القلانسي عادة إيلغازي هذه إذ تسببت في أسره (ص ١٩١) سنة ٥٠٨ هـ.

(٣٢٦) أشار ابن العديم إلى ذلك فقال: «ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه» (٢/ ١٩١).

(٣٢٧) هو الكونت روبير الأبرص Robert صاحب زردنا ويسميه ابن العديم «روبارد» (زبدة الحلب ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٣٢٨) صهيون: حصن بين اللاذقية وحماة، من أعمال حمص (ياقوت ٣/ ٤٣٦).
وبلاطنس: حصن منيع مقابل اللاذقية (ياقوت ١/ ٤٧٨).

Marfat.com

بأي شيء أُضيِّفُك؟ ولكن قد أَبحتُك بلادي، أنفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه. بلى! لا يسبوا ولا يقتلوا الدواب، والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحاً لهم. فلما أُسِر روبرت وأتابك طغدكين حاضرٌ المصاف في معونة إيلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار. فقال إيلغازي: امضوا به إلى أتابك لعله يُفزِعُه فيزيدنا في القطيعة. فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مقبلاً قام شمر أذيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبته. فنفذ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال: نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نَفَّذته إليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة، قتلته؟ قال: إنا ما أحسن أُفزِع إلا كذا[٣٢٩].

ـ ١١٥ ـ

ثم ملك بغدوين الرُويِّس أنطاكية. وكان لأبي وعمي، رحمهما الله عليه جميل كبير حيث كان أَسَره نور الدولة بَلك[٣٣٠]، رحمه الله، وصار بعد قتل بَلك إلى حسام الدين نمرتاش بن إيلغازي فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي، رحمهما الله، بيعه فأحسَنَّا إليه، فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطيعةٌ سامحنا بها، وصار أمُرنا في أنطاكية نافذاً.

ـ ١١٦ ـ

فهو فيما هو فيه وعنده رسول [٣٧ ب] من أصحابنا، إذ وصل مركب إلى السويدية[٣٣١] فيه صبي عليه أخلاق. فحضر عنده وعرفه أنه ار

---

(٣٢٩) انظر: زبدة الحلب ٢/١٩٣.

(٣٣٠) نور الدولة بلك: هو بلك بن بهرام بن أرتق وهو ابن أخي إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين قتل سنة ٥١٨ هـ وهو محاصر منبج (ابن الأثير، الكامل ١٠/٦١٩، ١١/١١٠ عن هذه الحوادث انظر: زبدة الحلب ٢/٢٢٢

(٣٣١) السويدية: هي في الأصل سلوكية سميت بالسويدية لعلة اسم النهر والحمل عليه والحمل

Marfat.com

ميمون(٣٣٢). فسلم أنطاكية إليه وخرج منها ضرب خِيمَه في ظاهرها. فحلف لنا رسولنا، الذي كان عنده، أنه ـ يعني الملك بغدوين ـ اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق، وأهراء أنطاكية مَلأى من الغلة ورجع بغدوين إلى القدس.

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون بلية عظيمة فنزل علينا يوماً من الأيام بعسكره فضرب خيامه ونحن قد ركبنا مقابلهم فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم. ونحن ركاب على شرف نبصرهم، وبيننا وبينهم العاصي. فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد، رحمه الله يسير إلى العاصي فظنناه يسقي فرسه، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للإفرنج واقف بالقرب من خيامهم. فلما دنا منهم نزل إليه فارس واحد، فحمل كلٌ واحد منهما على صاحبه وزاغ كلُّ واحدٍ منهما عن طعنة الآخر. فَتَسرَّعتُ أنا وأمثالي من الشباب ذلك الوقت إليهما. ونزل ذلك الموكب وركب ابن ميمون وعسكره وجاؤوا كالسيل وصاحبنا قد طُعِنَتْ فرسُه فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم، وفي أجنادنا رجل كردي، يقال له: ميكائيل، قد جاء في أوائل خيلهم منهزماً وخلفه فارس إفرنجي قد لَزَّه وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عالٍ. فلقيته فمال عن ذلك الفارس الكردي وزَلَّ عن طريقي وقصد خيلاً لنا في جماعةٍ على الماء واقفين مما يلينا وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه فلا يلحقه ولا الإفرنجي يلتفت إليَّ إلا يريد تلك الخيل المجتمعة إلى أن وصل إلى خيلنا وأنا تابعه فطعن

= المذكور هو قرة طاغ: أي الجبل الأسود. وهي ميناء على البحر الأبيض إلى الجنوب من إسكندرون (زبدة الحلب ٢/١٠١، حاشية).

(٣٣٢) ملك أنطاكية سنة ٥٢٠ هـ وعمره ١٨ سنة وقتل سنة ٥٢٥ هـ. انظر: الكامل لابن الأثير ١٠/٦٦٦.

Marfat.com

أصحابي حصانه طعنةً أوثقته وأصحابه في أثره في جمع مالنا بهم قوة. فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فَرَدَّهم جميعهم وعاد وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون صاحب أنطاكية وهو صبي قد امتلأ قلبه من الرعب. ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة.

كلُّ ذلك وأمةُ عجوز يقال لها: بُريكة، مملوكة لرجل كردي من أصحابنا، يقال له: علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شَرْبة(٣٣٣) تستقي بها وتسقي الناس وأكثرُ أصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الإفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك [٣٨ أ] الشيطانة واقفةٌ لا يَرُوعُها ذلك الأمر العظيم.

وأنا ذاكر شيئاً من أمر هذه بريكة، وإن لم يكن موضعه، لكنَّ الحديث شجون.

كان مولاها علي يَتَديَّن ولا يَشْربُ الخمر. فقال لوالدي يوماً: والله يا أمير ما أستحلُّ آكُلُ من الديوان ولا آكلُ إلاَّ من كسب بُريكة. وهو الجاهل يَظُنُّ أنَّ ذلك السُحْتَ الحَرامَ أحلُّ من الديوان الذي هو مُستأجرٌ به.

وكانت هذه الأمة لها ولد اسمه نصر، رجل كبير، [كان] وكيلا في ضيعةٍ للوالد، رحمه الله، هو ورجل يقال له: بقية بن الأصيفر. حدّثني قال: دخلتُ في الليل إلى البلد أُريدُ الدخول إلى داري في شُغل لي، فلما دنوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصا ما هو ادمي ولا هو وحش فوقفت عنه وتهيَّبته. ثم قلت في نفسي: ما أنا بقية ما هذا الخوف من واحد؟! فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشيت قليلا وأنا أسمع لذلك الشخص زجلاً وصوتاً. فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني

---

(٣٣٣) هي الإناء يشرب فيه ومنه الماء. ذكرها ياقوت أيضاً (معجم البلدان ٢ ٣٩٨).

Marfat.com

فقبضته وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول. قلت: ويحك أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا؟! قالت: أسحر. قلت: قَبَّحكِ اللَّهُ وقَبَّحَ سِحْرَك وصَنْعَتَك من بين الصنائع.

- ١١٩ -

أذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الوقعة التي كانت بيننا وبين الإسماعيلية وإن لم تكن سواء.

لقي في ذلك اليوم مُقدَّم القوم علوانُ بنُ حراز ابنَ عمي سنان الدولة شبيبَ بن حامد بن حميد، رحمه الله، في الحصن، وهو تِربى ولِدَتي، ولِدْتُ أنا وهو في يوم واحدٍ: يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مئة إلا أنه ما باشر الحرب [حتى] ذلك اليوم وأنا كنت قُطبَها فأراد علوان اصطناعه فقال له: ارجع إلى بيتك، احمل منه ما تقدر عليه ورُحْ لا تُقْتَل فالحصنُ قد ملكناه فرجع إلى الدار وقال: من كان له شيء يعطيني إياه ـ يقول ذلك لعَمَّتِه ونساءِ عَمِّهِ ـ. فَكُلٌّ منهم أعطاه شيئاً. فهو في ذلك، وإذا إنسان قد دخل الدار عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس. فلما رآه أيقن بالموت، فوضع الخوذة وإذا هي أمُّ ابن عَمِّه ليث الدولة يحيى، رحمه الله. فقالت: أي شيء تريد تعمل؟ قال: آخُذُ ما قدرت عليه وانزل من الحصن بحبلٍ واعيش في الدنيا. قالت: بئس ما تفعل، تُخَلِّي بنات عمِّك وأهلك للحلاجين[٣٣٤] وتروح؟ أي عيش يكون [٣٨ ب] عيشُك إذا افْتَضَحَتَ في أهلك وانهزمت عنهم؟ أُخرُجْ قاتِلْ عن أهلك حتى

(٣٣٤) يروي الذهبي «كانت طائفة من الإسماعيلية قد سكنت شيزر يحلجون القطن فوثبوا على القلعة فملكوها..» (دول الإسلام ٢/٣١ وابن الوردي ٢/١٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٢٩ وسير أعلام النبلاء ١٩/٤٠٨).

Marfat.com

تُقْتَلَ بينهم، فعل الله بك وفعل[٣٣٥]. ومنعته، رحمها الله، من الهرب. وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك.

ـ ١٢٠ ـ

وفي ذلك اليوم فَرَّقت والدتي، رحمها الله، سيوفي وكزاغنداتي، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت: البسي خُفَّك وإزارَك، فلبست وأخذتها إلى روشن[٣٣٦] في داري يشرف على الوادي من الشرق، أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن. ونصرنا الله سبحانه عليهم، وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي، ما وجدت إلا جهازات السيوف وعِيَب الكزاغندات. قلت: يا أمي، أين سلاحي؟ قالت: يا بني أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا، وما ظننتك سالماً. قلت: فأختي أيُّ شيءٍ تعملُ هاهنا؟ قالت: يا بني، أجلستُها على الروشن وجلست بَرًّا منها، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي، فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة. فشكرتها على ذلك وشكرتُ الأختَ وجزيتهما خيراً. فهذه النخوة أشدُّ من نخوات الرجال[٣٣٧].

ـ ١٢١ ـ

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدِّي الأمير أبي الحسن علي، رحمه الله، يقال لها: فنون. فأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم.

وما يُنْكَر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي.

---

(٣٣٥) انظر حاشية (٣١٥) وقد ذكر أسامة وقعة الإسماعيلية وحوادثها مفرقة في الكتاب. وانظر صفحة ١٨ من هذا الكتاب: حاشية (١).

(٣٣٦) الروشن والروشان واحد وهو الكوّة أو النافذة دون عائق.

(٣٣٧) جرت هذه الحوادث في سنة ٥٠٢ هـ (انظر الكامل ١٠/٤٧٢)، وبذكر أسامة أنها جرت سنة ٥٠٧ هـ وهي الأصح.

Marfat.com

ولقد خرجت يوماً من الأيام مع الوالد، رحمه الله، إلى الصيد وكان مشغوفاً بالصيد، عنده من البزاة والشـواهين والصقور والفهـود والكلاب الزغاويَّة(٣٣٨) ما لا يكاد يجتمع عند غيره، ويركب في أربعين فارساً من أولاده ومماليكه، كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص. وله بشيزر متصيدان: يوماً يركب إلى غربي البلد إلى أزوار وانهار فيتصيد الدراج وطير الماء والأرانب والغزلان ويقتل الخنازير، ويوماً يركب إلى الجبل قِبليِّ البلد يتصيد الحجل والأرانب. فنحن في الجبل يوماً وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نُصَلِّي فُرادى، وإذا غلام قد جاء يركض قال: هذا الأسد!! فَسَلَّمت قبل الوالد، رحمه الله، لكيلا يمنعني من قتال الأسد. وركبت ومعي رمحي. فحملت عليه فاستقبلني وهَدَرَ فحاصَ بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطاً جيداً. ثم رجع إلى سفح الجبل ووقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة، جائع. وكلَّما دنونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد إلى مكانه. وما ينزل نزلةً إلا يُؤثِّر [٣٩ أ] في أصحابنا.

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له: بستكين غرزة(*) على وركي حصانه وخَرَّق بمخالبه ثيابه وراناته وعاد إلى الجبل. فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل، ثم حدرت حصاني عليه فطعنته نفذت الرمح فيه وتركته في جانبه، فتقلب إلى أسفل الجبل والرمح فيه. فمات الأسد وانكسر الرمح والوالد رحمه الله واقف يرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري وهم صبْيان.

وحملنا الأسد ودخلنا البلد العِشاء وإذا جَدَّتي لأبي، رحمهما الله، قد جاءتني في الليل، وبين يديها شمعة ـ وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر

---

(٣٣٨) نسبة إلى زغاوة وهم جنس من السودان ما زالوا حتى اليوم مشهورين بكلابهم الزغاوية، كما أخبرني بعض الأخوة السودانيين وهو علاء الدين أغا.

(*) في الأصل خلو من النقاط ولعلها كانت «عزره» أو: «غرز براثنه على وركي».

Marfat.com

مئة سنة ـ فما شككت أنها قد جاءت تُهنِّئُني بالسلامة وتُعَزِّفُني مَسَرَّتها بي بما فعلت. فلقيتها وقبلت يدها، فقالت لي بغيظ وغضب: يا بني، أيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً؟(٣٣٩) قلت: يا ستي، إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرَّب إلى قلب عمِّي. قالت: لا والله ما يُقَرِّبك هذا منه وإنه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً. فعلمت أنها، رحمها الله، نصحتني في قولها وصدقتني. ولعمري إنهنَّ أمهات الرجال.

ولقد كانت هذه العجوز، رحمها الله، من صالحي المسلمين من الدين والصدقة والصوم والصلاة على أجمل طريقة. ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي وكان رحمه الله من أحسن من يتلو كتاب الله تعالى ووالدته تصلي بصلاته. فأشفق عليها فقال: يا أمي، لو جلست صليت من قعود، قالت: يا بني بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلةٍ مثل هذه الليلة؟ لا، والله ما أجلس!! وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المئة سنة رحمها الله.

ـ ١٢٣ ـ

وشاهدت من نخوات النساء عجباً. وهو أن رجلاً من أصحاب خلف ابن ملاعب(٣٤٠) يقال له: علي عبد ابن أبي الريداء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة. فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل.

---

(٣٣٩) انظر الباهر لابن الأثير ١١٠ ـ ١١١، ١١٢ والكامل ١١ ٢١٩ ـ ٢٢٠. ... ـ ... ١١٢/١.

(٣٤٠) خلف بن ملاعب الكلابي، كان متغلباً على حمص وكان جباه يقطعون الطريق وتخشى الحرامية عنده. فأخذها منه تتش بن ألب أرسلان واستولى ابن ملاعب على حمص ثانية بمساعدة الفاطميين وأقام به يخيف السبيل ويقطع الطريق انظر الكامل ١٠/٤٠٤ ـ ٤١٠) وانظر حاشية: ٢٦١

Marfat.com

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له: سالم العجازي، انتقل إلى خدمة والدي بعد ما قُتل خلف بن ملاعب، قال: نهضنا يوماً وأَرسلنا عليّاً عبد ابن أبي الريداء بكرة [٣٩ ب] يديدب[٣٤١] لنا. فجاءنا وقال: ابشروا بالغنيمة هذه قافلة كبيرة مقبلة. فنظرنا ما رأينا شيئاً، فقلنا: ما نرى قافلةً ولا غيرَها. قال: والله إني لأرى القافلة وقدَّامها فرسان مُعَيَّنان[٣٤٢] ينفضان معارفهما. فأقمنا في الكمين إلى العصر، فوصلتنا القافلة والفَرَسان المُعَيَّنان قُدَّامها فخرجنا أخذنا القافلة.

وحدثني سالم العجازي قال: نهضنا يوماً، وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يديدب لنا، فنام وما درى إلا وقد أخذه تركي من سرية أتراك ناهضة وقالوا: أيُّ شيء أنت؟ قال: أنا رجل صعلوك قد أكريت جملي لرجل من التجار في القافلة، اعطِني يَدَك إنَّك تُعطيني جَمَلي حتى أدلَّكم على القافلة. فأعطاه مقدَّمُهم يَدَه، فمشى بين أيديهم إلى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين، فخرجنا عليهم أخذناهم. وتَعَلَّق هو بالذي كان بين يديه أخذ فرسه وعدته، وغنمنا منهم غنيمة حسنة.

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي [عبد] ابن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الإفرنجي[٣٤٣] صاحب كفر طاب. فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين. وله امرأة معه بكفر طاب تحت يَدَّي الإفرنج تُنْكِر عليه فِعْلَه وتَنْهاهُ فلا يَنْتَهي. فَنَفَّذت أحضرت نسيباً لها من بعض الضياع، وأظنه أخاها، وأخفته في البيت إلى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها عليّ عبد ابن أبي الريداء قتلاه، واحتملا بجميع مالها وأصبحت عندنا بشيزر وقالت: غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر. فأراحت الناس من هذا الشيطان. ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام.

---

(٣٤١) أي: يتجسس لنا والفعل من الديدبان وهو الذي ينذر بالخطر.

(٣٤٢) فرس بين عينيه سواد (القاموس ٤/٢٥٠).

(٣٤٣) ورد اسمه في الحكاية (٦٤).

Marfat.com

ـ ١٢٤ ـ

وكان في أمراء مصر رجل يقال له: ندى الصليحي في وجهه ضربتان: الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه، والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه فسألته عنهما فقال: كنت أنهض وأنا شاب من عسقلان، وأنا راجل. فنهضت يوماً إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الإفرنج. فصادفنا قوماً منهم، فلقيت رجلاً معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء. فَطَعنَي الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته. فمشت إليَّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر [٤٠ أ] فوسما وجهي.

ـ ١٢٥ ـ

ومن إقدام النساء أن جماعة من الإفرنج الحجاج حجوا وعادوا إلى رفنية، وكانت ذلك الوقت لهم، وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل وجاؤوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور. فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مئة ثمان مئة رجال ونساء وصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمّي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع، رحمهما الله، ليلقيا عروسين قد تزوجاهما، من بني الصوفي[٣٤٤] الحلبيين، أخوات. ووالدي، رحمه الله، في الحصن. فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى إفرنجياً، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله، ووقع الصياح في البلد. وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والقضّة[٣٤٥] والبهائم.

---

(٣٤٤) بنو الصوفي: رؤساء دمشق أيام مجير الدين أتق بن محمد بن [illegible] وفي بعضهم الوزارة وتدبير الحكم، فمنهم مؤيد الدولة ابن الصوفي [illegible] وأخبارهم متناثرة في تواريخ العصر، وانظر: شذرات الذهب ٤ ١٥٤، ٢١١ ـ ٢١٢، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/٣٧١، النجوم الزاهرة ٥/٣٨١، وانظر أيضاً فهرس أعلام ذيل القلانسي.

(٣٤٥) القضة: السلاح.

Marfat.com

وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها: نضرة بنت بوزرماط خرجت مع الناس أخذت إفرنجياً أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت خرجت أخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج، فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دَعَتْ قوماً من جيرانها قتلوهم.

ووصل عمايٌ والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد، فصارت الخيل تعثر في الليل في القتلى، ولا يدرون بماذا تعثر حتى تَرَجَّل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام فهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس.

ـ ١٢٦ ـ

وكانت غنيمة ساقها الله عزّ وجلّ إلى الناس. فصار إلى دار والدي، رحمه الله، عدة من الجواري من سبيهم. وهم، لعنهم الله، جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره: ادخلي هذه الحمام، وأصلحي كسوتها واعملي شغلها للسفر، ففعلت وسلمها إلى بعض خُدَّامه وسيرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، وكان صديقه، وكتب إليه يقول: غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهماً منه. فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه، فولدت له ولداً سَمَّاه [٤٠ ب] بدران فجعله أبوه وليَّ عهده. وكبر ومات والده، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية. فواعدت قوماً وتدلت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك إلى سروج[٣٤٦]، وهي إذ ذاك للإفرنج فتزوجت بإفرنجي إسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر.

---

(٣٤٦) سروج: بلدة قريبة من حرَّان من ديار مضر (ياقوت ٣/٢١٦) تقع إلى الشمال الغربي من منبج، وانظر حاشية رقم ٦٨.

Marfat.com

وكان في أولئك الذين صاروا إلى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت لها امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مُشْتَدّ. فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يرى من صلاته وصومه. وتعلم الترخيم[٣٤٧] من مُرَخِّم كان يرخم دار والدي. فلما طال مقامه زوجه الوالد بامرأة من قوم صالحين وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته. فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين. والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما، فأخذهما وأمهما وما في بيته وأصبح بأفامية عند الإفرنج وتَنَصَّر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين. فالله تعالى يُطَهِّر الدنيا منهم.

سبحان الخالق البارىء إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل. وسأذكر شيئاً من أمورهم وعجائب عقولهم.

ن في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فأنس بي وصار ملازمي يدعوني: «أخي» وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: يا أخي، أنا سائر إلى بلادي. وأريدك تُنفِّذ معي ابنك[٣٤٨] ـ وكان ابني معي وهو ابن أربع عشرة سنة ـ إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل فإن ابني لو أُسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج فقلت وحياتك هذا الذي كان في نفسي، لكن منعني من ذلك أن حدثته نفسه وما

---

(٣٤٧) أي: صنعة الرخام وصقله.

(٣٤٨) الإشارة إلى ولده مرهف.

Marfat.com

تَرَكَتْهُ يخرج معي حتى استحلفتني أن أردَّه إليها. قال: وأمك تعيش؟ قلت: نعم. قال: لا تخالفها.

ـ ١٢٩ ـ

ومن عجيب طِبِّهم أن صاحب المنيطرة(٣٤٩) كتب إلى عمِّي يَطْلُبُ منه إنفاذَ طبيب يداوي مرضىً من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد. فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى؟! قال: احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله [٤١ أ] دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لَبْخَةً ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فَحَطَّ ساقَه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربةً واحدة اقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها. فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها. فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظمُ الرأس وحَكَّه بالمِلح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليَّ حاجة؟ قالوا: لا، فجئت وقد تعلمت من طبِّهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبهم خلافَ ذلك. كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد، لعنه الله، من ألعن الإفرنج وأرجسهم. فرمحه حصان في ساقه

---

(٣٤٩) المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس (ياقوت ٥/٢١٧). وهي الآن عند منبع نهر إبراهيم شمال لبنان.

Marfat.com

فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً، والخُراجُ(*) كلَّما خَتَم موضعاً فَتحَ مَوضعاً، وأنا أدعوا بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثلَ الشيطان.

ـ ١٣٠ ـ

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له: أبو الفتح له ولد قد طلع في رقبته خنازير. وكلما خُتِمَ مَوضعٌ فُتح مَوضع. فدخل أنطاكية في شغل له وابنه معه. فرآه رجل إفرنجي فسأله عنه فقال: هو ولدي. قال: تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك، فحلف. فقال: تأخذ له أشناناً غير مطحون تحرقه وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع، ثم خذ الرصاص المحرق رَبِّه بالسمن، ثم داوه به فهو يبرئه. فداواه بذلك فبرأ، وخُتمت تلك الجراح وعاد إلى ما كان عليه من الصحة.

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان [٤١ ب] يشكوه.

ـ ١٣١ ـ

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين.

فمن جفاء أخلاقهم، قبَّحهم الله، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية[٣٥٠] وهم أصدقائي

(*) الخراج وزان غراب بثر والواحدة خراجة.

(٣٥٠) هم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون أنفسهم من الخروج وهم

Marfat.com

يُخْلُون لي ذلك المسجد الصغير أُصلي فيه. فدخلته يوماً فَكَبَّرت ووقفت في الصلاة. فهجم على واحدٌ من الإفرنج مسَكني وردَّ وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صَلِّ. فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم على ذلك بعينه وردَّ وجهي إلى الشرق وقال: كذا صَلِّ. فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إليّ وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام وما رأى من يصلي إلى غير الشرق. فقلت: حسبي من الصلاة! فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتَغْييرِ وجهِهِ ورِعدَتِه وما لَحِقَهُ من نظر الصلاة إلى القبلة.

ـ ١٣٢ ـ

ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين[٣٥١]، رحمه الله، وهو في الصخرة فقال: تريد تبصر الله صغيراً؟ قال: نعم! فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح، عليه السلام، صغيرٌ في حُجرِها. فقال: هذا الله صغير ـ تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيراً.

ـ ١٣٣ ـ

وليس عندهم شيء من النخوة والغَيرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.

ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له: مُعِزّ، داره عمارة المسلمين، لها طاقات تفتح إلى الطريق،

= ولهم أموال وسلاح، ويتعانون القوة ويعالجون السلاح ولا طاعة عليهم لأحد». (ياقوت ٢/٢٦٤) (وفيات الأعيان ٣/٤١٨) قال ابن خلكان «مثل صبيان الحجر».

(٣٥١) معين الدين أنر.

Marfat.com

ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذه في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول: فلان التاجر قد فتح بَتِّيَّة[٣٥٢] من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟ قال: كنت تعبان دخلت أستريح. قال: فكيف دخلت إلى فراشي؟ قال: وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه. قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها، كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ [٤٢ أ] قال: وحَقِّ ديني إن عُدتَ فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت. فكان هذا نكيرَه ومبلغَ غَيرته.

ـ ١٣٤ ـ

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حَمَّامي يقال له: سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله. قال: فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم يُنكِرون على من يَشُدُّ في وسطه المئزر في الحمام، فَمَدَّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم! فتقربت منه. فمد يده على عانتي وقال: سالم جيد وحق ديني! اعمل لي كذا، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فَمدَّ يده عليه فاستوطأه فقال: سالم، بحق دينك اعمل للداما ـ والداما بلسانهم الست ـ يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم

---

(٣٥٢) البتّية: البرميل العظيم من الخشب وما زال هذا المعنى مستعملاً في العراق

Marfat.com

الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة.

ـ ١٣٥ ـ

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور، فجلست في خلوة فيها. فقال لي بعض غلماني: في الحمام معنا امرأة. فلما خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم أتحقق أنها امرأة. فقلت لواحد من أصحابي: بالله أبصر هذه إمرأة هي؟ ـ وأنا أقصد أن يسأل عنها ـ فمضى، وأنا أراه، رفع ذيلها وتَطَلَّع فيها. فالتفت إليَّ أبوها، وقال: هذه ابنتي ماتت أمها ومالها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها! قلت: جَيِّدٌ [ما] عملت، هذا لك فيه ثواب.

ـ ١٣٦ ـ

ومن عجيب طبِّهم ما حدثنا به كليام دبور[٣٥٣] صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين، رحمه الله، من عكا إلى طبرية، وأنا معه، فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت. فجئنا إلى قِسٍّ كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تُبْصِرَ الفارس فلاناً؟ قال: نعم، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حَطَّ يده عليه عوفى. فلما رآه قال: أعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل

---

(٣٥٣) كليام دبور هو Guillaum de Bures لعله كليام ابن أخت جوسلين صاحب الرها وسروج الذي أسره بلك بن أرتق سنة ٥١٥ هـ (انظر الكامل ١٠/٥٩٣) وانظر زبدة الحلب ٢/٢٠١، ٢٠٥ في حوادث سنة ٥١٦ هـ، وقد اشترك كليام هذا في الحملة على دمشق في سنة ٥٢٣ هـ ولكن الإفرنج أبيدوا وهرب كليام في فريق من الخيالة (ابن القلانسي ٢٢٦).

Marfat.com

شمع، فَلَيِّنه وعمله مثل عُقَد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس. [٤٢ ب] فقلنا له: قد مات! قال: نعم! كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح.

دع ذا وعد القول في هرم[٣٥٤]

نرجع من حديث مخازيهم إلى سواها:

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها.

وشهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا: هو دَلَّ الحرامية على الضيعة، فهرب. فنفذ الملك فقبض أولاده، فعاد إليه وقال: أنصفني! أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية. فقال الملك لصاحب القرية المقطع: احضر من يبارزه. فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له: تبارز!! إشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع: يمشي ويجلس يطلب ماء يشربه، وذلك الاخر الذي

---

(٣٥٤) البيت لزهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان وهو مشهور.

Marfat.com

طلب البراز شيخ، إلا أنه قَويِّ النفس يرتجز وهو غير محتفل بالمبارزة. فجاء البسكند(٣٥٥)، وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس وجعل الناس حولهم حلقة.

والتقوا فكان الشيخ يَلِزُّ ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول: بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه لضرب المطرقة. وأعيا ذلك الشيخ، فضربه الحداد فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجروه شنقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف. وهذا من جملة فقههم [٤٣ أ] وحكمهم ـ لعنهم الله ـ.

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين(٣٥٦)، رحمه الله، إلى القدس فنزلنا نابلس فخرج إلى عنده رجل أعمى وهو شابٌّ، عليه ملبوس جيد، مسلم وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل. وسألت عنه فَخُبِّرت أن أمَّه كانت مزوجة لرجل إفرنجي فقتلته. وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج: جلبوا بتِّية عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دفَّ خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتِّية ـ فإن كان بريئاً غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء. فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص فما

(٣٥٥) البسكند هو: Viscount.

(٣٥٦) هو الأمير معين الدين أنر صاحب أسامة وصديقه وقد سبق التعريف به. كان أميراً لجيوش دمشق. انظر حاشية ١١.

Marfat.com

قدر فوجب عليه حكمهم لعنهم الله فكحلوه.

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الأمير معين الدين، رحمه الله، ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانه: تمضي به إلى برهان الدين البلخي[٣٥٧]، رحمه الله، تقول له: تأمر من يُقريء هذا القرآن وشيئاً من الفقه. فقال له ذلك الأعمى: النصر والغلب!! ما كان هذا ظني! قال: وما ظننت بي؟ قال: تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارساً. قال: ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان.

— ١٤٠ —

ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا[٣٥٨] وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القربى العهد ببلادهم ولكنهم شاذ لا يقاس عليه.

فمن ذلك أنني نفذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي[٣٥٩] وبيني وبينه صداقة وهو نافذ الحكم في أنطاكية. فقال لصاحبي يوماً: قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجيء معي حتى ترى

---

(٣٥٧) برهان الدين البلخي: هو برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي الحنفي أورد له ابن القلانسي أخباراً وأثنى عليه (ذيل تاريخ دمشق ٣٠١) وذكر محقق ذيل تاريخ دمشق له أخباراً من تواريخ العصر. قال الدواداري «ولاه نور الدين زنكي لتدريس بمدرسة الحلاويين في حلب» (كنز الدر ٦، ٥٤٧) وانظر ابن القلانسي (٣١٥-٣١٦، ٣٢٣) وتوفي سنة ٥٤٧ هـ أو ٥٤٨ هـ على رواية صاحب الروضتين (حـ ١ قسم ٢ ص ٣٨، ٢٠٣، ٢٢٧). وذكره ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة ١/٢٠٠) وقال في حديثه عن المدرسة الصادرية بدمشق: «أول من درس بها الإمام العالم علي بن مكي الحنفي [illegible] إلى أن نزل عنها للشيخ الإمام أبي الحسن علي البلخي المشهور بالعيسوي وأعقبه في حديثه على المدرسة البلخية المنسوبة له (١/٢٠٢) ومسجد حمص (١ ٢١٩) وذكره بدمشق وانظر عنه ما أورده ابن شداد في حديثه عن المدرسة الحلاوية بحلب (١/١١٠-١١١)، وله ترجمة حسنة في سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠ ٢٧٦)

(٣٥٨) يعني أنهم فارقوا جساوة طباعهم لعيشهم في البلدان

(٣٥٩) هو Theodoros Sophianos عند المؤرخين الفرنجة

Marfat.com

زِيَّهم. قال: فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، قد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية ملك يعيش منه. فاحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل فقال: كُلْ طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن، ولا يدخل داري لحم خنزير فأكلت وأنا محترز وانصرفنا.

فأنا بعد مجتاز في السوق، وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع على خلق من الإفرنج فأيقنت بالهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني. فجاء فقال لتلك المرأة: مالك ولهذا المسلم؟ قالت: هذا قتل [٤٣ ب] أخي عرس[٣٦٠]، وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة، فصاح عليها وقال: هذا رجل برجاسي ـ أي تاجر ـ لا يقاتل ولا يحضر القتال. وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى. فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل.

ـ ١٤١ ـ ء

ومن عجائب القلوب أن الإنسان يخوض الغمرات ويركب الأخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك ويخاف مما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان.

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان، رحمه الله، وهو من أشجع أهله، له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها وقام من الموضع الذي يراها فيه.

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والإقدام اسمه صندوق، يفزع من الحية حتى يخرجَ من عقله. فقال له والدي، رحمه الله،

---

(٣٦٠) لعله تحريف: Hurso.

Marfat.com

وهو واقف بين يدي عَمِّي: يا صندوق!! أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية؟! قال: يا مولاي وأيُّ شيءٍ في هذا من العجب؟ في حمص رجل شجاع بطل من الأبطال يفزع من الفأرة ويموت ـ يعني مولاه ـ فقال له عمي، رحمه الله: قبحك الله يا كذا وكذا.

ـ ١٤٢ ـ

ورأيت مملوكاً لوالدي رحمه الله يقال له: لؤلؤ وكان رجلاً جيداً مقداماً، وقد خرجتُ ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشباً قد قطعته هناك لناعورة لي. فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا فوصلنا إلى قرية يقال لها دبيس[٣٦١] وما تنصف الليل فقلت: انزلوا ما ندخل الجبل في الليل. فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان، فقلنا: الإفرنج! فركبنا في الظلام وأنا أُحدِّث نفسي أني أطعن واحداً منهم وآخذ حصانه ويأخذون دوابنا والرجال الذين مع الدواب. فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان: تقدمونا، اكشفوا هذا الصهيل فتقدموا يركضون، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير. فسبق إليهم لؤلؤ وقال: تكلموا وإلا أقتلكم كُلَّكم! وهو رامٍ جَيِّدٌ. فعرفوا صوته وقالوا: حاجب لؤلؤ؟! قال: نعم. وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار[٣٦٢]، رحمه الله قد أغاروا على بلاد الإفرنج وعادوا. فكان هذا إقدامه على ذلك الجمع، وإذا رأى في بيته حيَّةً خرج منهزماً، وقال لامرأته: دونك والحيَّة، فتقوم إليها تقتلها.

---

(٣٦١) في الأصل دنيساً: لعلها تصحيف دبيس التي يُنسب إليها عز الدين أبو [illegible] انظر حاشية (٣٨٧).

أما إذا كانت «دنيسار» فإننا لم نعثر عليها في ما لدينا من معاجم البلدان.

(٣٦٢) الأمير سيف الدين سوار: ذكره القلانسي (٢٢٥) باسم سيف الدولة سوار صاحب عسكر حماة. وناب عن عماد الدين زنكي في حلب (٢٥٢، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٥)، وفي ابن الأثير ٨/١١ «الأمير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب».

Marfat.com

ـ ١٤٣ ـ

والمحارب ولو أنه الأسد، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق كما أصابني على حمص [٤٤ أ] جرحت وقُتل حصاني وضُربت خمسين سيفاً ـ كل ذلك لنفاذ المشية، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام، فإنه عقده في الباشات(٣٦٣) ولم يُسِفَّه(٣٦٤) فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقدته في الباشات، فنالني ما نالني.

ـ ١٤٤ ـ

وقد كان صاح الصائح يوماً بشيزر من القبلة، فلبسنا وفزعنا. فكان الصائح كذاباً، فَتَرجَّل أبي وعمي، رحمهما الله، ووقفت بعدهما. فوقع الصائح من الشمال من جانب الإفرنج، فركضت حصاني إلى الصائح، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضاً وقالوا: الفرنج! فعبرت المخاض وقلت للناس: لا بأس عليكم، أنا دونكم. ثم طلعت أركض إلى رابية القرامطة(*) وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير. وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة وقد دنا مني. فقصدته استفرص بمعده من أصحابه واستقبلني فحين حركت حصاني إليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فيمَّمت إليه بلا ركاب. فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سَلَّم عليَّ وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين إسمعيل بن عمر بن بختيار. وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب فخرج عليهم الإفرنج فعادوا إلى شيزر منهزمين. وتقدمهم الأمير سوار، رحمه الله.

فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه فإن أيسر الأشياء وأقلها يُودي ويُهلك. كل ذلك مقرون بما تجري به الأقدار والأقضية.

---

(٣٦٣) الباشات: جمع باشة وهي الحلقة التي يربط بها العنان.
(٣٦٤) سفّ الخوص: نسجه كأسّفه وهنا بمعنى أنه لم يحكم لفّه وشده في حلقة العنان.
(*) في الأصل: «القرافطة» وانظر: حكاية رقم ٥٦.

Marfat.com

ـ ١٤٥ ـ

وقد شهدت قتال الأُسد في مواقف لا أحصيها، وقتلت عدة منها لم يشركني أحد في قتلها ـ فما نالني من شيء منها أذى.

وخرجت يوماً مع والدي رحمه الله إلى الصيد في جبل قريب من البلد نصيد منه الحجل بالبزاة. ويكون الوالد ونحن معه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبل للتخليص من البزاة والوقوف على النبج. فقامت لنا ضبعة فدخلت مغارة، وفي تلك المغارة مجحر دخلت فيه. فصحت بغلام لي ركابي اسمه يوسف خلع ثيابه وأخذ سكينه ودخل في ذلك المجحر، وأنا في يدي قنطارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنتها. فصاح الغلام إليكم قد خرجت فطعنتها أخطأتها لأن الضبعة دقيقة [٤٤ ب] الحجم. وصاح الغلام: عندي ضبعة أخرى، فخرجت في أثرها. فقمت وقفت في باب المغارة وهي ضيقة الباب مُتَعلِّية قدر قامتين انظر ما يعمل أصحابنا الذين في الوطأ بالضباع التي نزلت إليهم. فخرجت ضبعة ثالثة وأنا مشغول بالنظر إلى الأوائل، فندستني رمتني من باب المغارة إلى القرارة التي تحته فكادت تكسرني. فتأذيت بضبعة وما تأذيت بالسباع فسبحان مقدر الأقدار ومسبب الأسباب.

ـ ١٤٦ ـ

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء. فمن ذلك أنني كنت يوماً على باب دار والدي رحمه الله في صبي عمري دون العشر سنين. فلطم غلام لوالدي اسمه محمد المعجمي صبياً من خدام الدار فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي فلحقه وهو ماسك ثوبي فلطمه. فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني. فجذبت من وسطي سكيناً صغيرة بها فوقعت في بزه الأيسر فوقع. وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له الفائد أسد

Marfat.com

فوقف عليه ونظر الجرح وإذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء. فاصفر وارتعد ووقع مغشياً عليه. فحمل إلى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال. فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار. وقد مات المجروح وقبر.

ـ ١٤٧ ـ

ومما يقارب ذلك: كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ويلعب بها غائباً[٣٦٥] يقال له أبو المرجى سالم بن ثابت رحمه الله. فكان يقيم عندنا السنة والأكثر والأقل. فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد. فإذا حضر الفاصد تغير لونه وارتعد فإذا قصده غشي عليه فلا يزال في غشيته حتى يُشَدَّ فصاده ثم يفيق.

ـ ١٤٨ ـ

ومما يضاد ذلك أنه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له: علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت وتناثرت أصابعه وأنتنت رجله فقال له الجرائحي: ما لرجلك إلا القطع وإلا تلفت، فحصل عنده منشارا وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشي عليه، فإذا هو أفاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه. وداواها فبرأت(*).

وكان رحمه الله من أجلد الرجال وأقواهم. فكان يركب في سرجه بركاب واحد وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبته، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال. وكنت أراه رحمه الله [٤٥ أ] لا يستطيع رجل

---

(٣٦٥) يلعب بالشطرنج طبقة: بمعنى أنه كان حاذقاً ماهراً في اللعب، ويعلب بها غائباً بمعنى: أنه كان يستدبر رقعة الشطرنج ويلاعب أقرانه.
«وقد كان أبو بكر الصولي لفرط اتقانه يلاعب الشطرنج وهو مستدير الرقعة» انظر ما قاله فيه ابن الرومي في (الغيث المنسجم ٢/٥٠ ـ ٥١).
وقال ابن خلكان «وكان سعيد بن جبير يلعب الشطرنج استدباراً» (وفيات ٢/٣٧٤).

(*) برأ كمَنَع وبريء كفَرِح لغتان فصيحتان.

Marfat.com

يشابكه ولا يقابضه. وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته.

فأصبح يوماً من الأيام وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال: اليوم يوم مطير. وعندي فضلة نبيذ ومأكول تتفضلون عليّ بالحضور لنشرب، فاجتمعوا عنده. فجلس في باب البيت وقال: هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ؟ يشير إلى قوته. قالوا: لا! والله. قال: هذا يوم مطير وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه. انفذوا إلى دوركم احضروا طعامكم ونبيذكم والبيت من عندي نجتمع اليوم نشرب ونتحدث. قالوا كلهم: نعم ما رأيت يا أبا الحسن. وانفذوا احضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده، وكان رجلاً محترماً. فتعالى من خلق الخلق أطواراً. أين جَلَدُ هذا وقوة نفسه من خَوَر أولئك وضعف نفوسهم؟.

وقريب من هذا أن رجلاً من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلاً في الحصن استسقى فشق بطنه فبريء وعاد صحيحاً كما كان. فقلت أريد أبصره واستخبره وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة يقال له: أحمد بن معبد بن أحمد. فأحضر ذلك الرجل عندي فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال: أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي وكبرت حتى عجزت عن التصرف، وتبرمت بالحياة. فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي شققته فخرج منه قدر طباختين ماء ـ يعني: قدرين ـ وما زال الماء يسيل منه حتى ضمر جوفي، فخيطته وداويت الجرح فبرأ. فزال ما كان بي وبقي موضع الشق في جوفه أطول من شبر ولا شبهة أن هذا الرجل كان له في الأرض رزق يستوفيه.

وإلا فقد رأيت من استسقى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء

Marfat.com

كما خرج من الذي بزل نفسه إلا أنه مات من ذلك الفصد. لكن الأجل حصن حصين.

ـ ١٥٠ ـ

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير. وقد كنت إذا بعثني عمي رحمه الله لقتال أتراك أو إفرنج أقول له: يا مولاي، أمرني بما أتدبر به إذا [٤٥ ب] لقيت العدو فيقول: يا بني الحرب تدبر نفسها، وصدق.

وكان أمرني أن آخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش(٣٦٦) والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث(٣٦٧) وهو إذ ذاك له وكان يشفق عليهم من حر شيزر. فركبت وركب أبي وعمي، رحمهما الله، معنا إلى بعض الطريق وعادا وليس معهما إلا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح، والعسكر كله معي. فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب. فقالا: شيء قد جرى في الجسر. فدفعا خيلهما تناقلا وخببا إلى الجسر. وكان بيننا وبين الإفرنج لعنهم الله هدنة، فنفذوا من كشف لهم مخاضةً يعبرون منها إلى مدينة الجسر، وهي في جزيرة لا يعبر إليها إلا من جسر معقود بالحجر والكلس لا يصل الإفرنج إليه. فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة. فركبوا جميعهم من أفامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا. ونفذوا بعض

---

(٣٦٦) تاج الدولة تتش: هو تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، له ترجمة وافية في وفيات الأعيان ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧، قتل في الوقعة بينه وبين أخيه بركياروق سنة ٤٨٨ هـ بالقرب من مدينة الري ووردت أخباره في تواريخ العصر مثل ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والكامل لابن الأثير (١٣/ ٦٣ ـ ٦٤ الفهارس).

(٣٦٧) قلعة مشهورة كانت للأمير وثاب بن محمود بن نصر وبها مات ثم ملكها ولده ناصر الدين سابق فباعها لسلطان بن منقذ سنة إحدى وعشرين وخمس مئة ثم استولى عليها الباطنية (الروض الزاهر ١٩٢ ـ ١٩٣).

Marfat.com

السبي والنهب إلى أفامية وملكوا الدور. وعَلَّم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته.

فلما أشرف أبي وعمي، رحمهما الله، على الحصن كَبَّر أهل الحصن وصاحوا، فألقى الله سبحانه على الإفرنج الرعب والخذلان. فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه، ورموا خيلهم وهم بدروعهم عليها، في غير مخاض. فغرق منهم جماعة كثيرة: كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان. ومضى من سلم منهم منهزمين. لا يلوي بعضهم على بعض، وهم في جمع كثير وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان.

فأقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر. وأوصلت أنا أولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء، فأخبرت بما جرى. فحضرت عند والدي، رحمه الله، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر. قال: تصل في الليل وهم نيام ولكن سر إليهم من بكرة. فأصبحت سرت وحضرت عنده. وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الإفرنج. ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتى. فقلت لعمي: يا مولاي، ما نقطع رؤوسهم وننفذها إلى شيزر؟ قال: افعل. فقطعنا منهم نحواً من العشرين رأساً. فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ولهم يوم وليلة. وأظن الماء حفظ فيهم دمهم.

وغنم الناس منهم سلاحاً كثيراً من الزرديات والسيوف والقنطاريات والخوذ والكلسات الزرد(٣٦٨). ورأيت رجلاً من فلاحي الجسر [٤٦ أ] قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه فقال له عمي يمزح معه: أي شيء أعزلت لي من الغنيمة؟ قال: أعزلت لك حصاناً بعدته وزرديته وترساً وسيفاً، وقصبي حضر

(٣٦٨) الكلسات: واحدها كلسة: وهي عظام عظم الساق للفارس وقد كانت لسعة هذه للجورب في بعض البلدان العربية وبخاصة الشام وفلسطين والعراق

Marfat.com

الجميع. فأخذ عمي العدة وأعطاه الحصان وقال: أي شيء بيدك؟ قال: يا مولاي تقابضت أنا والإفرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى أسكرته، وأخذت سيفه قتلته به، وتهرأ الجلد الذي على عُقَدِ أصابعي، وورمت يدي فما تنفعني. وأظهر لنا يده، وهي كما قال، قد انكشفت عظام أصابعه.

ـ ١٥١ ـ

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت اسمها رفول قد سباها الإفرنج وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يومها: سبيت رفول!! فخرجنا من الغد نسير على النهر فرأينا في جانب الماء سواداً فقلنا لبعض الغلمان: اسبح ابصر ما هذا السواد؟!. فمضى إليه فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجي الذي أخذها فغرقت وعلق ثوبها في شجرة صفصاف. فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش فكانت الصيحة التي وقعت في الإفرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عزّ وجلّ لا بقوة ولا بعسكر فتبارك الله القادر على ما يشاء.

ـ ١٥٢ ـ

وقد يكون الترهيب في بعض الأوقات نافعاً في الحرب.

من ذلك أن أتابك[٣٦٩] وصل الشأم وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مئة وسار قاصداً دمشق. فلما نزلنا القطيفة[٣٧٠] قال لي صلاح الدين[٣٧١]

---

(٣٦٩) هو أتابك زنكي بن آق سنقر.

(٣٧٠) القطيفة: قرية في شمال دمشق دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق من ناحية حمص على الطريق إلى تدمر، ذكرها المقدسي في أحسن التقاسيم (تحقيق دي خويه ـ لايدن ١٨٧٧) ١٩٠ وانظر معجم البلدان ٤/٣٧٨.

(٣٧١) هو صلاح الدين الغسياني: توفي في حمص سنة ٥٥٢ حين كان والياً عليها، كان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زنكي وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير وحسن =

Marfat.com

رحمه الله: اركب وتقدمنا إلى الفستقة(٣٧٢) أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر إلى دمشق. فتقدمت وقفت ساعة وإذا صلاح الدين قد أتى في قِلَّةٍ من أصحابه. فرأينا في عذراء(٣٧٣) دخاناً. فأرسل خيلاً تبصر ما هو الدخان. فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء فانهزموا. فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارساً فوصلنا القصير(٣٧٤) وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ونحن عند الخان. فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون إلى خلف الخان نوهمهم أن لنا كميناً.

[٤٦ ب] ونفذ صلاح الدين فارساً إلى أتابك يعرفه بما نحن فيه. فرأينا نحواً من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين والعسكر خلفهم متتابع. فوصلونا وإذا هو أتابك قد تقدم والعسكر في أثره. فأنكر على صلاح الدين فعله وقال: تسرعت إلى باب دمشق بثلاثين فارساً لتكسر ناموسي(٣٧٥) ولامه وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين: عن أمرك آخذ هؤلاء الذين قد وصلوا أو أعبر إلى خيل دمشق الواقفة مقابلنا أقلعهم. قال: لا! كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا! ما تسمع أي شيء قد عمل بي؟.

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا(٣٧٦).

= السفارة وصواب الرأي. وكان قد تولى حماة وكان من قادة عماد الدين زنكي ثم من بعده من أمراء نور الدين محمود ومقدمي جيوشه (الروضتين ١/ ٢٨٦) وانظر حاشيه ٧

(٣٧٢) الفستقة: يقول دوسو (ص ٢٨٠): إنها خان بين عذراء والقطيفة

(٣٧٣) عذراء: قرية بغوطة دمشق واليها ينسب مرج عذراء (ياقوت ٤/ ٩١)

(٣٧٤) القصير: ضيعة وهي أول منزل لمن يريد حمص من دمشق (معجم ٤ ٣٦١)

(٣٧٥) الناموس: بلغة العصر، الهيبة والشرف وما تزال الكلمة مستعملة في ... وقرأ حتى الكلمة «يا موسى» في النص العربي وترجمها كذلك في ترجمته (انظر ١٥١ و ١٨٠ من النص الإنكليزي

(٣٧٦) انظر حصار دمشق في الكامل ١١/ ٢١، وقد حصر أتابك عماد الدين زنكي دمشق بعد مقتل شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن طغدكين الذي دعاه لتسليم دمشق إليه

Marfat.com

ـ ١٥٣ ـ

وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي رحمه الله من شيزر نريد كفر طاب ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على كفر طاب من غلة وقطن. فانتشر الناس في النهب وخيل كفر طاب قد ركبت ووقفت عند البلد ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن. وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال: جاءت خيل أفامية!! فقال عمي: تقف أنت مقابل خيل كفر طاب وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية. فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون والإفرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لا نتزعزع فيرجعوا. فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الإفرنج الذين جاؤوا من أفامية.

فقال له بعض غلمانه: يا مولاي، ترى ما فعل؟! ـ يعنيني ـ تخلف عنك وما سار معك للقاء خيل أفامية؟ فقال له عمي: لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفر طاب وراجلها كانوا أخذوا هذا العالم كله. فكان الترهيب والتخييل للإفرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير.

ـ ١٥٤ ـ

وجرى لي مثل ذلك بدمشق. كنت يوماً مع الأمير معين الدين رحمه الله فاتاه فارس فقال: قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة[٣٧٧] حاملة خاماً فقال لي: نركب إليهم!؟ قلت: الأمر لك! أأمر الشاوشية تستركب العسكر معك.

---

(٣٧٧) العقبة: هي عقبة دُمَّر. (ياقوت ٢/٥٨٧) وانظر دوسو ٢٩١ أيضاً حيث ينقل عن أسامة وياقوت.
والشاووش أو الجاووش وفي مصر الشاويش وكلها بمعنى العريف وجمعه عرفاء وهي لفظة فارسية الأصل.

Marfat.com

قال: أي شيء حاجتنا إلى العسكر؟ قلت: وما يضرنا من ركوبهم؟ قال: ما نحتاجهم. وكان، رحمه الله من أشجع الفرسان ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة.

فركبنا في نحو من عشرين فارساً [٤٧ أ] فلما أن ضحونا نفذ فارسين كذا وفارسين كذا وفارسين كذا وفارساً كذا يكشفون الطرقات. وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر. فقال لغلام لي: يا سونج، أشرف تعرّف إلى ما نصلّي، فما سلمنا إلاّ والغلام يركض، قال: هذه الرجالة وعلى رؤوسهم شقاق الخام في الوادي. فقال معين الدين ـ رحمه الله ـ : اركبوا! قلت: أمهل علينا نلبس كزاغنداتنا، فإذا رأيناهم رميناهم برؤوس الخيل وطعناهم فما يدرون كثير نحن أو قليل. قال: إذا وصلنا إليهم لبسنا.

وركب وسرنا إليهم، فلحقناهم في وادي حلبون(٣٧٨) وهو وادٍ ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع والجبال من جانبيه وعرة رفيعة وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس. وهم في سبعين رجلاً بالقسى والنشاب.

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لا يصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل. فظننت أن الذين في الوادي من أصحابنا فلاحى الضياع قد فزعوا خلفهم والذين في سفح الجبل هم الحرامية. فجذبت سيفي وحملت على الذين في السفح، فما طلع الحصان في ذلك الوعر إلاّ بآخر روحه. فلما صرت إليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوفى واحد منهم نشابته في قوسه ليضربني. فصحت عليه وتهددته فمسك يده عني وعدت أنزلت الحصان وما أصدق أخلص منهم.

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين

---

(٣٧٨) وادي حلبون: الظاهر أنه قريب من دمشق. قشره حتى «من قرى دمشق» وأشار إلى أنه ورد في التوراة (النص العربي لكتاب الاعتبار ص ١٥٣، حاشيه ٤٦) وأفادني أحد الأخوة الدمشقيين أن الوادي يقع إلى الشمال الغربي من تل مسى الذي يقع شمال دمشق، وهو واد ضيق والأخ الدمشقي هو ممدوح حوّام.

Marfat.com

من يستنفرهم. وصاح إليَ من أعلى الجبل: لا تفارقهم حتى أعود، وتوارى عنا. فرجعت إلى الذين في الوادي وقد علمت أنهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ورموا ما كان معهم من الخام. وخلصت منهم بهيمتين كانتا معهم عليهما خام أيضاً. وطلعوا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم ومالنا إليهم سبيل.

وعاد الأمير معين الدين رحمه الله آخر النهار وما وجد من يستنفره ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم.

ـ ١٥٥ ـ

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا. والسبب فيه نفاذ المشيئة ثم قلّة المخبرة بالحرب. وذلك أننا سرنا مع الأمير قطب الدين خسرو بن تليل(٣٧٩) من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله فوصلنا إلى حمص فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له: أنا أتقدم أبصر كنيسة بعلبك(٣٨٠) [٤٧ ب] إلى حين تصل. قال: افعل.

فركبت ومضيت. فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول: قد

---

(٣٧٩) قطب الدين خسرو بن تليل: هو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني صاحب أربل كان أحد المرشحين لتولي الوزارة في مصر بعد موت أسد الدين شيركوه في مصر ثم انضم إلى صلاح الدين فأرسله إلى إنقاذ دمياط من الفرنج.
انظر: التاريخ الباهر لابن الأثير ١٤٩ ـ ١٤٢ ووفيات الأعيان ١٥٣/٧ نقلاً من التاريخ الباهر والكامل في التاريخ ٣٤٣/١١ والروضتين ١٦١/١، ٤٠٦/٢، ٤٥٩.

(٣٨٠) في المخطوطة «بعل» دون إعجام. والظاهر أن الكلمة «بعلبك» والمراد بالكنيسة هنا: آثار بعلبك، فلعل أسامة كان يظنها كنيسة قديمة وهي في الأصل معبد لبعل «صنعوا فيه من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتى حفر مثله في الخشب، مع علو سمكه وعظم حجارته وطول أساطينه» (ياقوت ٤٥٥/١) والظاهر أن أسامة أراد أن يتفرج على آثار بعلبك هذه. وقد أورد المسعودي أن هذه الآثار هي «بيت بعل» عملتها اليونانية لعبادة هذا الصنم (مروج الذهب تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ٢٥٨/١ (القاهرة ١٣٦٧/١٩٤٨).

Marfat.com

خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها. فاركب والقني إلى الجبل، فركبت ولقيته. فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في وادٍ تحتنا والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي فقال له بعض أصحابه: تنزل إليهم؟ قلت: لا تفعل؛ ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم إلى الغرب ونأخذهم ـ وكانوا من بلاد الإفرنج. فقال آخر: إلى ما ندور على الجبل [نكون] قد وصلنا إليهم وأخذناهم. فنزلنا فلما رآنا الحرامية صعدوا في الجبل، فقال لي: اصعد إليهم، فحرصت على الطلوع فما قدرت.

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة. فترجلوا إليهم وجاءوا يقودون خيلهم معهم وأولئك في جماعة. فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين وأخذوا حصانيهما وحصاناً آخر وسلم صاحبه ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة. فهذا تغرير لقلّة المخبرة بالحرب.

فأما التغرير في الأقدام فما هو للزهد في الحياة، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالإقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبته همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه وخافت نفسه الموت وركوب الخطر فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله حتى يضطرها ويحملها على مكروهها فيعتريه الزمع وتغير اللون لذلك فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه.

ولقد حضرت حصار حصن الصوّر[٣٨١] مع ملك الأمراء أتابك زنكي، رحمه الله، ـ وقد تقدم شيء من ذكره[*] ـ وكان للأمير فخر الدين قرا

---

(٣٨١) الصور: قرية على شاطىء الحابور (ياقوت ٣/ ٤٣٤)

ورد ذكرها عند ابن القلانسي فقال في حوادث سنه ٥٢٨ هـ «... ذب لأحد بأن عماد الدين أتابك نزل على القلعة المعروفة بالصور وضايقها وافتتحها في رجب من السنة (ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣)، وانظر: الكامل ١١/ ١٣.

(*) إذا أراد الحصن فإنه لم يرد له ذكر فيما تقدم فلعله ذكره في القسم الضائع

Marfat.com

أرسلان(٣٨٢) بن داود بن سقمان بن أرتق، رحمه الله، وكان مشحوناً بالرجال الجرخية(٣٨٣) وذلك بعد كسرته على آمد. فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلاً من أصحابه صاح تحت الحصن: يا جماعة الجرخية يقول لكم أتابك: «ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لاقطعن أيديكم!! ونصب على الحصن المجانيق فهدمت جانباً منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع إليه الرجال. فجاء رجل من جندارية(٣٨٤) أتابك من أهل حلب يقال له ابن العُرَيق طلع في تلك الثغرة وضاربهم [٤٨ أ] بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج إلى الخندق وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن. وطلع نواب أتابك إليه فأخذ مفاتيحه نفذها إلى حسام الدين تمرتاش(٣٨٥) بن إيلغازي بن أرتق وأعطاه الحصن.

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلاً من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة، فمات.

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعى الجرخية وهم تسعة نفر فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم. فأمر بحزّ أبهاماتهم من زنودهم. فاسترخت أيديهم وتلفت.

---

(٣٨٢) هو ابن داود بن سكمان بن أرتق صاحب آمد، انظر هذه الحوادث في: الكامل ١١/١٣ وذيل تاريخ دمشق ٢٤٣.

(٣٨٣) الجرخية: مأخوذة من «الجرخ» وهو الدولاب من أدوات الحرب التي يرمي بها السهام والحجارة. وهي على ما يظهر دولاب يرمي السهام المركبة على الدولاب متتابعة وذلك بدوران الدولاب، وهي ما يمكن أن يطلق عليها «رشاش السهام».

(٣٨٤) الجندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير ومثلها الخاصكية وهي كلمة فارسية الأصل ومركبة من «جان» بمعنى سلاح أو روح ونفس ومن «دار» بمعنى حافظ أو ممسك. وواجب الجاندار أن يستأذن في دخول الأمراء أو الناس على السلطان أو الأمير. (صبح الأعشى ٤/٢، ٥/٤٥٩، معجم الألفاظ الفارسية المعربة لادي شير ٤٦). وهي بمعنى: حارس ذات الملك.

(٣٨٥) حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي: تولى على ماردين بعد وفاة أبيه نجم الدين إيل غازي في سنة ٥١٦ (ذيل تاريخ دمشق ٢٠٨) وتوفي في سنة ٥٤٩ هـ (المصدر نفسه ٣٢٩) وانظر هذه الحادثة في مفرج الكروب ١/٥٤.

Marfat.com

وأما ابن العُرَيق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارف الموت. وكان رجلاً شجاعاً يحمل نفسه على الأخطار.

ـ ١٥٨ ـ

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعة(٣٨٦) وحوله صفا صخر لا تنضرب عليه الخيام. فنزل أتابك في الوطأ ووكل به الأمراء بالنوبة. فركب إليه أتابك يوماً والنوبة للأمير أبي بكر الدبيسي(٣٨٧) وما معه أهبة القتال. فوقف أتابك وقال لأبي بكر: تقدم قاتلهم! فزحف بأصحابه وهم أعراء. وخرج إليهم الرجال من الحصن، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة فقاتل قتالاً عظيماً وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم، وجرح عدة جراح. فرأيته قد حملوه إلى العسكر وهو في آخر رمقه. ثم عوفي وقدمه أبو بكر الدبيسي وخلع عليه وجعله من جملة جنداريته.

ـ ١٥٩ ـ

كان أتابك يقول: لي ثلاثة غلمان؛ أحدهم يخاف الله تعالى وهو يخافني ـ يعني زين الدين علي كوجك(٣٨٨) رحمه الله، والآخر يخافني وهو

---

(٣٨٦) حصن البارعة أو قلعة البارعية وتقع بين ماردين وآمد (الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٧٩ و ٥٩٩).

(٣٨٧) أبو بكر الدبيسي: «كان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك وكان ذو رأي ومكيدة ومكر، كان صاحب جزيرة ابن عمر، ولما توفي سنة ثلث وخمسين وخمس مئة ملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل» (... ١١٤) وله ذكر كثير في تواريخ العصر.

(٣٨٨) زين الدين علي كوجك انظر ترجمته في حاشيته ٤١٩ وهي الموصل في عهد نور الدين زنكي (الروضتين ١/٤١) وأقرّه سيف الدين غازي بن زنكي (١ ٤٧، ١٣٥) ثم قبض من إقطاعاته على أربل (١/١٥٢) وتوفي سنة ٥٦٣ وانظر أيضاً ١٣٥ وفيات الأعيان ٤/١١٤ ـ ١٢٠.

Marfat.com

يخاف الله تعالى ـ يعني نصير الدين جقر[٣٨٩] رحمه الله ـ والآخر ما يخاف الله ولا يخافني ـ يعني صلاح الدين محمد بن أيوب الغيساني رحمه الله ـ.

وشهدت منه تجاوز الله عنه ما يحقق قول أتابك وذلك أنا زحفنا يوماً إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحل والرجالة يتناوشون. وصلاح الدين واقف وأنا معه ونحن نرى الرجالة بين أيدينا. فعدا واحداً من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم وصلاح الدين يراه. فقال لواحد من أصحابه: هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه، فمضى أحضره. فقال له: من هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل إلى [رجالة] حمص؟ قال: والله يا مولاي ما أعرفه. قال: وسطوه! قلت: يا مولاي [٤٨ ب] تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل، فإن كان يعرفه أومَتَّه بنسبٍ ضربتَ رقبَتَه. وألا ترى فيه رأيك؛ فكأنَّه جنح إلى قولي. فقال غلام له من خلفه: يهرب واحد يؤخذ الذي كان إلى جانبه تضرب رقبته أو يوسط؟! فاحنقه كلامه وقال: وسطوه! فرفسوه كجاري العادة ووسطوه، وما له ذنب إلاّ اللجاج وقلّة مراقبة الله تعالى.

ـ ١٦٠ ـ

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد[٣٩٠] وأتابك يشتهي نُظْهِر تجلداً وقوة وقد أمر صلاح الدين بالمسير إلى الأمير قفجاق[٣٩١]

---

(٣٨٩) نصير الدين جقر: أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني، كان نائب عماد الدين زنكي على الموصل، وكان جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء، قتل في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة (وفيات الأعيان ١/٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٣٩٠) مصاف بغداد، هذه إشارة إلى القسم المفقود من أول الكتاب، انظر عن هذه الواقعة كتاب مفرج الكروب لابن واصل ١/٥٠ ـ ٥١ وقد نقلها ابن واصل من كتاب الاعتبار (القسم المفقود من الكتاب) وقد حدثت سنة ست وعشرين وخمس مئة (مفرج الكروب ١/٥١).

(٣٩١) الأمير قفجاق: أمير التركمان بن أرسلان شاه، انظر تاريخ أبي الفدا (استانبول ١٢٨٦ هـ) ٣/١٦، الكامل (لايدن) ١١/٥٠، ياقوت، معجم البلدان ٤/٤١٦ الباهر ٥٧.

Marfat.com

يكبسه. فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف. فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان فنزلنا على حصن يقال له: ماسُرّ(٣٩٢). ونزلنا عليه طلوع الشمس وامرأة طلعت من الحصن قالت: معكم خام؟ قلنا: أي وقت هذا للبيع والشراء؟ قالت: نريد الخام نكفنكم به، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم؛ تريد: أن ذلك الموضع وخم. فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقابين يدخلون تحت برج من تلك البراج ـ والحصن كله معمور بالطين، والرجال الذين فيه من الفلاحين ـ فزحفنا إليه وطلعنا إلى تَلَّةٍ. ونقب الخراسانية برجاً فوقع وعليه اثنان، أما الواحد فمات وأما الآخر فأخذه أصحابنا وجاؤوا به إلى صلاح الدين قال: وسطوه! قلت: يا مولاي هذا شهر رمضان، وهذا رجل مسلم لا تتقلد إثمه!! قال: وسطوه حتى يسلموا الحصن. قلت: يا مولاي الحصن الساعة تملكه! قال: وسطوه، ولج فيه فوسطوه. وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك. فجاء إلى الباب يريد النزول من الحصن فكان معه جماعة وغَلَبة.

فوكل به قوماً من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه. ثم ركب وقال لي: اركب! فركبنا وطلعنا إلى الحصن. فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه وأحضر بين يديه نساء وصبيان نصارى ويهود.

فحضرت عجوز كردية فقالت لذلك الناطور: رأيت ابني فلانا؟! قال: قتل، ضربته نشابة. قالت: فابني فلان؟ قال: وسطه الأمير! فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطنة المندوفة. فقال لها الناطور: اسكتي لأجل الأمير قالت: وأي شيء بقي الأمير يعمل بي؟ كان لي ولدان قتلهما، وسبعة

ومضى الناطور فأحضر شيخاً كبيراً مليح الشيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين قال: أي شيء هو هذا الشيخ؟ قال: إمام الحصن،

---

(٣٩٢) حصن ماسر: لم نجد له ذكراً فيما بين أيدينا من كتب البلدان

Marfat.com

قال: تقدم يا شيخ تقدم تقدم! حتى جلس بين يديه فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينة مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته فبقيت في يده مثل البرجم(٣٩٣) [٤٩ أ] فقال له ذلك الشيخ: يا مولاي بأي شيء أستوجب أن تفعل بي هذا الفعل؟ قال: بعصيانك على السلطان. قال: والله ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني.

ـ ١٦١ ـ

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للأمير قفجاق يقال له: الكرخيني(٣٩٤)، أخذناه فوجدوا فيه خزانة ملأى بثياب خام مُخَيَّطة صدقة لفقراء مكة وسبى من كان في الحصن من النصارى واليهود المعاهدين. ونهب ما فيهما نهب الروم. فالله سبحانه يتجاوز عنه.

أقف من هذا الفصل عند هذا الحد متمثلاً بقولي:

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم فينا يُشَيِّب ذكره المولودا(٣٩٥)

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والإسماعيلية في حصن شيزر.

ـ ١٦٢ ـ

اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له: أبو عبد الله بن هاشم، رحمه الله، فرأى رجلاً من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه والباب مفتوح وبرا منه خلق كثير من أصحابنا وما يجسر أحد يدخل إليه. فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف: ادخل إليه فدخل إليه. فما أمهله الباطني أن ضربه فجرحه فخرج وهو مجروح. فقال لآخر: ادخل إليه، فدخل إليه

---

(٣٩٣) البرجم: كلمة فارسية معناها: ذيل عجل البحر.
(٣٩٤) حصن الكرخيني: حصن يقع بين دقوقا وأربل (العراق) (معجم البلدان ٤/٢٥٧).
(٣٩٥) لم ترد في ديوان أسامة. ووردت في كتاب العصا لأسامة (نشر هارون) ٢١٤.

Marfat.com

فضربه الباطني فجرحه، وخرج كما خرج صاحبه. فقال ابن عمي: يا رئيس جواد ادخل إليه. فقال له الباطني: يا مؤاجر (٣٩٦) أنت ليش ما تدخل؟ تُداخِل إليَّ الناس وأنت واقف. ادخل حتى تبصر! فدخل إليه الرئيس جواد فقتله. وهذا الجواد حَكَم في الثِقاف (٣٩٧) رجل شجاع ثَقِف.

وما مر عليه إلّا أعوام قليلة حتى رأيته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مئة وهو عَلّاف يبيع الشعير والتبن وقد كبر حتى صار كالشن البالي يعجز عن دفع الفأر عن علفه فما بال الرجال؟! فكنت أتعجب من أول أمره عندما صار إليه آخر أمره وما أحال من حاله طول عمره.

ـ ١٦٣ ـ

ولم أدر أن داء الكبر عام يعدي كل من أغفله الحمام. فلما تَوقَّلت ذروة التسعين وأبلاني مَرُّ الأيام والسنين صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ولصقت من الضعف بالأرض ودخل من الكبر بعضي في بعض. حتى أنكرت نفسي وتحسرت على أمسي وقلت في وصف حالي:

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبق طول العمر مني مُنَّةً ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى [٤٩ ب]
ضعفت قواي وخانني الثقتان من ... بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أني حاملٌ ... جبلا وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدِبَّ في كفي العصا وعهدتها ... في الحرب تحمل أسمرا ومهندا
وأبيت في لين المهاد مسهداً ... قلقاً كأني [ما](*) افترشت الجلمد
والمرء ينكس في الحياة وبينما ... بلغ الكمال وتمّ عاد كما بدا (٣٩٨)

---

(٣٩٦) غير منقوطة في الأصل وقرأها حتي: يا مؤخر. وهنا تعني [illegible]
(٣٩٧) الثقاف: أي خبير بالجلاد والضرب بالسيوف والطعن بالرمح
(٣٩٨) لم ترد في ديوان أسامة. وذكرها أسامة في كتاب العصا ٤٥٧
(*) زيادة لا يتمُّ الوزن إلّا بها ولم ينتبه لسقوطها المحقق الفاضل

Marfat.com

وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل تقضيه وأسرعه:

انظر إلى صرف دهري كيف عودني ... بعد المشيب سوى عاداتي الأول
وفي تغاير صرف الدهر معتبر ... وأي حال على الأيام لم تحل
قد كنت مسعر حرب كلما خمدت ... أذكيتها باقتداح البيض في القلل
همي منازلة الأقران أحسبهم ... فرائسي فهم مني على وجل
أمضي على الهول من ليل وأهجَمُ من ... سيلٍ وأقدمُ في الهيجاء من أجل
فصِرت كالغادة المكسال: مضجعها ... على الحشايا وراء السجف والكلل
قد كدت أعفن من طول الثواء كما ... يُصدي المهنَّدَ طول اللبث في الخلل
أروح بعد دروع الحرب في حلل ... من الدبيقي فبؤسا لي وللحلل
وما الرفاهية من رأيي ولا أربي ... ولا التنعم من شأني ولا شغلي
ولست أرضى بلوغ المجد في رفهٍ ... ولا العلى دون حطم البيض والأسل(٣٩٩)

وكنت أظن أن الزمان لا يبلي جديده ولا يَهي شديده وأني إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كعهدي ما غيرها الزمان بعدي فلما عدت كذبتني وعود المطامع وكان ذلك الظن كالسراب اللإمع. اللهم غفراً هذه جملة اعتراضية عرضت، ونفثة همٍّ أفضت ثم انقضت.

ـ ١٦٤ ـ

أعود إلى المهم وادع تعسف الليل المدلهم. لوصفت القلوب من كدر الذنوب فوصلت إلى عالم الغيوبْ علمت أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب.

فانني رأيت يوم تقاتلنا نحن والإسماعيلية في حصن شيزر معتبراً يوضح للشجاع العاقل والجبان الجاهل أن العمر موقت لا يتقدم أجله ولا

---

(٣٩٩) ديوان أسامة ٢٥٥، تاريخ ابن عساكر (دمشق ١٣٣٠) ٢/٤٠٣.

Marfat.com

يتأخر. وذلك أننا بعد فراغنا ذمك اليوم من القتال صاح إنسان من جانب الحصن: الرجال!! وعندي [٥٠ أ] جماعة من أصحابي معهم سلاحهم. فبادرنا إلى الذي صاح، فقلنا: ما لك؟ فقال: حسّ الرجال ها هنا. فجئنا إلى اصطبل خال مظلم قدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما فقتلناهما. ووجدنا رجلاً من أصحابنا مقتولاً، وهو على شيء فرفعناه وجدنا تحته رجلاً من الباطنية قد تسجى ورفع المقتول على صدره. فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجامع بالقرب من ذلك المكان وفيه جراح عظيمة ولا نشك أنه ميت لا يتحرك ولا يتنفس. وأنا والله كنت أحرك رأسه على بلاط الاصطبل برجلي ولا نشك أنه ميت. وكان المسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حساً، فأدخل رأسه ليحقق السماع فجذبه واحدٌ منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قد مات. فقضى الله سبحانه أن خيطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة إلى ما كان عليه فتبارك الله مقدر الأقدار وموقت الآجال والأعمار.

وشاهدت ما يقارب ذلك وهو أن الإفرنج لعنهم الله أغاروا علينا ثلث الليل الأخير فركبنا نريد نتبعهم فمنعنا عمي عز الدين رحمه الله من إتباعهم وقال: هذه مكيدة. والإغارة تكون بالليل؟؟!. وخرج من البلد رجالة خلفهم ما علمنا بهم. فوقع الإفرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهم وسلم بعضهم.

وأصبحت أنا واقفاً في بندر قنين ـ قرية عند المدينة ـ فرأيت ثلاثة شخوص مقبلة. أما اثنان فكالناس، وإما الأوسط فما وجهه كوجوه الناس فمنهم نحو منا وإذا الوسطاني منهم قد ضربه افرنجي بسيف في وسط رأسه فقطع وجهه إلى أذنيه وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره. وبين المضغين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين. فدخل البلد وحاط الجرائحي وجهه وداواه. فالتحم ذلك الجرح وعوفي وعاد إلى ما كان عليه

Marfat.com

إلى أن مات على فراشه. كان يبيع الدواب ويسمى: ابن غازي المشطوب. وإنما سمي المشطوب بتلك الضربة.

- ١٦٦ -

فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر ففي بقائي أوضح معتبر فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام [٥٠ ب] والجروخ - وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى أن بلغت تمام التسعين فرأيت الصحة والبقاء كما قال ﷺ: ﴿كفى بالصحة داء﴾ فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك في كنه الجيش أسهل من تكاليف العيش. استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد فأنا كما قلت:

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي ... وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جد مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما ... من بعد حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت ... رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته ... هذي عواقب طول العمر والمدد(٤٠٠)

ضعفت القوة ووهت وتقضت بلهنية العيش وانتهت. ونَكَّسني التعمير بين الأنام وإلى الخمود تَسَعُّر الضِّرام حتى أصبحت كما قلت:

تناستني الآجال حتى كأنني ... رذيَّة سَفْرٍ بالفلاة حسيرُ
ولما تدع مني الثمانون مُنَّةً ... كأنِّي إذا رمت القيام كسير
أؤدي صلاتي قاعداً وسجودها ... عليَّ إذا رمت السجود عسير
وقد أنذرتني هذه الحال أنني ... دنت رحلةٌ منِّي وحان مسير(٤٠١)

---

(٤٠٠) انظر الروضتين ١/١١٤ وذكر ابن خلكان البيت الثالث (وفيات ١/١٩٧) ورواها الذهبي كاملة في سير أعلام النبلاء ٢١/١٦٧ ورواها أسامة نفسه في كتاب العصا ٢٠٧.

(٤٠١) في الأصل: «رذيّة» وفي الحاشية «دريّة» والأولى بمعنى تعبى وهلكى ومهزولة من السير =

Marfat.com

أعجزني وهن السنين عن خدمة السلاطين فهجرت مغشيَّ أبوابهم، وقطعت أسبابي من أسبابهم واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما خَوَّلوني من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم، وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري. ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ومفارقة الأوطان والتربة إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها. وصبرت صبر الأسير على قَدِّهِ والظمآن ذي الغلة عن ورده.. فناداني إليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان [٥١ أ] الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الصلبان رافع علم العدل والإحسان محيي دولة أمير المؤمنين أبي[1] المظفر يوسف بن أيوب. جمل الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه وأضفى عليهم وارف ظله كما أصفى لهم من الأكدار موارد فضله وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه وحكم صوارمه في أعناق أعاديه: برحمة نَقَّبَ عني في البلاد ودوني الحزن والسهل بمضيعة من الأرض لا مال لدي ولا أهل فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل وحملني إلى بابه العالي بأنعامه الغامر الجزيل وجبر ما هاضه الزمان مني ونفق على كرمه ما كسد عليَّ من سواه من علو سني. فغمرني بغرائب الرغائب وأنهبني من أنعامه أهنأ المواهب، حتى رعى لي بفائض الكرم ما أسلفت سواه من الخدم. فهو يعْتَدُّ لي بذلك ويرعاه رعاية من كأنه شاهده ورآه. فعطاياه تطرقني وأنا راقد وتسري إليّ وأنا مُحْتَبٍ قاعد. فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل العبيد، أمنني جميل رأيه حادث الحادثات، وأخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات. وأفاض عليَّ من نوافل فضله [illegible]

= ويعني: الناقة والأبيات لم ترد في ديوان أسامه ... ردت عند العماد الأصفهاني في [illegible] (قسم شعراء الشام) في ترجمة أسامة وله (١ / ٤٩٩)

(١) وردت «أبو» في الأصل. والصواب ما أثبتناه.

Marfat.com

فرضه وسنته ما تعجز الأعناق عن حمل أيسر منته ولم يبق لي جوده أملاً أرجو نيله. أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله. والرحمة التي تدارك بها العباد، وأحيا ببركاتها البلاد والسلطان الذي أحيا سنة الخلفاء الراشدين وأقام عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه، والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه؛ فلا زالت الأمة من سيوفه في حمى منيع ومن إنعامه في ربيع مريع. ومن عدلـه في أنوار تكشف عنهم ظلم المظالم وتكفُّ بسطةَ يد المعتدي الغاشم ومن دولته القاهرة في ظل وارف وفي سعود متتابع آنف في أثر سالف ما تعاقب الليل والنهار ودار الفلك الدوار:

دعـوت وقـد أمـن الـحـافـظان وذو العـرش ممن دعـاه قـريب
وقـد قـال سـبحـانـه لـلعبـاد سلوني فـإني سميـع مجيب[٤٠٢]

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل[٤٠٣]:

[٥١ ب] وما بكم من نعمة فمن الله(*) قال أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بـن نصر بن منقذ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني ببعضها من أثق به جعلتها إلحاقاً في الكتاب، إذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم. وبدأت منها بأخبار الصالحين، رضي الله عنهم أجمعين.

حدثني الشيخ الإمـام الخطيب سراج الدين أبو طاهر إبراهيم[٤٠٤] بن

(٤٠٢) لم ترد الأبيات في ديوان أسامة.
(٤٠٣) ورد هذا العنوان في الأصل.
(٤٠٤) لم نقف على ترجمته في ما لدينا من مصادر.
(*) القرآن الكريم: ١٦/٥٥.

Marfat.com

الحسين ابن إبراهيم خطيب مدينة أسعرد[٤٠٥] بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مئة قال: حدثني أبو الفرج البغدادي[٤٠٦] قال: شهدت مجلس الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد الطبري[٤٠٧] ببغداد وحضرته امرأة فقالت: يا سيدي إنك كنت ممن شهد في صداقي، وقد فقدت كتاب المهر وأسألك أن تتفضل عليَّ تقيم الشهادة بمجلس الحكم، فقال: ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة، فوقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله، فقال: لا تطيلي، لا أمضي معك إلاّ أن تأتيني بالحلاوة، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الإزار قرطاساً فيه حلاوة يابسة. فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه. فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس. ونظره فإذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته. فقال: خذي [كتاب][٤٠٨] صداقك، فهذا هو. فاستعظم من حضره ذلك، فقال: كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه.

— ١٧٠ —

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الإثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مئة قال: قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا قال: حدثني أبي قال: كنت أدخل على قاضي القضاة الشأمي الحموي[٤٠٨أ] فيكرمني ويُجلُّني فقال لي يوماً: أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم. كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون

---

(٤٠٥) أسعرد: لم يذكرها ياقوت منفردة وذكرها في كلامه على حيزان، وذكرها القزويني في حديثه على حيزان أيضاً فقال: «من بلاد ديار بكر بقرب أسعرت» (آثار البلاد (بيروت ١٣٩٩/١٩٥٩ م) ٣٦٠. وقد استولى عليها وعلى حيزان أتابك زنكي في سنه ٥٣٨ (حاشية ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤) وانظر: الباهر لابن الأثير ٨٦ وتقويم البلدان ٢٨٨

(٤٠٦) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي صاحب كتاب المنتظم وغيره، توفي سنة ٥٩٨ هـ ببغداد وهو مشهور في العالمين معروف

(٤٠٧) الإمام أبو عبدالله محمد الطبري (البصري؟). لم نعثر له على ترجمة بعد

(٤٠٨) سقطت من الأصل وقد اقتضاها سياق الكلام والمعنى

(٤٠٨ أ) هو قاضي القضاة الشامي أبو بكر محمد بن المظفر بن بكر الحموي الشافعي توفي سنه ٤٨٨ هـ. انظر: مرآة الجنان لليافعي ٣/١٤٨ - ١٤٩

Marfat.com

الحموي، رحمه الله، فقالوا له: أوص، فقال: إذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني إلى الصحراء ويطلع إنسان على الرابية التي تشرف على المقابر وينادي؛ يا عبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون، فأحضره وصل عليه. فلما مات فعلوا ما أمرهم به. فأقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادى وجاء حتى صلى عليه، والناس قد بهتوا لا يكلمونه فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء. فتلاوموا إذا لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا [٥٢ أ] في أثره، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة(٤٠٩).

— ١٧١ —

وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا(٤١٠). وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة وينصرف إلى زاويته وهو رجل من الأولياء. فحضرته، وهو بالقرب من منزلي، الوفاة، فقال: كنت اشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي(٤١١). فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخه محمد البستي عنده. فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه.

ثم نزل في زاويته فأقام بها مديدة وهو يزورني وأنا أزوره. وكان، رحمه

---

(٤٠٩) القصد غير واضح من محبة قاضي القضاة الحموي لأهل الكوفة، فلعل عبدالله بن القبيس كان من أهل الكوفة.

(٤١٠) حصن كيفا: ويقال حصن كيبا وهي بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. وقد ملكه سقمان بن أرتق من سنة ٤٩٥ هـ إلى سنة ٤٩٨ وبقي في أسرة سقمان الأرتقي إلى بعد وفاة أسامة (تقويم البلدان وزبدة الحلب ٢/ ٢٢٠) وكذلك. زبدة الحلب ٣/ ٩٠.

(٤١١) هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن أحمد البستي الصوفي، صاحب رياضة ومجاهدة وأسفار وتجريد، له ترجمة في المستدرك على المختصر المحتاج إليه من تاريخ الدبيثي للذهبي، تحقيق مصطفى جواد (بغداد ١٩٦٣) ٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ توفي سنة أربع وثمانين وخمس مئة وانظر التكملة لوفيات النقلة ١/ ٩٧ (بيروت ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م)، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٣.

Marfat.com

الله عالماً زاهداً ما رأيت ولا سمعت بمثله. كان يصوم الدهر ولا يشرب ماء ولا يأكل خبزاً ولا شيئاً من الحبوب، إنما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي. فقلت له يوماً: يا شيخ أبا عبد الله، كيف وقع لك أن لا تأكل خبزاً ولا تشرب وأنت صائم أبدا؟ قال: صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك. فطويت ثلاثاً وقلت: إجعل ما آكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث. فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء فألفت النفس ذلك وسكنت إليه فاستمررت على ما أنا عليه.

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له. فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال: قد جئت مودعاً. قلت: والزاوية التي قد أعدت لك والبستان؟ قال: يا أخي، مالي حاجة فيهما، ولا أقيم. وودعني ومضى، رحمه الله. وذلك سنة سبعين وخمس مئة.

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن قاسم الحموي بحماة في التأريخ المتقدم أن رجلاً كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر، رحمه الله، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة فقال: سمعت الساعة عجباً!! قالوا: وما هو؟ قال: مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه. وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما. فقلت: إن هذا البستان نصفه لي بحق عملي. ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك. فقال أحجّ العام؟ قلت: نعم. قال: البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه. فخرجوا في أثره ليستفهموا منه فرأوه على بعد لا يمكنهم لحاقه. فعادوا وأخبروا الحديث فكان الأمر كما قال.

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود بن

Marfat.com

بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مئة [٥٢ ب] قال: زار المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين، رحمه الله، مسجد صندوديا(٤١٢) بظاهر الأنبار على الفرات الغربي، ومعه الوزير وأنا حاضر. فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد أمير المؤمنين علي، رضوان الله عليه، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلد سيفاً حليته حديد لا يدري أنه أمير المؤمنين إلّا من يعرفه. فجعل قيم المسجد يدعو للوزير. فقال الوزير: ويحك أدع لأمير المؤمنين. فقال له المقتفي، رحمه الله: سله عما ينفع؛ قل له ما كان من المرض الذي كان في وجهه؟ فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر رحمه الله، وبه مرض في وجهه. وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فإذا أراد الأكل شَدَّها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه. فقال القيم: كنت كما تعلم، وأنا أتردد إلى هذا المسجد من الأنبار. فلقيني إنسان فقال: لو كنت تتردد إلى فلان ـ يعني مقدم الأنبار ـ كما تتردد إلى هذا المسجد لاستدعى لك طبيباً يزيل هذا المرض من وجهك ـ فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري. فنمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول: ما هذه الخضرة؟ ـ يعني خضرةً في الأرض ـ فشكوت إليه ما بي، فأعرض عني. ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل فقال: أنت ممن يريد العاجلة. ثم استيقظت والسلعة مطروحة إلى جانبي وقد زال ما كان بي، فقال المقتفى رحمه الله: صدق. ثم قال لي: تحدث معه وابصر ما يلتمسه واكتب به توقيعاً واحضره لأعَلِّم عليه. فتحدثت معه. فقال: أنا صاحب عائلة وبنات. وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير. فكتبت عنه مطالعة وعنونتها الخادم: قيم مسجد عليّ. فوقع عليها بما طلب وقال لي: امض ثَبّتها في الديوان. فمضيت ولم أقرأ منها سوى: يوقع له بذلك. وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة

---

(٤١٢) ذكر ياقوت «صندوداء» وقال: «سميت صندوداء باسم امرأة... وقد سار خالد ابن الوليد من العراق يريد الشام فأتى صندوداء..» (٣/٤٢٥).

Marfat.com

توقيع ويؤخذ منه ما فيه خط أمير المؤمنين. فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت: قيم مسجد علي: بخط المقتفى أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ. ولو كان طلب أكثر من ذلك لوُقِّع له به.

ـ ١٧٤ ـ

وحدثني القاضي الإمام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي، رحمه الله بظاهر حصن كيفا يوم الخميس ثانى وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مئة عن من حدثه أن شيخاً استأذن على خواجا بزرك[٤١٣] رحمه الله. فلما دخل عليه رآه شيخاً مهيباً بهياً. فقال: من أين الشيخ؟ قال: من غزنة. قال ألك حاجة؟ قال أنا رسول رسول الله ﷺ [٥٣ أ] إلى ملك شاه. قال: يا شيخ أي شيء هذا الحديث؟ قال إن أوصلتني بلغته الرسالة، وإلا فأنا لا أزول حتى اجتمع به وأبلغه ما معي.

فدخل خواجا بزرك على السلطان فأعلمه بما قال الشيخ فقال: أحضروه. فلما حضر قدم للسلطان مسواكاً ومشطاً وقال له: أنا رجل لى بنات، وأنا فقير لا أقدر على جهازهن وتزويجهن. وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني ما أجهزن به فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه بمعونتي عليهُنَّ. فرأيت رسول الله، ﷺ فيا يرى النائم فقال لي: أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ما تجهز به بناتك؟ قلت: نعم يا رسول الله. فقال امض إلى فلان ـ وسماه بعز [الدين][٤١٤] ملك شاه ـ يعني السلطان، وقل له: قال لك رسول الله ﷺ جهز بناتي. فقلت: يا رسول الله إن طلب مني علامة ما

(٤١٣) هو نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور، قتلته الباطنية في سنة خمس وخمسين وأربع مئة، وزر للسلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه. انظر الجزء الثاني ص ٩ ـ ١٠، والمنتظم لابن الجوزي ٩/٦٤، ووفيات الأعيان ٢/١٢٨ ـ ١٣١، والنجوم الزاهرة ٥/١٣٦ وشذرات الذهب ٣/٣٧١، والروضتين ١/٣٥ ـ ٣٦، والبداية والنهاية ١١/١٤٠ ـ ١٤١

(٤١٤) سقطت من الأصل ويقتضيها سياق الكلام فأصلحناها. والسلطان ملكشاه السلجوقي مشهور، انظر ترجمته في حاشية رقم (١٤١)، وانظر البداية والنهاية ١١/١٤٢

Marfat.com

أقول له؟، قال: قل له بعلامة أنك كل ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك. فلما سمع ذلك السلطان قال: هذه علامة صحيحة. وما اطّلع عليها غير الله تبارك وتعالى. فإن مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند النوم. وأنا أفعل ذلك. ثم أمر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه.

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك المقرىء قال كنت أقرأ يوماً على أبي بكر بن مجاهد(٤١٥) رحمه الله المقرىء ببغداد إذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب رثة. وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له: إيش كان من خبر الصبية؟ قال: يا أبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني أهلي دانقاً يشترون به سمناً وعسلاً يحنكونها به فلم أقدر عليه. فبت مهموماً. فرأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم. فقال: لا تغتم ولا تحزن، وإذا كان غدا فادخل على علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له: بعلامة أنك صهليت عليَّ عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مئة دينار عينا.

فقال أبو بكر بن مجاهد يا أبا عبد الله في هذا فائدة. وقطع عليَّ القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به على علي بن عيسى. فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيخاً لم يعرفه فقال: من أين لك يا أبا بكر هذا؟ فقال: يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه فأدناه وقال: ما خطبك يا شيخ؟ فقال الشيخ: إن أبا بكر بن مجاهد يعلم أن لي ابنتين والبارحة جائتني ثالثة. فطلبت مني أهلي

---

(٤١٥) أبو بكر بن مجاهد: هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقريء. توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ. انظر غاية النهاية في طبقات القراء للجزري (القاهرة ١٣٥١) ١/١٣٩/١٤٢. أما الوزير علي بن عيسى فإنَّ أخباره مشهورة، انظر الصابي: كتاب الوزراء والكتاب مثلاً. وقد أورد الصابي حكاية عن التنوخي مشابهة لهذه الحكاية، الوزراء والكتاب تحقيق عبد الستار أحمد فراج (القاهرة ١٩٥٨) ٣٦٠ ـ ٣٦٢، وأشار المحقق إلى الفرج بعد الشدة للتنوخي ١/١٥٤، والمنتظم لابن الجوزي ٦/٣٥٤.

Marfat.com

دانقاً يشترون به عسلاً وسمناً يحنكونها به فلم أقدر عليه فبت البارحة وأنا مهموم [٥٣ ب] فرأيت النبي ﷺ في المنام وهو يقول: لا تغتم ولا تحزن، إذا كان غدا فادخل على علي بن عيسى وأقره مني السلام وقل له: بعلامة أنك صليت عليَّ عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مئة دينار عيناً. قال [ابن] مجاهد: فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع. ثم قال: صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل. هذا شيء ما كان علم به إلاّ الله تعالى ورسوله ﷺ. يا غلام هات الكيس! فأحضره بين يديه، فضرب بيده فأخرج منه مئة دينار وقال: هذه المئة التي قال لك رسول الله ﷺ. وهذه مئة أخرى للبشارة وهذه مئة أخرى هدية منا لك. فخرج الرجل من عنده وفي كمه ثلاث مئة دينار.

ـ ١٧٦ ـ

وحدثني القائد الحاج أبو علي[٤١٦] في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مئة بحصن كيفا[٤١٧] قال: كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن محمد بن مامة. فاجتاز بنا رجل فقاعي[٤١٨] ضخم غليظ الساقين فدعاه محمد وقال: يا عبد علي، بالله، حدث فلاناً حديثك. قال: أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى، فبت ليلة أربعاء وأنا صحيح، فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة ويبست رجلاي ودقتا حتى بقيت الجلد والعظم. فكنت أزحف إلى الوراء لأن رجلي ما كانت تتبعني ولا كان فيها حركة بالجملة. فقعدت في طريق زين الدين علي كوجك[٤١٩] رحمه الله.

---

(٤١٦) لم نقف عليه بعد.

(٤١٧) حصن كيفا: انظر حاشية ٤١٠

(٤١٨) فقّاعي: الفقّاع: وزان رمان هو الشراب الذي يتخذ من الشعير، سُمّي بذلك لما يعلو في رأسه. (تاج العروس ٥/٤٥٥).

(٤١٩) زين الدين علي كوجك: كان صاحب الموصل حين قدم بكي (الدارس ١ ٤٦)، وقد أقره سيف الدين غازي بن زنكي على ولاية الموصل (الدارس ١ ٤٧)، وترجم وفيات الأعيان ٤/١١٤ (توفي سنة ٥٦٣ هـ) وله ترجمة في حاشية كتاب المنتظم لابن الجوزي (١٠/٢٢٣) مقتبسة من كتاب مرآة الزمان لسبطه

Marfat.com

فأمر بحملي إلى داره فحملت. واحضر الأطباء وقال: أريد أن تداووا هذا. فقالوا: نعم نداويه إن شاء الله. ثم أخذوا مسماراً فاحموه ثم كووا به رجلي فما حسست به فقالوا لزين الدين: ما نقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة. فوهب لي دينارين وحماراً. فبقي الحمار عندي نحواً من شهر ومات. فعدت قعدت في طريقه. فوهب لي حماراً فمات، ووهب لي ثالثاً فمات. فعدت إلى سؤاله. فقال لواحد من أصحابه: اخرج بهذا فارمه في الخندق. فقلت له: بالله ارمني على وركي فإني ما أحس فيها بما يكون فقال: ما أرميك إلاّ على رأسك. فإذا رسول زين الدين رحمه الله قد جاءني فردني إليه ـ وكان الذي قاله من رميي مزاحاً ـ فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحماراً.

فبقيت على ما أنا عليه إلى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن رجلاً وقف عليَّ وقال: قم! قلت: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقمت وقفت. فأنبهت امرأتي وقلت: ويحك قد أبصرت كذا وكذا فقالت: ها أنت قائم. فمشيت على رجلي و زال ما كان بي ورجعت كما تراني. فمضيت إلى عند زين الدين الأمير علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورآني [٥٤ أ] قد زال ما رآه بي فأعطاني عشرة دنانير، فسبحان الشافي المعافي.

ـ ١٧٧ ـ

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن[٤٢٠] محمد بن عبد الله بن معمر العليمي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة قال: حكى لي

---

(٤٢٠) أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبدالله بن معمر العليمي، ترجم له ابن الدبيثي في تاريخه (مختصر الذهبي) فقال: «عني بطلب الحديث وجمعه بالشام ومصر والعراق وخراسان.. وكتب بخوارزم من جماعة وحدث بها وببغداد ودمشق وبلاد كثيرة.. وكان يرحل إلى البلاد للتجارة ويكتب عن شيوخها وكان جيد الأصول...».
توفي سنة ٥٧٤ هـ. (المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي للذهبي ٣/١٠٤ ـ ١٠٥) وترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢١/٤٩ ـ ٥٠.

Marfat.com

رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد[٤٢١] بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري الفرضي المعروف بقاضي المارستان أنه قال: لما حججت بينا أطوف بالبيت إذ وجدت عقداً من اللؤلؤ فشددته في طرف احرامي فبعد ساعة سمعت إنساناً ينشده في الحرم وقد جعل لمن يرده عليه عشرين ديناراً. فسألته علامة ما ضاع له فأخبرني فسلمته إليه. فقال لي تجيء معي إلى منزلي لأدفع إليك ما جعلته لك. فقلت: ما لي حاجة إلى ذلك، وما دفعته إليك بسبب الجعالة. وأنا من الله بخير كثير. فقال: ولم تدفعه إلاّ لله عز وجل؟ فقلت: نعم!! فقال: استقبل بنا الكعبة وأمِّن على دعائي. فاستقبلنا الكعبة فقال: اللهم اغفر له وارزقني مكافأته ثم ودعني ومضى.

ثم اتفق أنني سافرت من مكة إلى ديار مصر. فركبت في البحر متوجهاً إلى المغرب فأخذت الروم المركب وأسرتْ فوقعت في نصيب بعض القسوس. فلم أزل أخدمه إلى أن دنت وفاته، فأوصى بإطلاقي.

فخرجت من بلد الروم فصرت إلى بعض بلاد المغرب، فجلست أكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تُنَّاء تلك المدينة فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانىء إلى الخباز فقال: سيدي يدعوك لتحاسبه. فاستصحبني معه ومضينا إليه فحاسبه على رقاعه. فلما رأى معرفتي في الحساب وخطى طلبني من الخباز فغيَّر ثيابي وسلَّم إليَّ جباية ملكه وكانت له نعمة ضخمة. وأخلى لي بيتاً في جانب داره.

فلما مضت مديدة قال لي: يا أبا بكر ما رأيك في التزويج؟ قلت: يا سيدي أنا لا أطيق نفقة نفسي فكيف أطيق النفقة على زوجة؟ قال: أن أقوم

---

(٤٢١) أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري الفرضي المعروف بقاضي المارستان ترجم له ابن حجر (لسان الميزان ٥/٢٤١ ـ ٢٤٣) ترجمة موسعة وقال عنه: شيخ عالي الإسناد... وكان وقع في أسر الروم فتعلم الخط منهم وتقدم عندهم وتولى القضاء ٢١٧/١٢، (توفي سنة خمس وثلاثين وخمس مئة) وله في الصفدي ترجمة موسعة أيضاً (١٠/٩٢ ـ ٩٤) وهو من شيوخ ابن الجوزي وله ترجمة موسعة في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/٢٣ ـ ٢٨ مع مصادر ترجمته.

Marfat.com

عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك. فقلت: الأمر لك، فقال: يا ولدي إن هذه الزوجة فيها عيوب شتى، ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقـة من رأسها إلى قدمها إلاّ ذكره لي، وأنا أقول: رضيت، وباطني في ذلك كظاهري. فقال لي: الزوجة ابنتـي! واحضر جماعة وعقد العقد.

فلما كان بعد أيام قال لي: تهيأ لدخول بيتك. ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت إلى دار فيها التجمل [٥٤ ب] والآلات. ثم أجلست في المرتبة، وأخرجت العروس تحت النمط، فقمت لتلقيها. فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في دار الدنيا أجمل منها. فهربت من الدار خارجاً فلقيني الشيخ وسألني عن سبب هربي. فقلت: إن الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت. فتبسم وقال: يا ولدي هي زوجتك وليس لي ولد سواها. وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تَستقلَّ ما تراه. فعدت وجُليت عليَّ.

فلما كان من الغد جعلت أتأمل ما عليها من الحلي والجوهر الفاخر. فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدته بمكة، فعجبت من ذلك. واستغرقني الفكر فيه، فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال: جدع الحلال أنف الغيرة، فشكرته على ما فعله معي ثم استولى عليَّ الفكر في العقد ووصوله إليه. فقال لي فيم تفكر فقلت: في العقد الفلاني، فإني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقداً يشبهه. فصاح وقال: أنت الذي رددت عليَّ العقد؟ قلت: أنا ذاك فقال: إبشر!! فإن الله قد غفر لي ولك فإني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك. وقد سلمت إليكْ مالي وولدي وما أظن أجلي إلاّ وقد قرب ثم أوصى إليَّ ومات بعد مديدة قريبة رحمه الله.

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي[٤٢٢] بن قراجا ـ رحمه الله ـ قال

(٤٢٢) الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا: الظاهر أنه أخو محمود، انظر حاشية (١٢٩).

Marfat.com

دعانا شاهنشاه[٤٢٣] بحلب (وهو زوج أخته). فلما اجتمعنا عنده نفذنا إلى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة، فاستدعيناه، فحضر فعرضنا عليه الشرب فقال أنا محتمي. أمرني الطبيب بالحمية أياماً حتى تشق هذه السلعة. وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة. فقلنا: وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد. ففعل وشرب معنا إلى آخر النهار. فطلبنا من شاهنشاه شيئاً نأكله. فقال ما عندي شيء، فلاججناه حتى أجابنا إلى أن يحضر لنا بيضاً نقليه على المَنْقَل. فأحضر البيض، وأحضرنا صحناً وكسرنا البيض وأفرغنا ما فيه في الصحن. ووضعنا المقلي على المنقل ليحمى فأشرت إلى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة أن يشرب البيض. فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع ما في الصحن في حلقه فشربه. وقلنا لصاحب الدار عوضنا عن البيض فقال: والله ما أفعل!! فشربنا، ثم افترقنا.

فإنا في السحر في فراشي والباب يقرع. فخرجت جارية تنظر من بالباب فإذا هو صديقنا ذلك. فقلت [٥٥ أ]: أحضريه. فجاءني وأنا في الفراش وقال: يا مولاي!! تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت، وما بقي لها أثر. فنظرت موضعها فإذا هو كغيره من جوانب رقبته. فقلت أي شيء أذهبها؟ قال: الله سبحانه، ما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت أستعمله غير شربي لذلك البيض النيِّء. فسبحان القادر المُبلي المُعافي.

ـ ١٧٩ ـ

وكان عندنا في شيزر أخوان اسم الأكبر مظفر والاخر مالك بن عيص من أهل كفر طاب[٤٢٤]. وهما تُجَّار يسافران إلى بغداد وغيرها من البلاد ومظفر آدرُ له قيلةٌ عظيمة فهو منها في تعب[٤٢٥]. فسأل في وقته على

(٤٢٣) شاهنشاه: لعله شاهنشاه بن مسعود أخو قليج أرسلان (الكامل ١١ ٣١٧)
(٤٢٤) كفر طاب: بلدة بين معرة النعمان وحلب
(٤٢٥) بمعنى: أن له خصية منتفخة (انظر القاموس المحيط ٤ ٤٣)

Marfat.com

السماوة[٤٢٦] إلى بغداد فنزلت القافلة بحي من أحياء العرب فضيَّفوهم بطيور طبخوها لهم. فتعشوا وناموا. فانتبه أَنْبَهَ رفيقه الذي في جانبه وقال له: أنا نائم أو مستيقظ؟ قال: مستيقظ، لو كنت نائماً ما تحدثت. قال: تلك القيلة ذهبت وما بقي لها أثر. فنظر فإذا هو قد عاد كغيره إلى الصحة.

فلما أصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم: أي شيء أطعموهم؟ قالوا: نزلتم بنا ودوابنا عازبة[٤٢٧] فخرجنا أخذنا فراخ غربان طبخناها لكم. فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا لمتولي المارستان حكايته. فنفذ حصل فراخ غربان وأطعمها لمن به هذا المرض، فلم تنفعه ولا أثرت فيه. فقال: تلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعيَ، فذلك كان نفعها.

ـ ١٨٠ ـ

ومما يشاكل ذلك أن رجلاً أتى يوحنا[٤٢٨] بن بطلان الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب وهو في دكانه بحلب فشكى إليه مرضه فراه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ودقت رقبته وتغيرت سحنته. فقال له: يا ولدي مالي والله فيك حيلة ولا بقيع الطب ينجع فيك فانصرف.

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ما كان به من المرض وضمر جوفه وحسنت حاله. فدعاه ابن بطلان فقال: ما أنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك وقلت لك مالي فيك حيلة؟ قال: بلى! قال: فبماذا تداويت حتى زال ما كان بك؟ قال: والله ما تداويت بشيء أنا رجل صعلوك مالي شيء ولا لي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في دِنَّين خل فكانت كل يوم تطعمني منه

---

(٤٢٦) يعني بادية السماوة.

(٤٢٧) عازب: عزب، بعد وغاب ونأى.

(٤٢٨) يوحنا بن بطلان الطبيب بحلب، انظر: طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (القاهرة ١٨٨٢) ١/٢٤١ ـ ٢٤٣، القفطي: أخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ١٩٢ ـ ٢٠٨.

Marfat.com

بخبز. فقال له ابن بطلان [٥٥ ب] بقي من الخل شيء؟ قال: نعم. قال: امش معي أرني الدن الذي فيه الخل. فمشى بين يديه إلى بيته أوقفه على دن الخل فأفرغ ابن بطلان ما كان فيه من الخل فوجد في أسفله أفعيين قد تهرأتا. فقال له يا بني، ما كان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ إلا الله عزّ وجلّ.

ـ ١٨١ ـ

وكان لهذا ابن بطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك أن رجلاً أتاه وهو في دكانه بحلب والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم فقال له: ما صنعتك؟ قال: أنا مغربل. فقال: احضر لي نصف رطل خل حاذق فأحضره فقال: اشربه!! فشربه، وجلس لحظة فذرعه القيء فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخل فانفتح حلقه واستوى كلامه فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته: لا تداووا بهذا الدواء أحد فتقتلوه. هذا كان قد علق بالمرىء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلا الخل.

ـ ١٨٢ ـ

وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ. فظهر في جدي أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ـ رحمه الله ـ وضح وهو صبي صغير فأقلق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص. فأحضر ابن بطلان وقال له: ابصر ما قد ظهر في جسم علي! فنظره وقال: أريد خمس مئة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه. فقال له جدي: لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمس مئة دينار!! فلما رأى الغضب من جدي قال: يا مولاي أنا خادمك وعبدك وفي فضلك، ما قلت ما قلته إلى على سبيل المزح. وهذا الذي بعلي بهق الشباب وإذا أدرك زال عنه فلا تحمل منه هماً، ولا يقول لك سواي: أنا أداويه ويتسوق عليك فهذا يزول عند بلوغه فكان كما قال.

Marfat.com

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب يقال لها: برة لحقها برد في رأسها فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من البرد. فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها فقال: حَصلّي في غدٍ خسمين مثقالاً من كافور رياحي عارية أو مُكرىً من بعض الطيبيين، فهو يعود إليه بأسره. فحصلت له الكافور ثم أصبح ألقى كل ما على رأسها وحشاً شعرها بذلك الكافور ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد، فنامت لحظة وانتبهت [٥٦ أ] تشكو الحر والكرب في رأسها. فألقى عنها شيئاً شيئاً مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ثم نفض شعرها من ذلك الكافور وذهب عنها البرد وصارت تتقنَّع بقناع واحد.

ـ ١٨٣ ـ

وقد جرى لي بشيزر ما يقارب ذلك. لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حُمَّى وعليَّ الثياب الكثيرة والفرو. ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت. فأحضرت الشيخ أبا الوفاء تميماً الطبيب فشكوت إليه ما أجد فقال: احضروا لي بطيخة هندي فأحضرت فكسرها وقال لي كل منها [ما] استطعت قلت: يا حكيم أنا في الموت من البرد والزمان بارد كيف آكل هذه مع بردها؟ قال: كُل كما أقول لك! فأكلت. فما انتهى أكلي منها حتى عرقت وزال ما كنت أجده من البرد فقال لي: الذي كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقي.

ـ ١٨٤ ـ

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام. وقد أوردت في كتابي المترجم بـ «كتاب النوم والأحلام» من ذكر النوم والأحلام وما قيل فيها وفي أوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها، واستشهدت على أقوالهم بما ورد فيها من

Marfat.com

أشعار العرب ووسعت الشرح وأشبعت فيها المعنى. فما حاجة إلى ذكر شيء منه هاهنا. لكني ذكرت هذا الخبر واستظرفته فأوردته.

كان لجدي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ـ رحمه الله ـ جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا سلامة مرشد بن علي ـ رحمه الله ـ فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه فَرُزِقَني فربتني تلك العجوز إلى أن كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ـ رحمه الله ـ فانتقلت معي. ورزقت الأولاد فربتهم وكانت ـ رحمها الله ـ من النساء الصالحات صوامة قوامة. وكان يلحقها القولنج وقتاً بعد وقت فلحقها يوماً من الأيام واشتد بها حتى غاب ذهنها وآيسوها فبقيت كذلك يومين وليلتين. ثم أفاقت فقالت: لا إله إلا الله ما أعجب ما كنت فيه لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ما قالوا: إن هذا القولنج ما يعود يلحقك، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج.

وعاشت حتى قاربت المئة سنة، وكانت محافظة لصلواتها ـ رحمها الله ـ فدخلت إليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلاً للصلوات. فقلت: ما هذا يا أمي؟ قالت: يا بني، قد مسكوا هذا المنديل وأيديهم ذفرة من الجبن وكلما غسلته قد فاحت [٥٦ ب] منه رائحة الجبن. قلت: أريني الصابونة التي تغسلين بها. فأخرجتها من المنديل فإذا هي قطعة جبن وهي تظن أنها صابون. وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائحه. قلت: يا أمي هذه جبنة ما هي صابونة! فنظرتها وقالت: صدقت يا بني ما ظننتها إلا صابوناً. فتبارك الله أصدق القائلين: «ومن نعمره ننكسه في الخلق».

الإطالة تجلب الملالة والحوادث والطوارئ، أكثر من أن يحصرها عد. فعليه إلى الله عزّ وجلّ في الستر والعافية فيما بقي من الحياة والرحمة والوصول عند موافاة الوفاة. فإنه سبحانه أكرم مسؤول وأقرب مأمول.

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه

Marfat.com

[٥٧ أ] توكلت على الله تعالى.

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب وما شاهدته من الوقعات والمصافات والأخطار [ما] حضرني ذكره ولم ينسنيه الزمان ومَرُّه، فإن العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال والنسيان متوارث متقادم من أبينا آدم، عليه السلام.

وأنا ذاكر فصلاً فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح:

فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر. ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر ـ رحمه الله ـ ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ـ رحمه الله ـ ومن ذلك ما حضرته بمصر. ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك زنكي ـ رحمه الله ـ ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان(٤٢٩) بن داود بن أرتق، ـ رحمه الله ـ.

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ـ رحمه الله ـ وكان مشغوفاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح، وما يستكثر ما يغرمه عليه لفرجته. فإنه كان نزهته، فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله، عزّ وجلّ عند فراغه من أشغال أصحابه. وهو ـ رحمه الله ـ صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن. فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تَعي الذِكر». فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه.

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكي ـ رحمه الله ـ. وكان له

---

(٤٢٩) فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا ٤٢٩ ـ ٥٦٢ هـ. انظر الروضتين ١/١٣٣.

Marfat.com

الجوارح الكثيرة. فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية[٤٣٠] بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء، ووراءهم الشواهين الكوهية[٤٣١] على أيدي البازدارية. فإذا اصطادت البزاة وأخطأت أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد أبعدت دشت خيز[٤٣٢]، فتلحق وتصيد. وتُرسَل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد. فإنها من سرعة الطيران على صفة عجيبة.

وشاهدته يوماً ونحن في المغرقة[٤٣٣] بظاهر الموصل نسير في باذنجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق. فطار ذَكَرُ دَرَّاج فأرسله عليه فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار. فلما ارتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثَبَّته.

ورأيته [٥٧ ب] وهو في صيد الوحش دفعات. إذا اجتمعت الحلقة واجتمع فيها الوحش لا يقدر أحد يدخل الحلقة، وإذا خرج من الوحش شيء رموه. وكان من أرمى الناس فكان إذا دنا منه الغزال رماه فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح. وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ينفّذه لي مع غلام من غلمانه وأنا معه.

وشاهدته وقد اجتمعت الحلقة ونحن في أرض نصيبين على الهرماس[٤٣٤]، وقد ضربوا الخيام. فوصل الوحش إلى الخيام. فخرج

---

(٤٣٠) البازدار: مركب من كلمتين: باز العربية وهو الطائر المعروف، ودار الفارسية، أي حافظ. سائس، متولي وهو الذي يتولى العناية بالبزاة وتدريبها على الصيد.

(٤٣١) منسوبة إلى كلمة «كوه» أي الجبل بالفارسية. (ياقوت ٤/ ٤١٦)

(٤٣٢) هكذا وردت في المخطوطة، فلعلها اصطلاح فارسي يعني أبعدت كثيراً في طيرانها، أو لعلها محرفة من «دشت سير» بمعنى السفر أو الإبعال في الصحراء.

(٤٣٣) المغرقة بظاهر الموصل: لم نجد لها ذكراً في ما لدينا من معاجم البلدان

(٤٣٤) الهرماس: هو النهر الذي تقع عليه مدينة نصيبين (ياقوت ٥/ ٣٩٩)

Marfat.com

الغلمان بالعصى والعمد، فضربوا منها شيئاً كثيراً. واجتمع في الحلقة ذيب فوثب في وسطها على غزال أخذه وبرك عليه فقتل وهو عليه.

وشاهدته يوماً ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: هاهنا ضبعة نائمة! فسار ونحن معه إلى واد هناك، والضبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي فترجل أتابك ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابة رماها إلى أسفل الوادي ونزلوا جاؤوا بها إلى بين يديه وهي ميتة.

ورأيته أيضاً بظاهر سنجار وقد خلوا أرنباً. فأمر فاستدارت الخيل حولها. وأمر غلاماً خلفه [يحمل] الوشق[٤٣٥] كما يُحمل الفهد. فتقدم أرسله على الأرنب فدخلت بين قوائم الخيل، وما تمكن منها. وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد.

ـ ١٨٨ ـ

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود[٤٣٦] بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير. فرأيته يوماً وقد خرجنا إلى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم. فتصيدنا كثيراً من اليحامير. وضربت الخيام حلقة ونزلنا. فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائماً في العشب فأخذ في وسط الخيام.

ورأيت ونحن عائدون رجلاً قد رأى سنجاباً في شجرة. فأعلم به شهاب الدين فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه فتركه وسار شبه المغتاظ الذي لم يصبه فرأيت رجلاً من الأتراك جاء رماه فوسط النشابة فيه. فاسترخت يداه وبقي متعلقاً برجليه والنشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقع. ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته. فسبحان خالق الخلق.

---

(٤٣٥) ذكره الفيروز آبادي في القاموس المحيط. وقال: «كلب».

(٤٣٦) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك، انظر حاشية (٢٧٠).

Marfat.com

ورأيت الصيد بمصر. كان للحافظ لدين الله عبد المجيد أبي الميمون، ـ رحمه الله ـ جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية. فكان لهم زَمَّام يخرج بهم في الجمعة يومين، وأكثرهم رجَّالة على أيديهم الجوارح [٥٨ أ] فكنت أركب يوم خروجهم إلى الصيد لأتفرج بنظر صيدهم. فمضى الزمَّام إلى الحافظ وقال له: إن الضيف فلاناً يخرج معنا؟ كأنه يستطلع أمره في ذلك. فقال [لي]: اخرج معه تَفرَّج على الجوارح.

فخرجنا يوماً ومع بعض البازيارية باز مقرنص(٤٣٨) بيت أحمرُ العينين. فرأينا كراكي فقال له الزمّام: تقدم ارم عليها الباز الأحمر العينين! فتقدم رماه، وطارت الكراكي، فلحق منها واحداً على بُعْدٍ مِنَّا فحطه. فقلت لغلام لي على حصان جيد: ادفع الحصان إليه وانزل اغرز منقار الكركي في الأرض واكتفه واترك رجليه تحت رجليك إلى أن نصلك. فمضى وعمل ما قلت له، ووصل البازيار ذبح الكركي وأشبع الباز.

فلما دخل الزمَّام حدَّث الحافظ بما جرى وما قلته للغلام وقال: يا مولانا حديثه حديث صياد. قال: وأي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟!!.

وكان معهم صقور يرسلونها على البلاشين وهي طائرة. فإذا رأى البلشون(٤٣٩) الصقر دار وارتفع، والصقر يدور في جانب آخر حتى يرتفع

---

(٤٣٧) الحافظ لدين الله عبد المجيد أبي الميمون. انظر حاشية (١٤).

(٤٣٨) باز مقرنص بيت: قرنس وقرنص البازي إذا كرز وحيطت عيناه أول ما يصطاد (القاموس المحيط ٢/٢٤٠) وقرنص البازي: اقتناه للاصطياد (القاموس المحيط ٤ ٣١٣). وقد ورد في بيت: نبت فيه الريش بعد أن ترك دون صيد في الحبس. وجاء ذكر الاصطلاح في بيت في رسالة الأمير يغمر العكبري (خريدة القصر ١/٣٧٨)، وقد شرح شيء من ذلك في العزيز بالله الفاطمي (تحقيق محمد كرد علي) ٧٣ ـ ٧٩ فصله يوضح معنى القرنصة وأصولها.

(٤٣٩) البلشون: هو مالك الحزين. ذكره الدميري في حياة الحيوان ١/٢٧٩، ٢/٥٨، وجاء ذكره مراراً في كتاب البيزرة، انظر مثلاً ٦٨، ٧٠، ٩٤

Marfat.com

على البلشون، ثم ينقلب عليه يأخذه.

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البُجّ مثل النَحّام يصيدونها أيضاً. وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد. والغزال عندهم قليل، بل في تلك البلاد بقر بني إسرائيل، وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر وهي أصغر من البقر تعدو عدواً عظيماً. وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغار. وهي جرداء مثل الجاموس، لها أنياب طوال في فكيها الأسفل، وفي فكها الأعلى خروق لأنيابها تخرج رؤوسها من تحت عينيها، وصياحها مثل صياح الخنزير. ولا تبرح في بركة فيها ماء وتأكل الخبز والحشيش والشعير.

ـ ١٩٠ ـ

وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين ـ رحمه الله ـ إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فلك. فرأينا رجلاً من الجنوية قد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي، ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته. فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنوي أن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركي. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك.

فطلبه الأمير معين الدين ـ رحمه الله ـ من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين. فجاء [٥٨ ب] معنا فرأيته في الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم. ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

ـ ١٩١ ـ

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابن

Marfat.com

داود ـ رحمه الله ـ. وهناك الحجل والزرخ(٤٤٠) كثير والدراج فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكن الباز منها. وأكثر صيدهم الأراويّ(٤٤١) ومعزى الجبل يعملون لها شباكاً ويمدونها في الأودية ويطردون الأراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد وكذلك الأرانب.

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله فحضرته ونحن بأرض حماة وقد جلوا له أرنباً. فضربها بنشابة كشماء(٤٤٢) وقامت وسبقت إلى مجحر دخلته فركضنا خلفها ووقف عليها نور الدين وناولني الشريف السيد بهاء الدين(٤٤٣) ـ رحمه الله ـ رجلها قد قطعتها النشابة من فوق العرقوب وشقت جوفها قرنة النصلة فوقع منها بيت الولد. وسبقت بعد هذا وانجحرت. فأمر نور الدين بعض الوشاقية(٤٤٤) نزل وقلع خفافه ودخل خلفها، فما وصل إليها. وقلت للذي معه بيت الأولاد وفيه خرنقان(٤٤٥): شُقَّهُ!! وأطمرهم بالتراب، ففعل فتحركوا وعاشوا.

---

(٤٤٠) في الحاشية: «وهو الطيهوج» وقال ابن منظور في اللسان «طيهوج» طائر حكاه ابن دريد وقال: ولا أحسبه عربياً» ونقل عن الأزهري قوله: «طائر أحسبه معرباً وهو ذكر السلكان» (مادة: «طهج» من لسان العرب) وذكر دوزي «زرح» وقال: إنه الطيهوج ١/ ٥٨٤ وأشار إلى مخطوطة لكتاب الحيوان، نسخة الأسكوريال، رقم ٨٩٣، وذكر الدميري الطيهوج وقال فيه: «طائر شبيه بالحجل الصغير...» (٢/ ١٧٦) ولم يذكر الزرح

(٤٤١) الأراوي: جمع أرويّة وهي أنثى الوعول وهي أراوي والكثير منها أروى (القاموس المحيط روى).

(٤٤٢) نشابة كشماء، انظر حاشية (١٣١).

(٤٤٣) لم نقف على ترجمته. فلعله الأمير الشريف بهاء الدين عبد الله بن ... ذكره صاحب المحسن بن أبي الندى المعري، انظر جريدة القصر ـ قسم شعراء ... ٢ ـ ٧١ ـ ٧٢، ٩٠.

(٤٤٤) الوشاقية أو الأوجاقية وهم في الأصل حملة المشاعل وهنا بمعنى الحرس الخاص

(٤٤٥) الخرنق: الفتي من الأرانب أو ولده (القاموس المحيط ٣/ ٢٢٧) وانظر الدميري، حياة الحيوان ١/ ٥٢٠، ٢/ ٢٧ في مادة «السحلة»

Marfat.com

وحضرته يوماً وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار بأرض حلب فركض خلفه وأنا معه. فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها. فصارت الكلبة تعوي ونور الـدين ـ رحمه الله ـ يضحك، ثم خلاها وانجحر فما قدرنا عليه.

وجاءه يوماً ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد باز. فقال لنجم الدين أبي طالب بن علي كرد[٤٤٦] ـ رحمه الله ـ: قل لفلان ـ يعنيني ـ يأخذ هذا الباز يلعب به! فقال لي، فقلت: ما أحسن له! فقال نور الدين: أنتم في الصيد ما كنتم تزالون؟! ما تحسن تصلح الباز؟ قلت: يا مولاي ما كنا نصلحها نحن، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قُدَّامنا. وما أخذت الباز.

ـ ١٩٣ ـ

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئاً كثيراً ما اتسع لي الوقت لذكره مفصلاً. وكانوا قادرين على ما يحاولونه، من صيد وآلته وغيره. وما رأيت مثل صيد والدي ـ رحمه الله ـ فما أدري، كنت أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحبوب محبوب»؟ ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق؟ وأنا أذكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه.

وذلك أن والدي ـ رحمه الله ـ كان قد فرغ زمانه [٥٩ أ] لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى. فكان قد نسخ ستاً وأربعين ختمة بخطه ـ رحمه الله ـ منها ختمتان بالذهب جميع القرآن. ويركب إلى الصيد يوماً ويستريح يوماً، وهو صائم الدهر.

ولنا بشيزر متصيدان: متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي البلد ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على النهر في الأزوار من غربي

---

(٤٤٦) نجم الدين أبي طالب بن علي كرد: ورد ذكر أبيه في حاشية (٢١٣).

Marfat.com

البلد وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه إلى البلاد لشرى البزاة. حتى أنه أنفذ إلى القسطنطينية أحضر له منها بزاة. وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم فتغير عليهم البحر وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة فاضطروا إلى أن صاروا يطعمون البزاة لحم السمك. فأثر ذلك في أجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف. فلما وصلوا بها إلى شيزر كان فيها بزاة نادرة. وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها يقال له: غنائم فوصل أجنحتها واصطاد بها وقرنص بعضها عنده.

ـ ١٩٤ ـ

وكان أكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي ابن الأحمر[٤٤٧] بالعلاة فأحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشيلا بسمالـخ وحلة عاراً[٤٤٨] وتحدث معهم في أن يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة، ووهبهم وكساهم. فمضوا وعملوا بيوت الصيد. فاصطادوا بزاة كثيرة فراخاً ومقرنصة وزرارق[٤٤٩]. فحملوها إلى الوالد وقالوا: يا مولانا نحن قد بَطَّلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك. ونشتهي أن تأخذ مِنَّا كلَّ ما نصيده وتقرر لنا ثمناً نعرفه لا نجاذب فيه. فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً، وثمن الزرَّق الفرخ نصفها، وثمن الباز المقرنص عشرة دنانير وثمن الزرق المقرنص نصفها وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب. إنما يعمل له بيتاً بحجارة

---

(٤٤٧) وادي ابن الأحمر بالعلاة انظر حكاية ١٩٦، وقد ورد ذكره في تاريخ ابن القلانسي ٢٥٨. والكامل لابن الأثير ٨/٣٥٧ (مطبعة السعادة).

(٤٤٨) لم نجد لهذه القرى ذكراً في ما لدينا من كتب البلدان فنعلق بعضها لحقه التصحيف والتحريف فلم يتبين لنا أصلها.

(٤٤٩) زرارق مفردها زرّق على وزن سكّر والجمع عند الفيروز ابادي زراريق وهو طائر معلّم وذكره الدميري في حياة الحيوان. وقال: «طائر يصاد به الباز والشاهين، وأحال على ابن سيده والفراء» ٢/٨. وجاء ذكره في كتاب السيرة ٧٩، ٨٤

Marfat.com

على قدر خلقته ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل نافذة ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة ويُحَرِّك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته. فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه. فإذا أحس به الصياد جذب القضيب إلى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز، وهو قابض للطير الحمام، وأنزله إليه وخيط عينيه(٤٥٠). ويصبح من الغد يصلنا به، يأخذ ثمنه ويعود إلى بيته بعد يومين.

فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج: فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر(٤٥١) من كثرتها.

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية(٤٥٢). وعلمٌ قوماً من مماليكه إصلاح البزاة فمهروا فيها. وكان [٥٩ ب] يخرجٍ إلى الصيد ونحن أولاده معه في أربعة رجال ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا، فإنا ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا. ويخرج معنا بزاة كثيرة من العشرة وما حولها ومعه صقاران وفهادان وكلابزيان، مع أحدهما كلاب سلوقية ومع الآخر كلاب زغاوية. فيوم خروجه إلى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل: تفرقوا كلٌ من عليه قراءة يقرأها(٤٥٣)، ونحن أولاده حفاظ القرآن. فنفترق نقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد مِنَّا؟ فإذا أخبرناه يقول: أنا قرأت مائة آية أو نحوها. وكان ـ رحمه الله ـ يقرأ القرآن كما أنزل.

فإذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فيتفرق بعضهم مع البازيارية فكيف

---

(٤٥٠) خيط عين الباز: إذا حجبها بكيس من الجلد أو القماش وقد وردت مراراً في كتاب البيزرة لبازيار العزيز الفاطمي (تحقيق محمد كردعلي) دمشق ١٣٧٢.

(٤٥١) الكنادر: مفردها كندر وهو مجثم البازي (القاموس المحيط «كندر»). وقد وردت مراراً في كتاب البيزرة بصيغة المفرد «كندر» والجمع كنادر.

(٤٥٢) كلابزي: مدرب الكلاب ومروضها. ومثله الصقار والفهاد.

(٤٥٣) أي من سور القرآن الكريم.

Marfat.com

طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليها، ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبر الناس بالصيد. فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال إلا اصطدناه. وننتهي في الجبل نصيد إلى العصر ثم نعود وقد أشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت(٤٥٤) في الجبل شربت واستحمت. ونعود إلى البلد بعد عتمة.

فإذا ركبنا إلى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا. نقع في الصيد من باب المدينة ثم نصل إلى الأزوار فتقف الفهود والصقور برا من الزور وندخل إليه بالبزاة. فإن طارت دراجة أخذها الباز، وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة فإن أخذها وإلا خرجت إلى الفهود أرسلوا عليها. وإن قفز غزال خرج إلى الفهود أرسلوا عليه. فإن أخذ وإلا أرسلوا عليه الصقور فما يكاد يفلت منا صيد إلا بفسحة الأجل.

وفي الأزوار خنازير كثيرة تخرج فنركض عليها ونقتلها فيكون فرحنا بقتلها أكثر من فرحة الصيد.

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم، لا يشتغل أحد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم إلا التبحُّر في الأرض لنظر الأرانب أو الطير في أوكارها.

ـ ١٩٥ ـ

وكان قد صار بينه وبين بني روبال ـ تروس ولاون(٤٥٥) الأرمن من أصحاب المصيصة(٤٥٦) وأنطرطوس وأذنة والدروب ـ مصادقة ومكاتبة كثير

---

(٤٥٤) القلوت: جمع قلت وهو النقرة في الأرض أو الصخر يستنقع فيها الماء.

(٤٥٥) بنو روبال تروس وهم: Rupenid Thoros I ، وبنو الأول أمير كيليكيا الذي لاقى فيليب أغسطس Leon وله ذكر كثير في كتب التواريخ ويلقبه المؤرخون المسلمون بابن الأرمنية أو ابن لاون.

(٤٥٦) مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس وقد

Marfat.com

سببها رغبته في البزاة. فكانوا ينفذون له كل سنة عدة من عشرة بزاة أو ما حولها على أيدي رجالة أرمن بازيارية وينفذون الكلاب الزغاوية. وينفذ لهم هو الحُصُنَ والطيبَ ومن كسوة مصر. فكان يجيئنا من عندهم بزاة ملاح نادرة فاجتمع [٦٠ أ] عندنا في بعض السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبزاة دونه.

وجاءنا من الجبل عدة بزاة فيها باز كأنه صقر عريض فرخ ما يلحق بتلك البزاة، والبازيار غنائم يقول: ما في هذه البزاة كلها مثل هذا الباز اليحشور. ما يترك شيئاً إلا يصيده ونحن لا نصدقه. ثم أصلح ذلك الباز فكان كما ظن فيه من أفره البزاة وأطيرها وأشطرها. وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود مما كان. وعمّر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة. فكان قد صار كأنه من أهل البيت يصطاد للخدمة لا لما تجرت به عادة الجوارح أن يصيدوا لنفوسهم.

وكان مقامه عند الوالد ـ رحمه الله ـ لا يتركه عند البازيار، لأن البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصطاد به. وذلك الباز كان يكفي من نفسه ويعمل ما يراد منه. فكنا نخرج إلى صيد الحجل ومعنا عدة بزاة فيدفعه الوالد إلى بعض البازيارية ويقول: اعتزل به ولا ترسله بالجملة وتَسَتَّر في الجبل فكلما أبصروا حجلة لابِدَةً في شجرة قد أعلموه بها يقول: هاتوا اليحشور، ساعة يقيم يده له قد طار من على يد البازيار وقع على يده بغير دعوٍ. ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب

= ياقوت: «وهي الآن (حدود سنة ٦٠٠ هـ) بيد ابن ليون وولده بعده منذ أعوام كثيرة (معجم البلدان ٥/١٤٥). أما عن:
انطرسوس أو طرسوس، انظر عنها (معجم البلدان ٤/٢٨ ـ ٢٩).
وأذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة. قال ياقوت: «بنيت أذنة سنة إحدى أو اثنتين وأربعين ومئة» (معجم البلدان ١/١٣٣). وهي في تركيا الآن باسم أطنه أو أدنه.
والدروب: قال ياقوت: «إذا أطلقت لفظ الدرب أردت به ما بين طرسوس وبلاد الروم». (معجم البلدان ٢/٤٤٧).

Marfat.com

في يده فتطير، ويرسل عليها اليحشور فيأخذها في عشرة أذرع. وينزل إليه البازيار يذبح في رجله ويرفعه. فيقول: اعتزل به. فإذا رأوا حجلة أخرى لابدة عمل بها ذلك حتى يصيد خمس ست حجلات ـ كذا يأخذها في عشرة أذرع. ثم يقول للبازيار: أشبعه! فيقول له: يا مولاي! ما تدعه نتصيد به؟ يقول: يا بني، معنا عشرة بزاة نتصيد بها وهذا قد أصاد، هذه الإطلاق تقطع عمره. فيشبعه ويعتزل به البازيار.

فإذا أنهينا من الصيد وأشبعنا البزاة وحططناها على الماء شربت واستحمت واليحشور على يد البازيار. فإذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبلِ قال: هات اليحشور، حمله على يده وسار، فإن طارت حجلة من بين يديه أرسل عليها صادها حتى يصيد عشرة أطلاق أو أكثر على قدر ما يطير له من الحجل، وهو شبعان لا يحط منسره في مذبح حجلة ولا يذوق دمها. فإذا دخلنا إلى الدار قال: هاتوا طاسة ماء فجاؤوا بطاسة فيها ماء قدمها إليه وهو على يده ـ رحمه الله فيشرب [٦٠ ب] منها وإن كان يريد يستحم خضخض منسره في الماء فيدري أنه يريد يستحم فيأمر بإحضار جفنة كبيرة فيها ماء ويقدمه إليها. فيطير ينزل في وسطها ويدف في الماء حتى يكتفي من السباحة ثم يطلع، فيحطه على قفاز خشب، قد عمل له، كبير ويقرب منه منقل نار فيتمشق ويتدهن حتى ينشف من الماء. ثم يوضع له فروٌ مطويٌّ فينزل إليه ينام عليه. فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائماً حتى يتهور الليل ويريد الوالد يدخل إلى دار الحرم فيقول لأحدنا: احمله! فيحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط إلى جانب فراش الوالد، ـ رحمه [الله] ـ.

وكان من عجائب هذا الباز، وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها ما يحضرني ذكره فإن الأمد قد طال وأنستني السنون كثيراً من أحواله، إن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر وإناثها وبيضانيات[٤٥٧] من التي تكون بين البقر

---

(٤٥٧) البيضانيات ومفردها بيضاني: نوع من الطيور، جاء ذكرها مراراً في كتاب السياسة لمؤلف مجهول (تحقيق محمد كردعلي، دمشق ١٣٧٢ هـ) ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٦٩

Marfat.com

لتلقط الذبان من الدار. وكان يدخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز إلى جانبه فلا يطلب شيئاً من تلك الطيور ولا يثب إليها، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها.

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برا من سورها نقاع كبار ماء وفيها الطيور. فيأمر الوالد البازيار وغلاماً معه يخرجا إلى قريب من تلك الطيور. ويأخذ اليحشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور. وهو شرقي البلد والطيور غربيها فإذا أبصرها أرسله فينزل يُسفُّ[٤٥٨] على البلد حتى يخرج منه وينتهي إلى الطيور فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع أرسل منه مسافة بعيدة.

وكنا نخرج إلى صيد طير الماء والدراج ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد، فيقول الوالد: هات اليحشور! فيأخذه وهو شبعان ويتقدم إلى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها. فإن أصاد وقع بيننا نزل إليه البازيار ذبح في رجله ورفعه. وإن لم يصد وقع على بعض أكهاف[٤٥٩] النهر فما نراه ولا ندري أين وقع، فنخليه وندخل إلى البلد. ويصبح البازيار من سحر يخرج إليه يأخذه ويطلع به إلى الحصن إلى عند الوالد ـ رحمه الله ـ ويقول له: يا مولاي قد صقل هذا الصقيع قفاه طول الليل، وقد أصبح يقط البولاد، فاركب أبصر أيش يعمل اليوم؟!.

وما كان يفوت هذا الباز بشيء من الصيد من السمانة إلى الوز السمند والأرنب. وكان البازيار يشتهي أن يصيد به الكراكي [٦١ أ] والحرجل[٤٦٠] ما يتركه الوالد ويقول: الحرجل والكراكي تصيدها بالصقور. وكان هذا الباز قد قصر

---

(٤٥٨) أسفّ الطائر إذا دنا من الأرض في طيرانه (القاموس المحيط «سفّ»).
(٤٥٩) هكذا في المخطوطة: «أكهاف» ويريد به جمع كهف. أو لعل الكلمة تصحيف «أكتاف».
(٤٦٠) الحرجل: طائر، ورد ذكره في رسالة الأمير يغمر بن عيسى العكبري في الصيد في وصفه الباز الأسود (خريدة القصر، قسم الشام ١/٣٧٧).

Marfat.com

عما نعهده من صيده سنة من السنين، حتى أنه كان إذا أرسل وأخطأ لا يجيء إلى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به. ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد. واستحم يوماً، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه وإذا في جانبه سلعة في قَدِّ اللوزة. فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال: يا مولاي هذه التي قصرت بالباز وكادت تهلكه. ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة يابسة وختم موضعها. وعاد اليحشور إلى الطيور بالسيف والنطع.

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا[٤٦١] صاحب حماة في ذلك الوقت ينفذ كل سنة يطلب الباز اليحشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوماً يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود، فمات الباز بشيزر.

واتفق أنني كنت قد زرت شهاب الدين إلى حماة. وأصبحت يوماً وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد. فسألت من قد مات؟ قالوا: بنت لشهاب الدين. فأردت الخروج خلف الجنازة فماحكني شهاب الدين ومنعني. وخرجوا قبروا الميت في تل صفرون[٤٦٢]. فلما عادوا قال لي شهاب الدين: تدري من هو الميت؟ قلت: قالوا: ولدٌ لك! قال: لا والله بل هو الباز اليحشور. سمعت أنه قد مات، أنفذت أخذته وعملت له تابوتاً وجنازة وقبرته فإنه كان يستحق ذلك.

ـ ١٩٦ ـ

وكان للوالد ـ رحمه الله ـ فهدة في الفهود مثل اليحشور في البزاة. اصطادوها وهي وحشية، من أكبر ما تكون من الفهود. فأخذها فهيدة

---

(٤٦١) شهاب الدين محمود بن قراجا، انظر ترجمته في حاشيه ٩٨

(٤٦٢) تل صفرون: الظاهر أنه تل قريب من حماة، لم يحدده ذكر أحد البلدانيين وقد سألت حماة من أهل حماة فلم يعرفوه وذكره ابن واصل فقال: «ظاهر حماة» مفرج الكروب ٣/ ١٣٢، ٥/ ٢٢٤

Marfat.com

وقَرمَها[٤٦٣] واستجابها. وكانت تركب ولا تريد الصيد. وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتُزْبِد، ويقدم إليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته. وبقيت كذلك مدة طويلة نحواً من سنة. فخرجنا يوماً إلى الأزوار، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقف في فم الزور، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني. فقام من الزور غزال وخرج إليَّ فدفعت حصاناً كان تحتي من أجود الخيل أُريد أرُدَّه إلى الفهدة. وعاجله الحصان ندسه بصدره رماه، فوثبت الفهدة صادته. فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت [٦١ ب]: خذوا من الصيد ما أردتم فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه. ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت أن تقول: قد وقَفتْ تُجَدِّد عدواً أو تأخذ الغزال.

وصيدنا بشيزر الغزال الأدمي، وهو غزال كبير. فكنا إذا خرجنا بها إلى العلاة والأرض الشرقية وفيها الغزال الأبيض لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها إلا تجذبه ترميه، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى أنهم خشوف لصغر الغزال الأبيض.

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ـ رحمه الله ـ وله جارية تخدمها. ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس، وفي الحائط سكة مضروبة فيجيء الفهَّاد بها من الصيد إلى باب الدار يَحلُّها وفيها الرسنة[٤٦٤] وتدخل إلى الدار إلى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه. وتجيء الجارية تربطها إلى السكة المضروبة في الحائط. وفي الدار والله، نحو من عشرين غزال أدمي وأبيض وعجول ومعزى وخشوف قد توالدت في

---

(٤٦٣) قرم بمعنى درّب على الأكل أو ذلل قياد الحيوان (القاموس المحيط ٤/١٦٣) واستجابها: بمعنى درَّبها على الاستجابة لأوامر الفهاد.

(٤٦٤) في المخطوطة «المرسة» وهي الحبل (القاموس المحيط ٢/٢٥١) ويمكن أن تقرأ الرسنة أو الرشمة، والرَسَن، محركة، الحبل وما كان من زمام على أنف. (القاموس المحيط ٤/٢٢٧).

Marfat.com

الدار فلا تطلبهم ولا تُرَوِّعهم. ولا تزول عن موضعها، وتدخل إلى الدار وهي مُسَيَّبة فلا تلتفت إلى الغزلان.

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرِّح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تنفر. ورأيتها يوماً وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها وهي تُتْلِتِلُها وتضربها حيث بالت على القطيفة ولا تَهُرُّ عليها ولا تَضرُّبها.

ورأيتها يوماً وقد أثارت من بين يدي الفهاد أرنبين، وقد لحقت الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعت الأخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الأوَّلة. فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب.

ـ ١٩٧ ـ

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبدالله الطليطلي النحوي(٤٦٥) ـ رحمه الله ـ وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم(٤٦٦) بطرابلس. فلما أخذ الإفرنج طرابلس نفذ الوالد والعم ـ رحمهما الله ـ استخلصا الشيخ أبا عبدالله هذا ويانس الناسخ(٤٦٧)، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب. أقام عندنا

---

(٤٦٥) أبو عبدالله الطليطلي النحوي نزيل شيزر: ورد له ذكر في الخريدة ١/٥٧٣ وذكر العماد أن «ابن منيرة الكفرطابي ذكر أنه كان قرأ على الطليطلي، لقيت من قرأ عليه وهو أبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري بدمشق» وهذا الشاعر نظم قصيدة في الرد على أسامة بن منقذ، انظر الخريدة ١/٥٧٦ ـ ٥٧٩، وجاء له ذكر في تاريخ ابن عساكر في ترجمة الوأواء الحلبي فقال: «وكان بينه وبين أبي عبدالله الطليطلي النحوي [illegible] مكاتبات» (الخريدة ٢/١٥٥ حاشية) وقال ياقوت: «روى كتاب [illegible]» توفي يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر سنة ٤٥٨ (معجم البلدان ٤ ٤٠) [illegible] ترجمة ابن الخياط في سير أعلام النبلاء ١٩/٤٧٧، ٤٨٠

(٤٦٦) دار العلم بطرابلس، أنشأها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار وكان فيها ما يزيد على مئة ألف كتاب وقفا. انظر: الأعلاق الخطيرة لابن شداد جـ ٢/ قسم ٢ صفحه ١٠٧

(٤٦٧) يانس الناسخ: قال المقريزي في حوادث سنه ٥٠٦ هـ «وفيها وصل يانس الناسخ من الشام

Marfat.com

بشيزر مدة ونسخ للوالد، رحمه الله، ختمتين. [٦٢ أ] ثم انتقل إلى مصر ومات بها.

ـ ١٩٨ ـ

وشاهدت من الشيخ أبي عبدالله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: كتاب سيبويه وكتاب الخصائص لابن جني وكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب اللمع(٤٦٨) وكتاب الجمل فقلت يا شيخ أبا عبدالله قرأتَ هذه الكتب كلَّها؟ قال: قرأتها؟! لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري؟! خذ جزءاً وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً. فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت منه سطراً. فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها. فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر.

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث.

ـ ١٩٩ ـ

شاهدته وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة وهو راكب في رجليه أفدام(٤٦٩). وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه أدماهما، وهو مشغول

= فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير..» (اتعاظ الحنفا ٣/٥١).
وورد له ذكره في الروضتين، فقد كتب حسبانات مصر حين طلبها نور الدين محمود من صلاح الدين الأيوبي وأنفذ الموفق ابن القيسراني إلى مصر من أجلها. قال أبو شامة: «وقفت على برنامج شرحها بخط الموفق القيسراني وهي خمس ختمات إحداها ختمة ثلاثون جزءاً.. مكتوبة بخط يانس (الروضتين ١/٢١٩).

(٤٦٨) كتاب اللمع، لعله للعجمي الذي ذكره أسامة نفسه في كتاب البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (القاهرة ١٣٧٠ هـ) ص ٨ وكتاب الجمل، لعله كتاب الجمل في النحو للزجاجي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ.

(٤٦٩) أفدام: الظاهر أنها جوارب من القماش لأن الفدام هو ما يشدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب، وفي اللسان «فدموا أفواههم إذا غطوها» (لسان العرب ١٥/٣٤٨).

Marfat.com

ينظر صيد الفهدة ولا يحس بتألم رجليه ـ مشغول بما يراه من تَسللِّها إلى الغزلان وعدوها وحسن صيدها.

ـ ٢٠٠ ـ

وكان الوالد ـ رحمه الله ـ محظوظاً من الجوارح النادرة الفارهة وذلك أنها كانت عنده كثيرة فيندر منها الجارح الفاره. وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت أحمر العينين فكان من أفره البزاة. فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوج مقلد، ـ رحمه الله ـ من مصر ـ وكان مقامه بها في خدمة الآمر بأحكام الله ـ[٤٧٠] يقول: سمعت في مجلس الأفضل[٤٧١] ذكرُ الباز الأحمر العينين، والأفضل يستخبر المحدث عنه وعن صيده. فنفذه الوالد ـ رحمه الله ـ مع بازياره إلى الأفضل. فلما حضر بين يديه قال له: هذا هو الباز الأحمر العينين؟ قال: نعم يا مولاي! قال: أي شيء يصيد؟ قال: يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد. فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية، ثم عادوا اصطادوه. فجاءنا كتاب عمي، رحمه الله يقول: الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز وعادوا اصطادوه وتصيدوا به. وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة.

ـ ٢٠١ ـ

وكنا يوماً عند الوالد ـ رحمه الله ـ، وقد جاء إنسان من فلاحي معرة

---

(٤٧٠) الآمر بأحكام الله الفاطمي، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المستعلي بالله سنة ٤٩٥ هـ، وقيل الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤ هـ.

(٤٧١) الأفضل: هو بدر بن عبدالله الجمالي، أمير الجيوش، توفي سنة ٤٢٨ هـ، وتولى ابنه الأفضل أبو القاسم فوزر للمستنصر والمستعلي والآمر ثم قتل في رمضان سنة ٥١٥ هـ. (حسن المحاضرة للسيوطي ٢/٢٠٤)

Marfat.com

النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير، ما رأيت قط بازاً مثله [٦٢٠ب] وقال: يا مولاي، كنت أَصْلي(٤٧٢) الدلم(٤٧٣) بالنادوف(٤٧٤) فضرب هذا الباز على دلمة في النادوف فأخذته وحملته إليك. فأخذه وأحسن إلى الذي أهداه. ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه. وإذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الإفرنج وقرنص في جبل المعرة. فكان من أفره الجوارح وأشطرها.

ـ ٢٠٢ ـ

وشاهدت يوماً وقد خرجنا معه ـ رحمه الله ـ إلى الصيد وقد استقبلنا على بُعْدٍ رجل معه شيء ما نتحققه. فلما دنا منا وإذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله. فدلاه ومسك ساقيه ورجليه ـ والشاهين مدلي منشور الأجنحة. فلما وصلنا قال يا مولاي: اصطدت هذا انطير وقد جئت به إليك. فسلمه الوالد إلى البازيار فأصلحه ووصل ما انكسر من ريشه. ولم يخرج مخبره مثل منظره، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به. والشاهين ـ هو الميزان ـ(٤٧٥) أدنى شيء يعيبه ويفسده. وكان هذا البازيار صانعاً مجوداً في إصلاح الشواهين.

كنا نخرج من باب المدينة إلى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد، حتى

---

(٤٧٢) أصلي الشيء: داراه وخاتله وخدعه.

(٤٧٣) الدلم: ذكر الدراج وضرب من القطا، وذكر الدميري الديلم وقال: «إنه ذكر الدراج» (١/٦٢٥).

(٤٧٤) النادوف: نوع من آلات الصيد تدفن في الأرض.

(٤٧٥) الشاهين هو الميزان: يعني أن معنى الشاهين ـ لغوياً ـ هو الميزان وهذا المعنى مما استدركه الزبيدي في تاج العروس علي الجوهري (تاج العروس ٩/٢٥٧) ويسمى «الشاهول» في بغداد وبخاصة عند البنائين في عصرنا. وذكر الدميري مثل هذا وقال: «يقول بعضهم الشاهين كاسمه يعني الميزان لأنه لا يتحمل أدنى حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع (حياة الحيوان ٢/٨٢).

Marfat.com

الشباك والفؤوس والمجارف والكلاليب لما ينجحر من الصيد ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب. فإذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب. فإذا خرج أحدهما عن القصد تنحنح البازيار وأشار بيده إلى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته إلى ذلك النحو. ورأيته وقد أدار شاهيناً على قطعة من الصلاصل(٤٧٦) نازلة في مرج. فلما أخذ الشاهين طبقته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صُلصُلة قطعة، وأخذها ونزل فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه. وأراه قد وقع على بعد في الماء لأننا كنا بالقرب من النهر.

وقال له يوماً غلام يقال له ـ أحمد بن مجير لم يكن ممن يركب معه: يا مولاي اشتهيت أبصر الصيد. قال: قدموا لأحمد فرساً يركبه ويخرج معنا. فخرجنا إلى صيد الدراج فطار ذكر ونَتَر كما جرت العادة وعلى يد الوالد رحمه الله اليحشور فأرسله عليه فطار مع الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع [٦٣ أ] ارتفاعاً كبيراً. فقال له أحمد: يا مولاي وحياتك كان يتلاهى به حتى أخذه.

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغاوية كلاب جياد ذكور وإناث. فكانت تتوالد عندنا وصيدها الطير طبع فيها.

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابزي. فأرسل بازاً على دراجة فبنجت(٤٧٧) في غلفاء(٤٧٨) في حرف

(٤٧٦) الصلاصل: جمع صلصلة وهو الحمام (القاموس المحيط ٤ / ٣)
وقال الدميري: «الصلصل بالضم الفاختة» (حياة الحيوان ٢ / ١١٩، ٣٣١)

(٤٧٧) نبجت أو بنّجت: صاحت أو خرجت من وكرها أو مستقرها (انظر حاشية ١٦٨) وهي من نبج الحيوان إذا صاح وبنّجت القحبة صاحت من حجرها

(٤٧٨) غلفاء: الأرض التي لم ترع ففيها كل صغير وكبير من الحلا (لسان العرب ١١ / ١٧٨) (وانظر حاشية ١٦٩).

Marfat.com

النهر. فأرسلوا الكلاب على الغلفاء لتطير الدراجة وتلك الجروة واقفة على الجرف. فلما طارت الدراجة وثَبَت الجروة خلفها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر وما تعرف الصيد ولا صادت قط.

ـ ٢٠٤ ـ

ورأيت كلباً من هذه الزغاوية وقد نبجت حجلة في الجبل في نبج[٤٧٩] صعب وقد دخل إليها الكلب وأبطأ. ثم سمعنا حشكة[٤٨٠] في داخل النبج فقال الوالد رحمه الله: في النبج وحش وقد قتل الكلب. ثم بعد ساعة خرج الكلب يجر رجل ابن آوى وكان في النبج قد قتله وجره أخرجه إلينا.

ـ ٢٠٥ ـ

وكان الوالد رحمه الله سار إلى أصبهان إلى دركاه[٤٨١] السلطان ملك شاه ـ رحمه الله ـ فحكى لي قال: لما قضيت أشغالي من عند السلطان وأردت السفر أردت أستصحب معي جارحاً أتفرج به في طريقي، فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عرس مُعَلَّم يخرج الطيور من النبج فأخذت صقوراً تصيد الأرانب والحبارى. واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة.

وكان عنده رحمه الله ـ من الكلاب السلوقية كلاب جياد. أرسل يوماً الصقور على الغزلان والأرض غب مطر ثقيلة بالوحل، وأنا معه صغير على برذون لي، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين وبرذوني لخفَّتي عليه مستظهر وقد صرعت الصقور والكلاب الغزال. فقال لي: يا أسامة الحق الغزال وانزل امسك رجليه إلى أن نجيء! ففعلت، ووصل هو رحمه الله

---

(٤٧٩) النبج: الأكمة، وانظر حاشية ١٦٨.

(٤٨٠) حشكة: صوت ارتطام واختلاط أصوات، والصواب: حوشكة (القاموس المحيط ٣/٢٩٩).

(٤٨١) دركاه: بلاط السلطان.

Marfat.com

فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد، يسمونها الحموية قد صرعت الغزال ـ وهي واقفة ـ وإذا قطعة الغزلان التي اصطدنا منها قد عادت عابرة علينا. فأخذ ـ رحمه الله ـ قلادة الحموية وخرج يهرول بها حتى رأت الغزلان. وأرسلها عليها اصطادت غزالاً آخر.

وكان، رحمه الله مع ثقل جسمه وكبر سنه وأنه لا يزال صائماً يركض نهاره كله وكان لا يتصيد إلا على حصان أو اكديش جواد، ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكل وهو لا يضعف [٦٣ ب] ولا يكل ولا يتعب. ولا يقدر وشاقي ولا صاحب جنيب ولا حامل سلاح يقصر في الركض على الصيد.

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب حصاني فلا يركض على الضيد ولا يتبعه، فيحرد الوالد عليه: فعل ذلك مرة بعد مرة. فقال له الغلام: يا مولاي! ما ينفعك أحد من الحاضرين، والعياذ بالله، مثل ابنك هذا، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه، إن احتجته وجدته، واحسب أني ما أنا معكم. فما عاد يلومه ولا ينكر عليه كونه ما يركض على الصيد.

ـ ٢٠٦ ـ

ونزل علينا صاحب[٤٨٢] أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح. فركب الوالد ـ رحمه الله ـ إلى الصيد وآخرهم ما أبعد عن البلد، فتبعتهم خيلنا، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد. ووصل الإفرنج إلى البلد والوالد قد طلع على تل سكين[٤٨٣] يراهم وهم بينه وبين البلد. وما زال واقفا على التل إلى أن انصرفوا عن البلد وعاد إلى الصيد.

ـ ٢٠٧ ـ

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر. فصرع منها

(٤٨٢) كان تنكرد إدا ذاك صاحب أنطاكية.

(٤٨٣)تل سكين: يقع إلى الجنوب الغربي من شيزر (دوسو ٢٠٩)

Marfat.com

يوماً خمسة أو ستة على فرس له دهماء تسمى فرس خرجي باسم صاحبها الذي أباعها. كان اشتراها الوالد منه بثلاث مئة وعشرين ديناراً. فطرد آخر اليحامير، فوقعت يدها في حفرة مما تُحفر للخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقوته، ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعاً وهو مطروح، ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب وتصهل حتى قام وجاءه الغلمان اركبوه. فهذا فعل الخيل العربية.

وخرجت معه ـ رحمه الله ـ إلى نحو الجبل لصيد الحجل. فنزل غلام له اسمه لؤلؤ ـ رحمه الله ـ لبعض شغله، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحته برذون فرأى ظِلَّ تركشه[٤٨٤] أجفل منه فرماه وانفلت. فركضت والله عليه أنا وبعض الغلمان من بكرة إلى بعد العصر إلى أن ألجـأناه إلى جشار[٤٨٥] فـي بعض الأزوار. وقام الجشارية مدواً له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش. وأخذته وعدت والوالد ـ رحمه الله ـ واقف في ظاهر البلد ينتظرني ما يصيد ولا نزل في داره. فالبراذين بالوحش أشبه مما هي بالخيل.

ـ ٢٠٨ ـ

حكى لي ـ رحمه الله ـ قال: كنت أخرج إلى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرمير[٤٨٦] ـ رحمه الله ـ وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية ـ فكنا إذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس

---

(٤٨٤) تركش أو تركاش: كلمة فارسية تعني كنانة السهام أو جعبتها.

(٤٨٥) جشار: الجشر، إخراج الدواب للرعي ولا تعاد إلى البيت بالليل. والمعنى هنا: إنه ألجأ البرذون إلى قطعة من الدواب مع رعاتها (القاموس المحيط ٢/ ٣٩٠). وانظر: المنتقى من أخبار الأصمعي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ١٣، جـ ٧ (١٣٥٤ هـ) ٣٢٩. ويقال:

«أجشروا دوابهم إذا أخرجوها من القرية ترعى قريباً منها، ولم ينصرفوا إلى البيوت».

(٤٨٦) ترجم ابن العديم لأبي تراب حيدرة بن الحسن الحلبي ترجمة طويلة (بغية الطلب ١٣٣ ـ ١٣٧) وقال: «توفي سنة تسعين وأربع مئة أو بعدها بقليل» فلعله هو هذا.

Marfat.com

ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ونحن نتصيد حوله. فإذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا. فقال يوماً: يا سيدنا أنا جالس على صخرة وإذا [٦٤ أ] حجلة قد جاءت وهي تتهنكف[٤٨٧] وهي معيبة إلى تلك الصخرة التي أنا عليها دخلت وإذا الباز قد أتى خلفها وهو بعيد منها. فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح عينك عينك يا سيدنا وجاء وهو يركض وأنا أقول: اللهم استر عليها. فقال: يا سيدنا أين الحجلة؟ قلت: ما رأيت شيئاً، ما جاءت إلى ها هنا. وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرآها. فقال: أقول: الحجلة ها هنا؟ تقول: لا! وأخذها يا سيدنا كسر رجليها ورماها إلى الباز، وقلبي يتقطع عليها.

ـ ٢٠٩ ـ

وكان هذا لؤلؤ ـ رحمه الله ـ أخبر الناس بالصيد. شاهدته يوماً وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية فكنّا نخرج نصطاد منها شيئاً كثيراً. وكانت أرانب صغاراً حمراً فشاهدته يوماً وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة[٤٨٨] أخذها ثم جلى أرنباً عاشرة. فقال له الوالد ـ رحمه الله ـ: دعها! تقيموها للكلاب نتفرج عليها. فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب فسبقت الأرنب وسلمت. فقال لؤلؤ: يا مولاي لو كنت تركتني طعنتها وأخذتها.

ـ ٢١٠ ـ

وشاهدت يوماً أرنباً قد ثوريناها وأرسلنا عليها الكلاب فانجحرت في أرض الخَبيبَة[٤٨٩]. فدخلت كلبة سوداء خلفها في المجحر، ثم خرجت في

(٤٨٧) تتهنكف: أي تسرع في العدو والمشي (القاموس المحيط ٣ ٢٠٧).

(٤٨٨) البالة: حربة أو سكين طويلة وهي معربة من «بالا» الهندية وهي تكاد تكون لفظة مستعملة في العراق الآن باسم «الفالة» وبخاصة عند صيادي السمك.

(٤٨٩) الخبيبة: المحبّة، بطن الوادي كالحبية والحبب هو الحد في الأرض (القاموس المحيط ١/٥٩).

Marfat.com

الحال وهي تتعوص[٤٩٠]. ثم وقعت فماتت. فما انصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وتهرأت، وذاك أنها لسعتها حية في المجحـر.

ـ ٢١١ ـ

ومن عجيب ما رأيت من صيد البزاة أنني خرجت مع الوالد، رحمه الله، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب أياماً. فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء فرأينا طيوراً ممرجة في مرج تحت شرف. فتقدم الوالد أرسل عليها بازاً مقرنص بيت. فطلع مع الطيور أصاد منها ونزل فما رأينا معه شيئاً من الصيد. فنزلنا عنده وإذا هو قد أصاد زرزوراً وطبق كفه عليه فما جرحه ولا أذاه. فنزل البازيار خلصه وهو سالم.

ـ ٢١٢ ـ

ورأيت من الوز السمند حمية وشجاعة كحمية الرجال وشجاعتهم وذلك أننا أرسلنا الصقور على رف وز سمند ودققنا الطبول فطار. ولحقت الصقور تعلقت بوزة حطتها من بين الوز، ونحن بعيد منها، فصاحت. فترجل من الوز إليها خمسة ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها. فلولا نبادرهم كانوا خلصوا الوزة وقصّوا أجنحة الصقور بمناقيرهم.

[٦٤ ب] وهذا ضد حمية الحبارى. فإنها إذا قرب منها الصقر نزلت إلى الأرض وكيف دار استقبلته بذنبها. فإذا دنا منها سلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطارت. وإن أخطأته بما تفعله به أخذها.

ـ ٢١٣ ـ

ومن أغرب ما صاده الباز مع الوالد، رحمه الله، أنه كان على يده باز

---

(٤٩٠) تتعوص: تعوي من الألم.

Marfat.com

غطراف[٤٩١] فرخ وعلى خليج ماءٍ عيمةٌ[٤٩٢]، وهي طير كبير مثل لون البلشون إلاّ أنها أكبر من الكركي - من طرف جناحها إلى طرف جناحها الآخر أربعة عشر شبراً. فجعل الباز يطلبه. فأرسله عليه ودق له الطبل. فطار ودخل فيه الباز أخذه ووقعا في الماء. فكان ذلك سبب سلامة الباز، وإلاّ كان قتله بمنقاره. فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعُدَّتِه مسك العيمة وأطلعها. فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ويصيح ويطير عنها، وما عاد يعرض لها. ولا رأيت بازاً سوى ذلك اصطادها. فإنها كما قال أبو العلاء بن سليمان[٤٩٣] في العنقاء: أرى العنقاء تكبر أن تصادا.

ـ ٢١٤ ـ

وكان الوالد ـ رحمه الله ـ يمضي إلى حصن الجسر وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياماً. ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطير الماء واليحامير والغزلان والأرانب. فمضى يوماً إليه وركبنا إلى صيد الدراج فأرسل بازاً يحمله ويصلحه مملوك اسمه: نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه وقد بنج الدراج في غلفاء. وإذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض. قلنا: مالك؟ قال: السبع خرج من الغلفاء التي وقع فيها الدراج فخليت الباز وانهزمت. وإذا السبع أيضاً ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الغلفاء منهزماً إلى الغاب.

ـ ٢١٥ ـ

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير؛ نهر صغير بالقرب من الحصن.

---

(٤٩١) الغطراف: الصواب الغطريف وهو فرخ الباز الذي لم يحد من وكره، وذكره الدميري في حياة الحيوان (٢/ ٣٢١)، وذكره مصنف كتاب السيرة باسم «الغطراف» ص ٦٨

(٤٩٢) العيمة: نوع من الطير.

(٤٩٣) هو أبو العلاء المعري.

Marfat.com

وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب. فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جبة(٤٩٤) مثل الخشوت(٤٩٥). ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع. وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود إلى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يخطئها. ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها. واخر من الصيادين معه عود قدر قبضه فيه شوكة حديد وفي طرفه الآخر خيط مشدود إلى يده. ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة [٦٥ أ] وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل أصابعه في خواشيم السمكة وهي لا تتحرك ولا تنفر ويأخذها ويطلع فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة.

وتوالى المطر والهواء علينا أياماً ونحن في حصن الجسر. ثم أمسك المطر لحظة فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد: البزاة جياع جيدة للصيد. وقد طابت وكف المطر ما تركب؟ قال بلى!! فركبنا فما كان بأكثر من أن خرجنا إلى الصحراء وتفتحت أبواب السماء بالمطر فقلنا لغنائم: أنت زعمت أنها طابت وصحت حتى أخرجتنا في هذا المطر!! قال: ما كان لكم عيون تبصر الغيوم ودلائل المطر؟ كنتم قلتم لي: تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحية.

وكان هذا غنائم صانعاً جيداً في إصلاح الشواهين والبزاة خبيراً بالجوارح، ظريف الحديث طيب العشرة قد رأى من الجوارح ما نعرف وما لانعرف.

---

(٤٩٤) الجبة: من السنان ما دخل فيه الرمح (القاموس المحيط ١/٤٣).
(٤٩٥) الخشوت: جمع خشت وهو الخنجر.

Marfat.com

خرجنا يوماً إلى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا الجلالي شيئاً وإذا كركي مطروح على الأرض فنزل غلام قلبه وإذا هو ميت وهو حار ما برد بعد. فرآه غنائم قال: هذا قد اصطاده اللزيق، فتش تحت جناحيه وإذا جانب الكركي مثقوب وقد أكل قلبه. فقال غنائم هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق تحت جناحيه يثقب أضلاعه ويأكل قلبه.

وقضى الله سبحانه أنني صرت إلى خدمة أتابك زنكي ـ رحمه الله ـ فجاءه جارح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر وهو من أحسن الجوارح. فقالوا: هذا اللزيق، فما بقي عنده إلاّ أياماً قلائل وقرض السيور بمنسره وطار.

ـ ٢١٧ ـ

وخرج الوالد ـ رحمه الله ـ يوماً إلى صيد الغزلان، وأنا معه صغير فوصل وادي القناطر[٤٩٦] وإذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق فأخذهم وكتفهم وسلمهم إلى قوم من غلمانه يوصلونهم إلى الحبس بشيزر، فأخذت أنا خشتا من بعضهم وسرنا في الصيد وإذا عانة حمر وحش فقلت للوالد: يا مولاي ما أبصرت حمير الوحش قبل اليوم، عن أمرك أركض أبصرهم؟ فقال: أفعل! وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحرامية. فصرت وسط العانة فافردت منها حمارا وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيها شيئا [٦٥ ب] لضعف يدي وقلة مضاء الحربة فرددت الحمار حتى رددته إلى أصحابي، فأخذوه وعجب [illegible] ومن معه من عدو تلك الفرس.

فقضى الله سبحانه أنني خرجت يوماً أتفرج على نهر شيزر وهي تحتي ومعي مقرىء ينشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة. فنزلت تحت شجرة

---

(٤٩٦) وادي القناطر: لم نجد له ذكراً في معاجم البلدان والظاهر أنه قريب من حمص

Marfat.com

ودفعت الفرس إلى الغلام فعمل فيها شكالا، وكان إلى جانب النهر. فنفرت ووقعت في النهر على جنبها. وكلما أرادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال. وكان الغلام صغيراً لا يقدر على تخليصها ونحن لا نعلم ولا ندري. فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق. فقطعنا شكالها واطلعناها، فماتت. وما كان الماء يصل إلى عضدها الذي غرقت فيه. وإنما الشكال أهلكها.

ـ ٢١٨ ـ

وخرج يوماً الوالد ـ رحمه الله ـ إلى الصيد. وخرج معه أمير يقال له: الصمصام من أصحاب فخر الملك بن عمار[٤٩٧] صاحب طرابلس على سبيل الخدمة. وهو رجل قليل الخبرة بالصيد. فأرسل الوالد بازاً على طيور ماء فأخذ منها طيراً ووقع في وسط النهر. فجعل الصمصام يدق يداً على يد ويقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله. كيف كان خروجي في هذا اليوم؟ فقلت له: يا صمصام تخاف على الباز أن يغرق؟ قال: نعم!! قد غرق. بَطَّةٌ هو حتى يقع في الماء ولا يغرق؟ فضحكت وقلت إلساعة يطلع فأخذ الباز رأس الطير وسبح وهو معه حتى طلع به. فبقي الصمصام يتعجب من ذلك ويسبح الله سبحانه ويحمده على سلامة الباز.

ـ ٢١٩ ـ

ومنايا الحيوان، مختلفة الألوْان. قد كان الوالد ـ رحمه الله ـ أرسل زرقاً أبيض على دراجة. فوقعت الدراجة في غلفاء ودخل معها الزرق. وفي الغلفاء ابن آوى أخذ الزرق قطع رأسه. وكان من خيار الجوارح وافرهها.

---

(٤٩٧) فخر الملك أبو علي بن عمار: ترجمه ابن العديم في: بغية الطلب (التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة) عني بنشره على سويم (انقره ١٩٧٦)، ١٥٨ ـ ١٥٩.

Marfat.com

ـ ٢٢٠ ـ

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوماً وبين يدي غلام لي معه باشق. فرماه على عصافير فأخذ عصفوراً. وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق فنفض الباشق رأسه وتقيأ دماً ووقع ميتاً. والعصفور في كَفِّه مذبوح. فسبحان مقدر الآجال.

ـ ٢٢١ ـ

واجتزت يوماً من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك، ومعي زربطانة(٤٩٨). فرأيت عصفوراً على حائطنا أنا واقف تحته، فرميته ببندقة فأخطأته. وطار العصفور وعيني إلى [٦٦ أ] البندقة. فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في الحائط فوقعت البندقة على رأسه فقتلته. ووقع بين يدي فذبحته. وما كان صيده عن قصد ولا اعتماد.

ـ ٢٢٢ ـ

وأرسل ـ رحمه الله ـ يوماً الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك فأخذها وانفرطت منه، فجلس على الأرض. وراحت الأرنب فركضت أن فرساً دهماء تحتي من جياد الخيل لأردَّ الأرنب. فوقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت عليَّ فملأت يدي ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس. ثم انتقل الباز من الأرض بعد ما أبعدت الأرنب لحقها أصادها. فكأنه كان قصده إتلاف فرسي وأذيتي بالوقوع في الشوك.

ـ ٢٢٣ ـ

وأصبحنا يوماً في أول يوم من رجب صياماً. فقلت للوالد، رحمه الله:

---

(٤٩٨) زربطانة: وهي البندقية، آلة لصيد الطيور، ذكرها دوزي ١/ ٥٨٤

Marfat.com

أشتهي أخرج أتشاغل بالصيد عن الصيام. قال: أخرج! فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ ـ رحمه الله ـ ومعنا بعض البزاة إلى الأزوار فدخلنا في سوس. فقام لنا خنزير ذكر فطعنه أخي جرحه ودخل ذلك السوس فقال أخي: الساعة يكربه الجرح ويخرج. استقبله اطعنه اقتله. قلت: لا تفعل! يضرب فرسك يقتلها. نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زوراً آخر فالتقاه أخي طعنه في سنامه انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ودخل تحت فرس شقراء تحته عشراء محجلة شعلاء ضربها رماها ورماه. فأما الفرس فانفسخت فخذها وتلفت. وأما هو فانفكت إصبعه الخنصر وانكسر خاتمه.

وركضت أنا خلف الخنزير. فدخل في سوس مخصب وخَبَّاب[٤٩٩] فيه باقورة نائمة ما أراها من ذلك الغاب. فقام منها ثور في صدر حصاني فندسه، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه. وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة وكسر الرمح فيه، وسبح إلى ناحية النهر. فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبناً لعمارة بيوت في قرية لعمى. فجاؤوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لا يقدر يطلع منه. فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه. وقلت [٦٦ ب] لركابيٍ لي: انزل إليه! فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح إليه تمم قتله. وسحب برجله وأتى به وهو يقول: عرفكم الله بركات صيام رجب استفتحناه بنجس الخنازير.

ولو كان للخنزير ظفر وناب مثل الأسد كان أشد بأساً من الأسد، فلقد رأيت منها خنزيرة قد أقمناها عنْ جُرِّيات لها وواحد منها يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو في قدِّ جرو القط. فأخذ الغلام من تركشه نشابة ومال إليه طعنه بها ورفعه في النشابة. فعجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب.

---

(٤٩٩) خباب: خب النبات إذا طال وارتفع. (القاموس المحيط ١/٥٩).

Marfat.com

ـ ٢٢٤ ـ

كان من عجائب الصيد أننا كنا نخرج إلى الجبل إلى صيد الحجل ومعنا عشرة بزاة نَتَصيَّد بها النهار كله والبازيارية مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان وثلاثة من المماليك، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور بادية وكلما أرسل البازيار على حجلة وبنجت قد صاحوا: يا بطرس! يعدو إليهم مثل الهجين. كذلك النهار كله يعدو من جبل إلى جبل هو ورفيقه. فإذا أشبعنا البزاة ورجعنا أخذ بطرس قلاعه وعدا خلف واحد من المماليك ضربه بها أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس فلا يزال يطارد الغلمان وهم ركاب وهو راجل ويراميهم بالقلاع من الجبل إلى باب المدينة ما كأنه نهاره كله يعدو من جبل إلى جبل.

ـ ٢٢٥ ـ

ومن عجائب الكلاب الزغاوية أنها ما تأكل الطيور ولا تأكل منها إلاّ رؤوسها وأرجلها التي ما عليها لحم والعظام التي قد أكلت البزاة لحمها.

وكان للوالد ـ رحمه الله ـ كلبة سوداء زغاوية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون ويلعبون بالشطرنج وهي لا تتحرك ولا تزول حتى عمشت عيناها. وكان الوالد ـ رحمه الله ـ يحرد على الغلمان ويقول: قد أعميتم هذه الكلبة ولا ينتهون عنا.

وأهدي الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة[٥٠٠] للوالد كلبة عروفاً[٥٠١] ترسل تحت الصقور على الغزلان وحتى نرى منها العجب.

---

(٥٠٠) هو شهاب الدين مالك بن سالم، صاحب قلعة حجر، ترجم ابن العديم لأبيه سالم بن مالك ترجمة طويلة (بغية الطلب ٢٠٠ ـ ٢٠٣) وله ذكر كثير في تواريخ العصر

(٥٠١) عروف: بمعنى مدربة تدريباً جيداً

Marfat.com

وصيد الصقور بالترتيب يرسل في الأول [٦٧ أ] المقدم فيعلق بإذن غزال يضربه، ويرسل العون بعده فيضرب غزالاً آخر. ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك، ويرسل الرابع كذلك، فيضرب كل صقر منها على غزال. فيأخذ المقدم إذن غزال ويفرده من الغزلان، فترجع الصقور جميعها إليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها. وهذه الكلبة تحت الصقور لا تلتفت إلى شيء من الغزلان إلاّ ما عليه الصقور. فيتفق أن يظهر العقاب فتحل الصقور عن الغزال فيمضي الغزال، وتدور الصقور فكنا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور وهو تدور تحت الصقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة. ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور إلى الدعو فحينئذٍ تقف وتمشي خلف الخيل.

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ـ رحمهما الله ـ مودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل. فنفذ إليه يوماً يقول له: خرجت إلى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم. وذلك أن الغزلان عندهم في أرض القلعة كثيرة. وهم يخرجون وقت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ما قد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث يقشونها كما يقش الحطب والعشب.

والدراج عندهم كثير في الأزوار على الفرات. وإذا شق جوف الدراجة وأزيل ما فيه وحشي بالشعر لا تتغير رائحتها أياماً كثيرة.

ورأيت يوماً دراجة قد شق جوفها وأخرج قانصتها وفيها حية قد أكلتها نحواً من شبر.

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قد بلعتها صحيحة

Marfat.com

دونها بيسير. ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعفة فلعِلَّةٍ لا يظلمُ[٥٠٢]

— ٢٢٨ —

حَصْرُ ذكر الصيد، وقد شهدته سبعين سنة من عمري، غير ممكن ولا مستطاع، وتضييع الأوقات في الخرافات، من أعظم عوارض الآفات. وأنا [٦٧ ب] استغفر الله تعالى من تضييع الصُبّابة الباقية من العمر في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر. وهو تبارك وتعالى يغفر الخطية ويجزل من رحمته العطية. فهو الكريم الذي لا يخيب آمله ولا يرد سائله.

آخر الكتاب

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين وسلم تسليماً. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان في آخر الكتاب ما مثاله:

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس على مولاي جدي الأمير الأجل العالم الفاضل الصدر الكامل عضد الدين جليس الملوك والسلاطين حجة العرب خالصة أمير المؤمنين أدام الله سعادته، وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطّر خطه الكريم به وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وست مئة.

صحيح ذلك وكتب جده مرهف بن أسامة بن منقذ حامداً ومصلياً

---

(٥٠٢) البيت لأبي الطيب المتنبي.

Marfat.com

Marfat.com

ملحـــق

قائمة بكتب أسامة بن منقذ التي ذكرها المقريزي في كتاب المقفى المخطوط بخط يده والمحفوظ مع جزئيه الأول والثاني في مكتبة جامعة لايدن برقم: ١٤٥٣٣ شرقي.

قال في الورقة ١٤٠ أ من الجزء الثالث في ترجمة أسامة:

«وله عدة مصنفات منها:

١ - كتاب البدري: ذكر فيه أهل بدر وعدتهم وأسماءهم وأنسابهم وأحوالهم، وذكر فيه مغازي النبي - ﷺ - وجميع أحواله من أول أمره إلى آخره، واستقصى ذلك فجاء في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم.

٢ - وكتاب الشيب والشباب: ذكر فيه الخضاب وما ورد فيه ورتبه على سبعة أبواب في كل باب فصول.

٣ - وكتاب ملحق به سماه استدراك المرتاب.

٤ - وكتاب الحنين إلى الأوطان.

٥ - وكتاب أخبار النساء: بدأ فيه بحواء وذكر أم موسى ومريم ابنة عمران وأخبارهن وأمهات العرب والأخوات والزوجات والبنات المنجبات والنساء التي سارت بذكرهن الأشعار واستقصى أخبار الجميع وأشعارهن وما قيل فيهن.

٦ - وكتاب رسائل السائل: يتضمن الأدعية وأوقاتها وما ورد فيها.

٧ - وكتاب المنازل والديار.

٨ - وكتاب نصيحة الرعاة.

٩ - وكتاب البشارة.

Marfat.com

١٠ ـ وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ: فيه النهي عن الزنا واللواط والفواحش.
١١ ـ وكتاب أزهار الأنهار: وفيه صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره.
١٢ ـ وكتاب العصا: فيه ذكر عصا موسى عليه السلام وما جاء في العصا.
١٣ ـ وكتاب النوم والأحلام.
١٤ ـ وكتاب التأسي والتسلي.
١٥ ـ وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين.
١٦ ـ وكتاب المحاسن.
١٧ ـ وكتاب نزهة الناظر في إملاء الخاطر.
١٨ ـ وكتاب ردع الظالم ورد المظالم.
١٩ ـ وكتاب الاعتبـــار.
٢٠ ـ وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصراً.
٢١ ـ وكتاب لباب الآداب.
٢٢ ـ وكتاب مكارم الأخلاق: في عشرين مجلداً، صنفه في مدة عشر سنين مدة مقامه بمصر.
٢٣ ـ وكتاب المنتخب من أشعار العرب.
٢٤ ـ وكتاب المختار من محدث الأشعار.
٢٥ ـ وكتاب المماثلة في الشعر.
٢٦ ـ وكتاب معونة المساعد على حصر الشوامد: في الشعر أيضاً.
٢٧ ـ الأقسام: في الشعر أيضاً.
٢٨ ـ وكتاب أمان الخائفين: في الزهد.
٢٩ ـ وكتاب المدن والحصون.
٣٠ ـ وكتاب فيه شعر جماعة سأله ابن الزبير عنهم.
٣١ ـ وكتاب المكارم والكرم ورعاية الذمم (في المخطوطة: الرمم، ولعله أرادها).
٣٢ ـ وكتاب اختيار شعر أبي تمام.
٣٣ ـ وكتاب التجارة المربحة.
٣٤ ـ وكتاب مختار شعر أبي نؤاس».

انتهى نص المقريزي

Marfat.com

جريدة المصادر والمراجع المختارة

لقد أهملنا ذكر المعاجم والفهارس وبعض المصادر والمراجع المذكورة في الحواشي.

- **ابن أبي أصيبعة**: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٢٩٩ هـ.**
- **ابن الأثير**: الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة **١٩٦٣**.
- **ابن الأثير**: الكامل في التاريخ، لايدين ١٨٥١ ـ ١٨٧٦، وطبعة مطبعة الاستقامة، القاهرة ـ دون تاريخ ـ بعد سنة ١٣٤٨ هـ.
- **ابن تغري بردى**: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب ١٩٢٩ ـ **١٩٥٦**.
- **ابن تغري بردى**: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت (من منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة) القاهرة **١٩٨٣**.
- **ابن الجوزي**: المنتظم، الأجزاء ٥ ـ ١٠، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ.
- **حسن عباس**: أسامة بن منقذ: حياته وآثاره، الإسكندرية **١٩٨١**.
- **ابن حجر**: لسان الميزان، حيدر آباد، **١٣٢٩ ـ ١٣٣١**.
- **ابن حجر**: أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٩ ـ **١٩٧٢**.
- **ابن حزم**: كتاب طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف، مخطوطة ليدن، سرقي ٩٢٧.
- **ابن خرداذبة**: المسالك والممالك، باعتناء دي خويه، لايدن ١٨٨٩.
- **ابن شاكر الكتبي**: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣
- **ابن الشحنة**: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت ١٩٠٩

Marfat.com

- **ابن شداد**: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧ هـ. وتحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤.
- **ابن شداد**: الأعلاق الخطيرة، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٥٦.
- **ابن الصابوني**: تكملة إكمال الإكمال، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٩٥٧.
- **ابن عساكر**: تاريخ دمشق ترتيب وتصحيح عبد القادر بدران، دمشق ١٣٣٠ هـ.
- **ابن العديم**: بغية الطلب من تاريخ حلب، تحقيق علي سويم، أنقرة ١٩٧٦.
- **ابن العديم**: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٨.
- **ابن العماد الحنبلي**: شذرات الذهب، القاهرة ١٣٥٠ هـ.
- **ابن العمراني**: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، لايدن ١٩٧٣.
- **ابن قاضية شهبة**: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، بيروت ١٩٧١.
- **ابن القلانسي**: ذيل تاريخ دمشق، نشر أمدروز، بيروت ١٩٠٨.
- **ابن كثير**: البداية والنهاية، القاهرة ١٣٥٨.
- **ابن واصل**: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧.
- **ابن الوردي**: تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٢٨٥ هـ.
- **أبو شامة**: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ. وتحقيق محمد حلمي محمد، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢.
- **أبو الفدا**: المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥ وطبعة القسطنطينية ١٢٨٦.
- **أبو الفرج الأصفهاني**: كتاب الأغاني، بولاق - القاهرة ١٢٨٥. وطبعة دار الكتب المصرية.
- **أحمد كمال زكي**: فارس الفرسان، القاهرة ١٩٧٤.
- **أحمد كمال زكي**: أسامة بن منقذ، القاهرة ١٩٦٨.
- **أسامة بن منقذ**: ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥٣.
- **أسامة بن منقذ**: المنازل والديار، نشر أنس خالدوف، موسكو ١٩٦١، وتحقيق مصطفى حجازي، القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٨.

Marfat.com

- **أسامة بن منقذ**: ديوان أسامة بن منقذ، مخطوطة مجلس شوارى ملي - طهران، رقم ٣٢٢ طباطبائي.
- **أسامة بن منقذ**: البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد الحميد، القاهرة ١٣٨٠ هـ.
- **أسامة بن منقذ**: كتاب العصا، تحقيق عبد السلام هارون (في نوادر المخطوطات) القاهرة ١٣٧١/١٩٥١. وتحقيق حسن عباس، الإسكندرية ١٩٨١.
- **أسامة بن منقذ**: لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥.
- **الإصطخري**: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٦١.
- **الأيوبي، محمد بن عمر**: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨.
- **باركر**: الحروب الصليبية، تعريب الباز العريني، بيروت ١٣٨٦/١٩٦٧.
- **بازيار العزيز الفاطمي**: كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٣٧٢ هـ.
- **البكري**: معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥.
- **بروكلمان، كارل**: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٥٤
- **البنداري**: سنا البرق الشامي، بيروت ١٩٧١، وتحقيق فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩.
- **الجزري**: غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة ١٣٥١ هـ.
- **الألوسي، جمال الدين**: أسامة بن منقذ، بطل الحروب الصليبية، بغداد ١٣٨٧/١٩٦٧.
- **جوزيف نسيم يوسف**: العدوان الصليبي على بلاد الشام، بيروت ١٩٨١
- **الحسن بن البهلول**: كتاب الدلائل، نشر فؤاد سزكين، فرانكفورت ١٤٠٥/١٩٨٥.
- **الدميري**: حياة الحيوان، القاهرة ١٩٦٥.
- **الذهبي**: المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي، تحقيق مصطفى جواد، المجمع العلمي العراقي بغداد ١٣٩٧/١٩٧٧.

Marfat.com

- **الذهبي**: دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٤.
- **الذهبي**: سير أعلام النبلاء، بيروت ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ (تحقيق جماعة).
- **الذهبي**: تاريخ الإسلام، مخطوطة المتحف البريطاني، برقم: ٧٣٩ ب.
- **سامي الدهان**: قدماء ومعاصرون، القاهرة ١٩٦١.
- **السمعاني**: الأنساب، نشره ماركليوث بالتصوير، لندن ١٩١٢.
- **السيوطي**: طبقات الحفاظ، نشر فردناند وستنفيلد، كوتنكن ١٨٣٣.
- **السيوطي**: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٧.
- **الصابي**: كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٥٨.
- **طاهر النعساني**: أسامة بن منقذ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد العاشر الجزء ٤ ـ ٥، (لسنة ١٩٣٠) ٢٣٠ ـ ٢٣٧ و ٣٠٥ ـ ٣١٦.
- **طلائع بن رزيك**: ديوان طلائع بن رزيك، النجف ـ العراق ١٩٦٤، وجمع أحمد أحمد بدوي، القاهرة ١٢٧٧/١٩٥٨.
- **عبد الكريم الأشتر**: صفحة من تراثنا الحي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٤٢، جزء ١ (لسنة ١٣٨٦/١٩٦٧) ١٠٠ ـ ١٧.
- **عبد اللطيف حمزة**: كتاب أسامة بن منقذ لمحمد حسين، مجلة الثقافة، العدد ٢٩٠ السنة الثامنة، ١٨ رجب ١٣٦٥/١٩٤٦.
- **العماد الأصفهاني**: زبدة النصرة ونخبة العصرة، نشر هوتسما، لايدن ١٨٨٩.
- **العماد الأصفهاني**: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) تحقيق شكري فيصل، دمشق ١٢٧٥ ـ ١٣٧٨ (١٩٥٥ ـ ١٩٥٩).
- **العماد الأصفهاني**: الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة ١٣٢١، وطبعة لايدن ١٨٨٨.
- **العماد الأصفهاني**: سنا البرق الشامي (انظر: البنداري).
- **العماد الأصفهاني**: خريدة القصر وجريدة العصر، مخطوطة لايدن رقم: ٢١ أ. وتحقيق محمد بهجة الأثري (قسم العراق) بغداد ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤.
- **عون الشريف قاسم**: قاموس اللهجة العامية في السودان، الخرطوم ١٩٧٢.
- **الفارقي**: تاريخ ميافارقين، تحقيق بدري عبد اللطيف عوض، القاهرة ١٣٧٩/ ١٩٥٩.

Marfat.com

- **قاسم السامرائي**: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية (دار الرفاهي) الرياض ١٤٠٣ هـ.
- **القرشي، أبو زيد**: جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي الهاشمي (منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) الرياض ١٤٠١ هـ.
- **القفطي**: أخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦ هـ.
- **القلقشندي**: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٣٨٣ هـ.
- **القلقشندي**: صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٠.
- **الماوردي**: الأحكام السلطانية، مخطوطة المكتبة السعودية (بدار الإفتاء بالرياض) برقم: ٨٦/٤٩٨.
- **محمد أحمد حسين**: أسامة بن منقذ: صفحة من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٤٦.
- **محمد حجي**: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الرباط ١٩٧٦/١٣٩٦.
- **محمد محمد مرسي**: الإمارات العربية في الشام، القاهرة ١٩٨٠.
- **كرد علي، محمد**: كتاب الاعتبار، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد العاشر، الجزء التاسع، (لسنة ١٩٣٠) ٧٧٢ - ٧٧٣.
- **محي الدين ابن عبد الظاهر**: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦/١٣٩٦.
- **المسعودي**: مروج الذهب، نشر محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨/١٣٦٧.
- **المقدسي**: أحسن التقاسيم، نشر دي خويه، لايدن ١٨٧٧.
- **المقريزي**: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٩٦١
- **المقريزي**: كتاب المقفى، مخطوطة لايدن بخط المقريزي، برقم ١٤٥٣٣ شرقي، الجزء الثالث.
- **المقريزي**: المواعظ والاعتبار (خطط المقريزي) القاهرة ١٢٧٠ هـ
- **المقريزي**: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨. وتحقيق محمد حلمي محمد، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٣.

Marfat.com

- المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت ١٤٠١/١٩٨١.
- النخيلي: السفن الإسلامية، الإسكندرية ١٩٧٤.
- النمري: معاني أبيات الحماسة، تحقيق عبد الله عسيلان،
- النواجي: حلبة الكميت، القاهرة ١٢٧٦ هـ.
- ياقوت: معجم البلدان، بيروت ـ دار صادر ـ ١٣٧٦/١٩٥٧.
- ياقوت: معجم الأدباء (إرشاد الأريب) نشر محمد فريد الرفاعي، القاهرة ١٩٣٦.
- يوهان فوك: العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، تعريب عبد الحليم النجار، القاهرة ١٩٥١.

Marfat.com

جريدة المراجع الفرنجية

أ ـ ترجمات كتاب الاعتبار إلى اللغات الأوربية:

١ ـ إلى الإنجليزيــة:

- The autobiography of Osâma, translated with intro. and notes by George Richard Potter, (London 1929).
- An Arab - Syrian Gentleman and warrior in the period of the Crusades. Memoirs of Usâma ibn Munqidh (kitâb al-I' tibâr), tr. by Philip Khûrî Hittî, New York 1927.

٢ ـ إلى الألمانيــة:

- (K. al-Ictibâr) Ein Leben im kampf gegen kreuzritterheere, Aus dem Arabishen übertragen und bearbeitet von G. Rotter, Tübingen 1978.
- Usâma b. Munqidh Memoiren aus d. Arab. übers. v. Geo. Schumann, mit verw. v.H. Derenbourg, Insbruck 1905.
- Die Erlebnisse des syrischen Ritters Usâma ibn Munqid, Unterhaltsames und Belehrendes aus der Zeit der Kreuzzüge, übersetzt und herausgegeben von Holger Preissler, (München 1985, Verlag C.H. Beck).

٣ ـ إلى الروسيــة:

- Usama ibn Munkyz: Kniga nazidanija pere wod: M. Salier, Red., wstupit. stat'ja i primec.: I. Ju. Karackowskij, Petersburg-Moskwa 1922.
- 2nd edition, Moskwa 1958.

٤ ـ إلى الدانماركيــة:

- De laererige eksemplers bog (kitabu-i-itibār) af Usâma ibn Munkids, Syrisk emir fra Korstogstiden, oversat i uddrag af ove Chr. Krarup, Kobenhaven 1950.

Marfat.com

٥ ـ إلى البولنديــة:

- Kitab al-Ictibar) kniega pouczajacych przykladow dzielo Usâmy ibn Munkidha, Jan Reychman, Ossolineum 1973.

٦ ـ إلى الفرنسيــة:

لقد ذكرنا ترجمة ديرنبورج في المقدمة.

- Des Enseignments de la Vie, souvenirs d'un gentilhomme syrien du temps des Croisades par André Miquel, Paris 1983.

ب ـ المراجــع الفرنجيــة:

- Baldwin, M.W., (ed.) A History of the Crusades, Philadelphia 1955.
- Belloc, H., The Crusades, London 1937.
- Cahen, Cl., La Syrie du Nord, Paris 1940.
- Calabozo, B.J., La Real Biblioteca El Escorial y sus manuscriptos Arabes, Madrid 1978.
- Dozy , R., Supplément aux Dictionnaires Arabes, Leiden 1881.
- Dussaud, R., Topographie Historique de la Syrie antique et medieval, Paris 1927.
- Fedden, R., and J. Thomson, Crusader Castles, London 1857.
- Gabrieli, F., The Arabic Historiography of the Crusades, in: Historians of the Middle East, ed. B. Lewis and P.M. Holt, London 1964, pp. 98-107.
- Montgomery Watt, W., The influence of Islam on Medieval Europe. Edinburgh 1972.
- Oman, G., Ch., A History of art of war in the Middle Ages, 2d. ed. London 1924.
- Rey, E., Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII siècles, Paris 1883.
- Runciman, S., A History of the Crusades, 3 voles., Cambridge 1951-5.
- Smith, C.A., The Historical Geography of the Holy Land, 26th ed., London 1935.
- Stevenson, The Crusaders in the East, Cambridge Univ. Press 1907.

Marfat.com

فهـــرس الأعـــلام

تحتوي الفهارس على ما ورد في القسم الأول والثاني من النص دون الحواشي

ابن الأحمر: ١٠٦.
ابن بشر = بشر بن كريم.
ابن بطلان = يوحنا.
ابن البواب: ٢١٥.
ابن جني: ٢١٦.
ابن الجوزي = أبو الفرج.
ابن دلماج = حسام الدين ابن دلماج.
ابن الدقيق: ٢٥.
ابن الســلار: علي بن الســلار: ١٧ - ١٨ ض[1]، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤.
ابن العريق (جنداري): ١٧٤، ١٧٥.
ابن عمار = عمار بن محمد، فخر الملك.
ابن عمرون = أبو الفتوح ابن عمرون.
ابن غازي المشطوب: ١٨٢.
ابن كردوس: ١١٥.
ابن مجاهد = أبو بكر ابن مجاهد.
ابن المرجى: ١٠١.
ابن مروان = أحمد بن مروان.
ابن مصال: ١٧ ض، ٣٠، ٣١.
ابن المنيرة = محمد بن يوسف.
ابن ميمون = بومند الثاني: ١٤١ - ١٤٢، ١٤٣.
ابن واصل: ١٩ ض، ٢٢ ض.
أبو بكر ابن الداية، مجد الدين: ١٩ ض، ٢٠ ض.
أبو بكر الدبيسي: ١٧٥.
أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): ٥٩.
أبو بكر ابن مجاهد: ١٩٠، ١٩١.
أبو البقاء (ابن أخي أولاد الحافظ): ٤٤.
أبو الجيش الكردي: ١٦٨.
أبو شامة: ٢١ ض.
أبو طالب ابن علي كرد [illegible] طالب.
أبو عبد الله الطليطلي ٢١٥، ٢١٦
أبو عبد الله ابن هاشم (ابن عم أسامة) ١٧٨، ١٧٩.
أبو العلاء المعري المعري

(١) ض: القسم الأول من الكتاب المخصص ضائعة.

Marfat.com

أبو علي الفارسي: ٢١٦.
أبو علي القائد: ١٩١.
أبو الفتح (صانع بشيزر): ١٥٣.
أبو الفتوح ابن عمرون، افتخار الدولة: ١٣٨.
أبو الفرج البغدادي: ١٨٥.
أبو المجد ابن مجاجو: ١٢٦.
أبو المرجى = سالم بن ثابت.
أبو مسيكة الإيادي: ٥٩، ٦٠.
أبو المغيث منقذ = منقذ بن سلامة.
أبو الهيجاء ابن موسك الهذباني: ١١٠.
آبق بن محمد بن بوري بن طغدكين: ٢٢ ض.
الآمر بأحكام الله: ٢١٧.
إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم، سراج الدين أبو طاهر: ١٨٤.
أتابك زنكي = زنكي بن آق سنقر.
أحمد بن صلاح الدين الياغسياني، شهاب الدين: ٢٦، ١٢١.
أحمد بن مجير (غلام آل منقذ): ٢١٩.
أحمد بن مروان، أبو نصر: ١١٠.
أحمد بن معبد بن أحمد: ١٦٥.
أحمد بن موسى، أبو بكر = أبو بكر ابن مجاهد.
آدم (عليه السلام)[1]: ٥٨، ١٠١، ١٣١، ٢٠٠، ٢٠٢.
أسامة بن مرشد بن منقذ: ١٥ ض، ١٦ ض، ١٩ ض، ٢٠ ض، ٢١ ض، ٢٢ ض، ٣٩، ٥١، ٦٩، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ١٢١، ١٢٣، ١٨٤، ٢٠٦، ٢٢٠.
أسد الدين شيركوه: ٣٧.
أسد القائد: ١٦٣.
إسماعيل البكجي: ٩٥.
إسماعيل بن عمر بن بختيار السلار: ١٦٢.
التونتاش، شمس الخواص: ١٠٠.
الأفضل ابن أمير الجيوش: ٢٩، ٢١٧.
أمين الملك (بواب القصر الفاطمي): ٤٥.
أنر = معين الدين أنر
الأنصاري = محمد بن عبد الباقي.
الأوحد (أخو رضوان بن الولخشي): ٥٣.
أوزبة (أمير الجيوش): ٩٥، ٩٩.
إيلغازي بن أرتق، نجم الدين: ٦٢، ٦٤، ١١٣، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١.
أيوب بن شادي (والد صلاح الدين): ١٨ ض، ٢٢ ض.

ـ ب ـ

بختيار القبرصي (زهر الدولة): ١٠٩.
بدر الكردي: ١٣٦، ١٣٧.
بدران بن مالك بن سالم: ١٥٠.
بدرهو: ٩٠، ٩١.
برّاق الزبيدي: ٣٨.
برّة (امرأة حلبية): ١٩٨.
برسق بن برسق، اسباسلار: ٩٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١٣، ١٤٠.
برشك (أمير من الأتراك): ٣٨.
برناد (خازن الملك فلك): ١٥٢.
برهان الدين البلخي: ١٥٩.
بريكة (أمة آل منقذ): ١٤٣، ١٤٤.

(١) آدم وابن آدم وبني آدم.

Marfat.com

بستكين غرزة (غلام): ١٤٦.
بشر بن كريم بن بشر: ٢٥.
بطرس (كلابزي): ٢٣١.
بغدوين الرويس: ١٩ ض، ٥٦، ١٠٣، ١٢٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢.
بقيَّة بن الأُصيفر: ١٤٣.
بكتمر الحاجب: ٩٥.
البلخي = برهان الدين.
بلك بن بهرام، نور الدولة: ١٤١.
بومند: ٢٠ ض، ٨٧، ٨٨، ١٤١ - ١٤٢.
بهاء الدين = الشريف بهاء الدين.

- ت -

تادرس بن الصفي: ١٥٩.
تتش، تاج الدولة بن إلب أرسلان: ٧٦، ٧٧، ٧٨.
تروس بن روبال: ٢٠٩.
تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق، حسام الدين: ١٢٥، ١٤١، ١٧٤.
تميرك: ٩٥.
تميم، أبو الوفا الطبيب: ١٩٨.
نوفيل الإفرنجي: ١٤٨ = ثيوفيل.
تنكرد = دنكري.

- ث -

ثابت (طبيب نصراني): ١٥٢.
ثيوفيل: ٩٥.

- ج -

جامع (ركابي): ١٣٧، ١٣٨.
جبريل بن الحافظ لدين الله: ٤٤.
جرية (دليل عربي - بدوي): ٣٦.
جقر، نصير الدين: ١٧٦.
جمال الدين الموصلي (الوزير): ٢١ ض، ٢٢ ض.
جمعة النميري: ٥٨، ٥٩، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٩٠.
جواد، الرئيس: ١٧٩.
جوسلين: ١٩ ض، ٢٠ ض، ١١٢.

- ح -

حارثة النميري: ٧٠، ٩٠.
الحافظ لدين الله: ٢٩، ٣٠، ٤٤، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ١٠٢، ٢٠٣.
حسام الدولة مسافر = مسافر.
حسام الدين ابن دلماج: ١١١.
حسام الملك ابن عباس: ٥٠.
حسام الملك، ابن عم عباس: ٥٢.
حسن الزاهد: ١١٤.
حسنون الكردي: ٨٨، ٨٩.
حمدات الكردي: ٧٢، ٧٣، ٧٤.
الحموي = الخضر بن مسلم بن قاسم.
= محمد بن المظفر بن بكر، أبو بكر قاضي القضاة الشامي الشافعي.
= عبد الله بن ميمون.
حيدرة بن قطرمير، أبو تراب: ٢٢٢.

- خ -

خاتون بنت تتش: ١٦٦.
الخالدي = داود بن محمد بن الحسن، محمد الدين أبو سليمان.
خرجي: ٢٢٢.
خسرو بن تليل، قطب الدين: ١٧٢.
خضر الطوط: ٨٦.

Marfat.com

الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي، أبو القاسم: ١٨٥، ١٨٧.
خطام، ذخيرة الدولة، أبو القنا: ٨٢.
خطلخ، اسباسلار: ٨٦.
خطلخ (مملوك والد أسامة): ١٣٤.
خلف بن ملاعب الأشهبي، سيف الدولة: ٢٣ ض، ٧٥، ٧٨، ١١٨، ١٤٧، ١٤٨.
خواجا بزرك = نظام الملك.
خير خان بن قراجا: ١٢٤، ١٢٥.

ـ د ـ

داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي، مجد الدين: ١٨٩.
دبيس بن صدقة: ١٨ ض.
الدبيسي = أبو بكر الدبيسي.
دمتري (الأسقف): ١٥ ض.
دنكري (تنكرد): ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١١٩.

ـ ذ ـ

الذهبي: ١٦ ض، ٢٠ ض، ٢١ ض.

ـ ر ـ

الراشد بالله: ٢٥.
رافع بن سوتكين: ٧٠.
رافع الكلابي: ٦٩.
راءول (الفرنجي): ١٥١.
رجب العبد: ١٢٤.
رسول الله ـ ﷺ ـ = محمد ـ ﷺ ـ.
رضوان بن تتش: ٧٦، ٧٧، ٧٨.
رضوان بن الولخشي: ١٧ ض، ٥٣، ٥٤، ٥٥.
رفول بنت أبي الجيش: ١٦٨.
روبرت الأبرص: ١٤٠، ١٤١.
روجار (صاحب أنطاكية): ٦٢، ٩٩، ١٠٩، ١٣٩، ١٤٠.

ـ ز ـ

زاهد بني كردوس: ١١٥.
زرزور بادية (كلابزي): ٢٣١.
زرقاء اليمامة: ١٤٧.
الزمركل: ٦٦، ٦٧.
زنكي بن آق سنقر، أتابك عماد الدين: ١٧ ض، ١٨ ض، ١٩ ض، ٢٢ ض، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٥٣، ٥٤، ٦٧، ٨٣، ١٠١، ١١١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧.
زنكي بن برسق: ٩٥.
زنكي بن قراجا، سيف الدولة: ١٩٤.
زيد الجرائحي: ٧٥.

ـ س ـ

سابق بن وثاب بن محمود بن صالح: ١٢٧.
سابة بن قنيب الكلابي: ٧١.
سالم (حمامي): ١٥٥.
سالم العجازي: ١٤٨.
سالم بن ثابت: ١٦٤.
السرداني (كونت): ٧٢، ٧٣.
سرهنك بن أبي منصور: ٥٨، ٥٩، ٨٦.
سعيد الدولة (مملوك الظافر الفاطمي): ٤٣.

Marfat.com

سعد الله الشيباني: ١٢٨.
السلار = عمر السلار.
= إسماعيل بن عمر بن بختيار.
= ابن السلار، علي.
سلجوق شاه: ١٨ ض.
سلطان، أبو العساكر عز الدين[1]: ١٦ ض، ٦٢، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٨، ٩١، ٩٤، ١٠٩، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٨، ١٨١، ٢١٥، ٢٣٠.
سنقر دراز: ٩٥.
سهري، الرئيس: ١٠٠.
سهل بن أبي غانم الكردي: ٩٠.
سوار: سيف الدولة: ١٦١، ١٦٢.
سومان (جنداري): ٦٦.
سونج (غلام أسامة): ١٧١.
سيبويه: ٢١٥.
السيد الشريف: ٩٨.
سير آدم: ١٣٢.

ـ ش ـ

شافع، فخر الدين أبو كامل: ١٤٩، ١٥٠.
شاهنشاه: ١٩٥.
شاهنشاه بن بدر الجمالي = الأفضل ابن أمير الجيوش.
شبيب بن حامد بن حميد، سنان الدولة: ١٤٤.
الشريف السيد بهاء الدين: ٢٠٥.
الشريف الرضي: ٢١ ض.
شماس (غلام سابق بن وثاب): ١٢٧.
شمعون، موفق الدولة: ٧٦، ٧٧.
الشيباني = سعد الله.

ـ ص ـ

صلاح الدين الأيوبي = يوسف بن أيوب.
صلاح الدين الياغسياني = محمد بن أيوب.
الصمصام (أمير): ٢٢٨.
صندوق (غلام): ١٦٠.

ـ ط ـ

الطبري = محمد أبو عبد الله.
طراد بن وهيب النميري: ١٢١، ١٢٢.
طغدكين، أتابك أمين الدولة: ٥٣، ٥٤، ١١٢، ١٤٠، ١٤١.
طلائع بن رزيك، أبو الغارات: ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٦، ٥٧.
الطليطلي = أبو عبد الله الطليطلي.

ـ ظ ـ

الظافر بالله: ١٧ ض، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥١.

ـ ع ـ

عباس بن أبي الفتوح تميم بن باديس، ركن الدين: ١٧ ض، ٣١، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ١١٦.

(١) الإشارة إلى قول أسامة «عمي» أيضاً

Marfat.com

عبد الرحمن الحلحولي: ١١٧.
عبد الله المشرف: ١١٦.
عبد الله بن القبيس: ١٨٦.
عبد الله بن ميمون الحموي: ١٨٥، ١٨٦.
عبد الله الفقاعي: ١٩١.
عتاب: ٦٥.
عرس (الفرنجي): ١٦٠.
عز الدولة، أبو الحسن علي = علي بن مرشد.
عزيز مصر: ٥٤.
العقاب الشاعر: ٩٢.
علان بن فارس الكردي: ١١٩.
علوان بن جراز: ١٤٤.
علوان العراقي: ١٢٤.
علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: ١٨٨، ١٩٢.
علي بن الدودوية: ٦٧، ٦٨.
علي بن سالم بن مالك: ١٢٢.
علي بن السلار = ابن السلار، سيف الدين أبو الحسن.
علي بن سلام النميري: ٦٠.
علي عبد ابن أبي الريداء: ١٤٧، ١٤٨.
علي بن عيسى (الوزير): ١٩٠، ١٩١.
علي بن فرج، أبو الحسن: ١٦٤، ١٠٦٥.
علي كرد، علم الدين: ١٠٠.
علي كوجك، زين الدين: ١٧٥، ١٩١، ١٩٢.
علي بن محبوب: ١٤٣.
علي بن مرشد، عز الدولة أبو الحسن: ٣٩، ٤١، ١٢٠، ١٤٥.
علي بن مقلد بن نصر بن منقد، سديد الملك أبو الحسن: ١٥ ض، ١٦ ض، ٧٧، ١٩٧، ١٩٩.
علي بن نيسان، كمال الدين: ١٠٥.
العليمي = عمر بن محمد.
عمَّار بن محمد بن عمَّار، فخر الملك: ١١٩، ٢٢٨.
عمر السلار: ١٦٢.
عمر بن محمد بن عبد الله بن معمر العليمي: ١٩٢.
عنَّاز الكردي: ١٣٦.
عنبر الكبير: ٤٧، ٤٨.
عنترة بن شداد: ٦١.
عيسى الحاجب: ١٠١.
عين الدولة الياروقي: ٣٨.

ـ غ ـ

غازي التلِّي: ٨٦، ١٢١.
غنائم البازيار: ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٢٧.
غنيم (ركابي): ٨٣، ٨٤.

ـ ف ـ

فازس بن زمام: ٦١.
فارس الكردي: ١١٨، ١١٩.
فضل بن أبي الهيجاء: ١١٠.
فلك بن فلك: ٨٨، ١٠٣، ١٥١، ٢٠٤.
فليب الفارس: ٦٤.
الفند الزمَّاني: ٧٣.
الفندلاوي المالكي: ١١٧.
فنون (جارية): ١٤٥.

Marfat.com

ـ ق ـ

القائد أسد: أسد القائد.
القائد الحاج أبو علي = أبو علي القائد.
قاضي المارستان = محمد بن عبد الباقي.
قاضي القضاة الشامي الحموي = محمد بن المظفر، أبو بكر.
قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، فخر الدين: ١٠٥، ١٧٣ ـ ١٧٤، ٢٠٠، ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
قراجا الساقي: ١٧ ض، ١٨ ض.
قطر الندى بنت رضوان بن الولخشي: ٥٣.
قفجاق بن أرسلان: ١٧٦، ١٧٨.
قنيب بن مالك: ١٣٥، ١٣٦.
قيس بن الخطيم: ٧١، ٧٢.
قيماز (صاحب الباب): ٥٥.

ـ ك ـ

كامل المشطوب: ٨٩، ١١٩، ١٢٠.
كامل بن مقلد، ناصر الدولة: ١١٣.
كليام جيبا: ١٠٤.
كليام دبور: ١٥٦.
كمشتكين الأتابكي، أمين الدولة: ٥٣، ٥٤.
كندغدي: ٩٥.
كومنيوس، جان = ملك الروم.
كونراد الثاني = ملك الألمان.

ـ ل ـ

لاون، ليو بن تروبال: ٢٠٩.
لكرون، (أمير): ٣٠.
لؤللؤ (مملوك آل منقذ): ١٦١، ٢٢٢، ٢٢٣.
لؤلؤ الخادم (صاحب حلب): ٩٨.
لؤلؤة (جارية بني منقذ): ١٩٩.

ـ م ـ

ماضي، شجاع الدولة: ٨٥.
مالك بن سالم بن مالك، شهاب الدين: ١١٢، ١٢٢، ١٥٠، ٢٣١، ٢٣٢.
مالك الأشتر: ٥٩، ٦٠.
مالك بن عياض: ١٩٥.
محاسن بن مجاجو: ١٢٦، ١٢٧.
محمد ـ ﷺ ـ: ٧١، ٧٢، ١١٦، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٩، ٢٣٣.
محمد، أبو عبد الله، نجم الدين (أخو أسامة): ٥٠.
محمد بن أيوب الياغسياني، صلاح الدين: ٢٢ ض، ٢٦، ٢٧، ٦٧، ١٠١، ١١١، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٧.
محمد البستي، أبو عبد الله: ١٨٦، ١٨٧.
محمد بن بوري بن طغدكين، جمال الدين: ١٠٣، ١٢٢.
محمد بن سرايا: ١١٣.
محمد السماع: ١٧٦.
محمد الطبري، أبو عبد الله: ١٨٥
محمد العجمي (غلام بني منقذ): ١٦٣
محمد بن عبد الباقي الأنصاري، أبو بكر: ١٩٣.
محمد بن علي بن محمد بن مامه: ١٩١

Marfat.com

محمد بن فاتك المقري، أبـو عبد الله: ١٩٠.
محمد بن محمد بن ظفر، أبو هـاشم: ١٣٣.
محمد بن مسعر: ١٨٧.
محمـد بن المـظفـر بن بكـر الحمـوي الشافعي: ١٨٥.
محمد بن يوسف ابن المنيرة، أبو عبد الله: ١٠٧.
محمود بن بلداجي: ٨٦.
محمود بن بوري بن طغـدكين، شهاب الدين: ١٢١، ٢٠٠، ٢٠٢.
محمود بن جمعة النميـري: ٨٠، ٨٤، ٨٥.
محمود بن زنكي، نور الدين: ٢٠ ض، ٢٢ ض، ٣٣، ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٥٦، ٥٧، ١٧٢، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦.
محمود بن صالح المرداسي: ١١٥.
محمود بن قراجا، شهاب الدين: ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٩، ٧٠، ٧٩، ١٢٠، ١٢٤، ٢١٣.
محمود المسترشدي: ٢٨.
مرتفع بن فحل: ٤٣.
المرداسي = محمود بن صالح.
مرشد بن علي، مجد الدين أبو سلامة[1]: ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٨٩، ٩١، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢.
مرهف بن أسامة: ٥٢، ١٥١، ٢٣٣.
مريم ـ عليها السلام ـ: ١٥٤.
مزيد (جندار): ١٧٥.
مسافر، حسام الدولة: ٦٥، ٦٦.
المسترشد بالله: ١٧ ض، ١٨ ض، ١٩ ض، ٢٥.
المستظهر بالله: ١٨٧.
مسعود (السلطان السلجوقي): ١٨ ض.
مسعود بن قليج أرسلان: ٥٧.
المسيح ـ عليه السلام ـ: ١٥٤.
المشطوب = ابن غازي.
المظفر بن أسعد بن مسعود بن بختكين بن سبكتكين، شهـاب الـدين: ١٨٧ ـ ١٨٨.
مظفر بن عياض: ١٩٥.
المعري، أبو العلاء: ٢٢٥.
معز (رجل من نابلس): ١٥٤.
معز الدولة ابن بويه: ١٨٨.
معين الدين أنر: ٢٨، ٥٣، ٦٦، ١٠٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ٢٠٤.

(١) أكثر الإشارات هنا إلى قول أسامة «أبي»، أو «والدي»، أو «الوالد».

Marfat.com

المفنَّد، شيخ الإسماعيلية: ١٢٩.
مقبل القائد: ٥٣.
المقتفي لأمر الله: ١٨٨، ١٨٩.
مقلد بن نصر بن منقذ، أبو المتوح تاج الأمراء: ١٩٧، ٢١٧.
ملك الروم: ٢٦، ١١٥.
ملك الألمان: ١١٧.
ملكشاه (السلطان): ٧٢، ١١٠، ١٨٩، ١٩٠، ٢٢٠.
الملك العادل = ابن السلار.
= علي بن السلار.
= زنكي بن آق سنقر.
= نور الدين محمود.
منصور بن غدفل: ٥١.
منقذ بن سلامة، بهاء الدولة أبو المغيث: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ٢٣٠.
المؤتمن بن أبي رمادة: ٤٦.
مودود، اسباسلار: ٩١، ٩٢.
المؤيد الشاعر البغدادي: ٩٤.
ميَّاح (جندي كردي): ٧١.
ميكائيل الكردي: ١٤٢.
ميمند = بومند.
ميمون = بومند الأول = بومند.

ـ ن ـ

نجم الدين، أبو طالب بن علي كرد: ٢٠٦.
نجم الدين ابن مصال = ابن مصال.
ندى بن تليل القشيري: ٦٤.
ندى الصليحي: ١٤٩.
نصر بن عباس، ناصر الدين: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ١١٦.
نصر بن علي، عز الدولة أبو المرهف: ١٦ ض، ٧٦، ٧٧، ١٣٠.
نصر بن بريكة: ١٤٣.
نصير الدين جقر = جقر.
نضرة بنت بوزرماط: ١٥٠.
نظام الملك: ١٨٩.
نقولا (مملوك آل منقذ): ٢٢٥.
نمير العلاروزي: ٩٩.
النميري = حارثة.
= جمعة.
= محمود.
= علي بن سلام.
= طراد بن وهيب.
نور الدين محمود = محمود بن زنكي.

ـ هـ ـ

هرم بن سنان: ١٥٧.
همام الحاج: ١٣٧.

ـ ي ـ

ياروق (مملوك): ١٠٥.
الياروقي = عين الدولة الياروقي.
الياغسياني = أحمد بن صلاح الدين
= محمد بن أيوب
ياقوت، ناصر الدوله ٣٨
ياقوت الطويل: ٧٤.
يانس الناسخ: ٢١٥.
يحيى بن صافي الأعسر: ٩٠.

Marfat.com

يحيى بن مالك بن حميد، ليث الدولة: ٦٠، ٦١، ٦٥، ١٤٢، ١٤٤.
يحيى المجبر: ١٣٤.
يوحنا بن بطلان الطبيب: ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨.
يوسف بن أبي الغريب: ١٣٤.
يوسف بن أيوب، صلاح الدين: ١٨ ض، ٢٢ ض، ١٦٨.
يوسف بن الحافظ لدين الله: ٤٤.
يوسف (ركابي): ١٦٣.
يوسف (غلام أسامة): ٢٢١.
يونان: ١٠١، ١٠٢.

Marfat.com

فهـــرس الأمـــاكن والمـواقـــع والبلدان

ـ أ ـ

آمد: ١٧ ض، ١٠٥، ١٠٦، ١٧٣.
أدنة: ٢٠٩.
أربل: ١١٠.
الأرض الشرقية: ٢١٤.
أسعرد: ١٨٥.
أسفونا (حصن): ١١٨.
الإسكندرية: ٤٧.
أسوان: ٥٦.
أصبهان: ٧٢، ٧٤، ٢٢٠.
أفامية: ١٧ ض، ٢٣ ض، ٦٢، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٨٠، ٨١، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠٩، ١١٣، ١٤٠، ١٥١، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠.
الأنبار: ٩٤، ١٨٨.
أنـطاكية: ٢٠ ض، ٦٢، ٦٥، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٠٩، ١١٩، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠، ٢٢١.
أنطرسوس: ٢٠٩.

ـ ب ـ

باب القاهرة: ٤٨.
باب النصر: ٤٨، ٤٩.
بانياس: ٨٧، ٨٨، ١٠٨، ٢٠٢.
بدليس: ١١١.
برج خريبة (خربة): ٧٠.
برج الرصاص: ٢٠ ض.
البرقية (محلة في القاهرة): ٤٥.
بسمالخ: ٢٠٧.
بشيلا: ٢٠٧.
بصرى: ٣٧.
بعلبـــك: ٢٢ ض، ٥٣، ١٠١، ١٢٢، ١٧٢.
بغـــداد: ١٧ ض، ط، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦.
البـلاط: ٦٢.
بلاطنس: ١٤٠.
بلبيس: ٤١، ٥٠.
بندر قنين: ٨٦، ١٨١.
بو شمير (نهر): ٢٢٥.

Marfat.com

بيت جبريل (جبرين): ٤٠، ١٠٢.
البيت الحرام = مكة المكرمة.
بيت قوفا: ١٣٤.
بيت المقـدس: ١٣٩، ١٤٩، ١٥٣ = القدس.

ـ ت ـ

تدمر: ٩٢.
تكريت: ١٧ ض، ١٨ ض.
تل باشر: ١٩ ض، ٢٠ ض، ١٣٥.
تل الترمسي: ٩١.
تل التلول: ٩١، ١٢٧.
تل خالد: ٢٠ ض.
تل سكين: ٢٢١.
تل صفرون: ٢١٣.
تل مجاهد: ١٢١.
تل الملح: ٧٨، ٨٠.
تيه بني إسرائيل: ٣٧.

ـ ج ـ

الجامع الأقمر: ٥٥.
جبال كوهستان: ١٧٧.
جبلة: ١١٨، ١١٩.
الجزيرة: ٨٣.
الجسر = جسر شيزر = حصن شيزز: ١٢٦، ١٢٥ = شيزر.
الجفر = ٣٣.
الجلالي (نهر): ٨٥، ٨٦.
الجيزة: ٥٥.

ـ ح ـ

الحجاز: ٢٢ ض.
الحديقة (يوم الحديقة): ٧٢.
الحرم المكي = مكة المكرمة.
حسمى: ٣٥.
حصن أبو قبيس: ١٣٨.
حصن أفامية = أفامية.
حصن البارة: ٢٠ ض.
حصن البارعة: ١٧٥.
حصن الجسر = شيزر.
حصن الخربة: ١٠١.
حصن شيزر = شيزر.
حصن الصوَّر: ١٧٣، ١٧٤.
حصن الكرخيني: ١٧٨.
حصن كيفا: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩١، ٢٠٤.
حصن ماسر: ١٧٧.
حلب: ١٩ ض، ٢٠ ض، ٢٣ ض، ٥٤، ٧٦، ٩٨، ٩٩، ١١٥، ١٦٤، ١٧٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٦.
الحلة: ١٨ ض.
حلة عارا: ٢٠٧.
حماة: ٢٢ ض، ٥٨، ٦١، ٦٦، ٧١، ٨٥، ٨٦، ١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١١٣، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٧٢، ١٨٥، ١٨٧، ٢٠٥، ٢١٣.
حمص: ٦٦، ١٠١، ١٢٤، ١٢٥، ١٦١، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٦.
حناك = كنيسة حناك.
الحوف: ٣١.
حوف الأكراد: ٧٠.

Marfat.com

حيزان: ١١٦.
حيفا: ١٣٢.

— خ —

خلاط: ١١١.

— د —

دار الشابورة: ٤٣.
دار العقيقي: ٥٤.
دار السلام = دار الوزارة.
دار العلم (بطرابلس): ٢١٥.
دار الوزارة: ٣١، ٤٢.
داريا: ١٢٢.
دانيث: ٩٨، ٩٩، ١٤٠.
دبيس: ١٦١.
دجلة: ١٨ ض.
دربند بدليس: ١١١.
الدروب: ٢٠٩، ٢١٠.
دلاص: ١٧ ض، ٣١.
دمشق: ٢٠ ض، ٢٢ ض، ٢٧، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٨٨، ٩٢، ١٠١، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٩، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٠٤.
دمياط: ٥٧.
دنيسا = دبيس.
ديار بكر: ١١٠، ١١١، ٢٠٠.

— ر —

رابية القرامطة: ٨٧، ١٦٢.
الراوندان: ٢٠ ض.
الرحا الجلالي: ٢٢٧ = الطاحون الجلالي.
الرحية: ٩٥.
رعبان: ٥٧.
رفنية: ١٧ ض، ٦٧، ١٠٠، ١٠٩، ١٤٩.
الرقة: ١١٢، ١٢٢.
الرقيم: ٣٨.
الرها: ١٣٥.
الروج: ٩١، ٩٩.

— ز —

زلين: ٩٣.

— س —

سرمين: ١٧ ض.
سروج: ٣٦، ١٥٠.
السماوة: ١٩٦.
سنجار: ٢٠٢.
سوق السيوفيين: ٤٣.
السويدية: ١٤١.
سوبقة أمير الجيوش: ٣٠.

— ش —

الشاروف (نهر): ١٢٤.
الشام: ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٨٠، ١١٠، ١١٣، ١١٧، ١٣٥، ١٦٨
الشعراء (شعراء نابياس): ٨٧، ٢٠٢
شيزر: ١٥ ض، ١٦ ض، ١٧ ض، ١٨ ض، ٢٦، ٢٧، ٦٢، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ٨٩،

Marfat.com

٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٨، ٩٩، ١٠٠،
١٠١، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢،
١١٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٥،
١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،
١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨،
١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩،
١٥٠، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤،
١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠،
١٧٨، ١٨٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٠،
٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٦، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٢٩.

ـ ص ـ

صلخد (صرخد): ٥٣.
صور: ١٥٥.
الصور = حصن الصور.
صهيون: ١٤٠.

ـ ض ـ

ضمير: ١٢٣.

ـ ط ـ

الطاحون الجلالي: ٨٥، ٢٢٧.
طبرية: ٣٣، ١٥٦، ١٥٧.
طرابلس: ٧٢، ٧٣، ٧٨، ١٠١، ٢١٥، ٢٢٨.
الطور: ٢٠٢.

ـ ع ـ

العاصي: ١١٤، ١٤٢ = نهر شيزر.
عذراء: ١٦٩.
عزاز: ٢٠ ض.
عسقلان: ٣٣، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ١٤٩.
عقبة دمر: ١٧٠.
عقبة المندة: ١٣٠.
العلاة: ٧٣، ٢١٤.
عكا: ٥٧، ١٠٤، ١٥٦، ٢٠٤.
عين تاب: ٢٠ ض.

ـ غ ـ

غزة: ٣٣، ٤١.
غزنة: ١٨٩.

ـ ف ـ

الفرات: ٥٤، ١١٢، ١٨٨.
الفستقة: ١٦٩.

ـ ق ـ

القاهرة: ٣٠، ٣١، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٥٥.
القدس = البيت المقدس: ١٠٩، ١٤٢، ١٥٨.
القدموس: ١٣٢.
قرا حصار: ٢٠٦.
القسطنطينية: ١١٥، ٢٠٧.
القصير: ١٦٩.
القطيفة: ١٦٨.
قلعة باشمرا: ٨٣.
قلعة جعبر: ١١١، ١٥٠، ٢٣١، ٢٣٢.
قلعة حلب: ٢٠٦.
قلعة شيزر = حصن الجسر = شيزر.
قنسرين: ١٧ ض.
قورس: ٢٠ ض.

Marfat.com

ـ ك ـ

كرعة: ٦٩.
الكعبة المشرفة: ١٩٣.
كفرسود: ٢٠ ض.
كفر طاب: ٦٧، ٧٥، ٨١، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٦، ١٢٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٨، ١٦٢، ١٧٠، ١٩٥.
كفر لاثا: ٢٠ ض.
كفر نبودا (نبودي): ١٠٦.
كنيسة بعلبك: ١٧٢.
كنيسة حنابك: ١٣٢.
الكهف والرقيم: ٣٨.
الكوفة: ١٨٥.
كوم أشفين: ٤٩.
كوهستان = جبال كوهستان.
كيسون: ٥٨.

ـ ل ـ

اللاذقية: ١١٩، ١٣٠.

ـ م ـ

ماسر = حصن ماسر.
مثكير: ٦٧، ١٣٥.
مرج أفامية: ٨١.
مسجد أبي المجد ابن سميّة: ١١٤.
المسجد الأقصى: ١٥٣.
مسجد أمير المؤمنين علي: ١٨٨، ١٨٩.
مسجد الخضر: ١٨٦.
مسجد صندوديا: ١٨٨.
مشهد القاضي: ١٠٧.
مصر: ١٧ ض، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ١٠٢، ١١٥، ١٤٩، ١٨٠، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢١٠، ٢١٦، ٢١٧.
مصياث: ١٦٦، ١٦٧.
المصيصة: ٢٠٩.
معـرة النعمان: ١٧ ض، ١٥٥، ١٨٧، ٢١٧ ـ ٢١٨.
معرة نصرين: ١٧ ض.
معزرف: ١٣١.
المعشوق (قصر): ١٨ ض.
المغرب: ١٣٢، ١٩٣.
المغرقة: ٢٠١.
مكة المرمة: ٢٢ ض، ٥٦، ١٧٨، ١٩٣، ١٩٤.
المندة = عقبة المندة.
المنيطرة: ١٥٢.
الموصل: ١٩ ض، ٢١ ض، ٢٧، ٩٤، ٩٥، ١٧٧، ١٨٨، ١٩١، ٢٠١.
المويلح: ٥٠، ٥٢.

ـ ن ـ

نابلس: ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨.
نصيبين: ٢٠١.
نهر شيزر: ٢٢٧ = العاصي.
النيل: ٥٥، ٢٠٤.
نينوى: ٢١ ض.

ـ هـ ـ

الهرماس (نهر): ٢٠١.

Marfat.com

— و —

وادي ابن الأحمر: ٢٠٧.
وادي أبو الميمون: ٦٣.
وادي حلبون: ١٧١.
وادي القناطر: ٢٢٧.
وادي موسى: ٥٠.

— ي —

يبنى: ٤٠.

Marfat.com

فهـــرس القبائل والطوائف

ـ أ ـ

الإسكندرانية: ٢٩.
الإسماعيلية: ١٧ ض، ١٨ ض، ١٠٠، ١٠١، ١٣٧، ١٤٤، ١٧٨، ١٨٠.

ـ ب ـ

الباطنية: ١٧ ـ ١٨ ض، ١٤٥، ١٧٨، ١٨١.
بنو أبي (فخذ من طي): ٣٥.
بنو إسرائيل: ٢٠٤.
بنو ربيعة (من طيء): ٥١.
بنو حنيفة: ٥٩.
بنو الرعام: ١٣٠.
بنو روبال: ٢٠٩.
بنو الصوفي: ١٤٩.
بنو فهيد (قبيلة): ٥٠، ٥١.
بنو قراجا: ٦٩.
بنو كردوس: ١١٥.
بنو كنانة: ١٠٦، ١٦٤، ١٦٥.
بنو مجاجو: ١٢٦.
بنو محرز: ١٣٢.
بنو منقذ: ١٥ ض، ١٨ ض.
بنو نمير: ١٢٢.
البرجاسية ـ البرجاسي: ١٦٠.

ـ ت ـ

تركبولي: ٧٣.
التركمان: ١٩ ض، ٥٤، ٦٩، ١٢٦، ١٤١.

ـ ج ـ

جذام: ٤٧.
جعفر: ٤٧.
الجنوبة: ٢٠٤.
الجيوشية: ٢٩، ٣٠.
الحبشة: ٥٦.
الحلاجون: ١٤٤، ١٤٥.

ـ خ ـ

الخراسانية: ٩٥، ٩٦، ١٧٤، ١٧٧.
خفاجة: ٨٩.

ـ د ـ

درماء: ٤٧.
الديوية (الداوية): ١٥٣، ١٥٤.

Marfat.com

— ر —

ربيعة: ٥١ = بنو ربيعة.
الريحانية: ٢٩، ٣٠.

— ز —

زريق: ٤٧.
زغاوة (زغاوية): ١٤٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣١.

— س —

سنبس: ٤٧.
السودان: ١٧ ض، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٣، ٥٥.

— ص —

الصالحية: ١١٥.
صبيان الخاص: ٢٩، ٣٢، ٥٥.

— ط —

طلحة: ٤٧.
طي: ٣٥.

— ع —

عبس: ٦١.

— ف —

الفرحية: ٢٩.

— ل —

لواتة: ٣١، ٤٧، ٥٥.

— م —

مضر: ٥١.

Marfat.com

فهـــرس الكتـــب

كتـــاب الاعتبـار: ١٦ ض، ١٩ ض، ٢٠ ض، ٢١ ض.

كتاب الإيضاح لأبي علي الفـارسي: ٢١٦.

كتـــاب تـــاريـــخ الإســـلام للذهبي: ١٦ ض.

كتاب التفسير الكبير لمرشد بن علي ـ والد أسامة ـ: ٧٦.

كتاب الجمل للزجاجي: ٢١٦.

كتاب الخصائص لابن جني: ٢١٦.

كتاب سيبويه: ٢١٦.

كتـاب سيـر أعـلام النبـلاء للذهبي: ٢١ ض.

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة: ٢١ ض.

كتاب اللمع للعجمي: ٢١٦.

كتاب المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا: ١٥ ض.

كتـاب مفرج الكـروب لابن واصـل: ١٨ ض، ١٩ ض، ٢٢ ض.

كتاب النوم والأحلام لأسامة بن منقذ: ١٩٨.

Marfat.com

Marfat.com

فهـــرس المحتويـــات

	الصفحة
١ ـ مقدمة التحقيق	٥ م ـ ٢٩ م
٢ ـ نماذج من المخطوطة	٥ ـ ٩
٣ ـ ثلاث خرائط لسوريا الشمالية والقسم الجنوبي من بلاد الشام وإقليم الجزيرة	١٠ ـ ١٢
٤ ـ القسم الأول من الكتاب: نصوص ضائعة من كتاب الاعتبار	١٣ ـ ٢٣
٥ ـ القسم الثاني من الكتاب: كتاب الاعتبار	٢٥ ـ ٢٣٣
٦ ـ ملحق يحتوي على كتب أسامة ذكرها المقريزي في كتاب المقفى المخطوط	٢٣٥ ـ ٢٣٦
٧ ـ جريدة المصادر والمراجع المختارة	٢٣٧ ـ ٢٤٢
٨ ـ جريدة المراجع الفرنجية بما فيها ترجمات كتاب الاعتبار	٢٤٣ ـ ٢٤٤
٩ ـ فهارس الأعلام والأمكنة والمواقع والبلدان والقبائل والطوائف	٢٤٥ ـ ٢٦٢
١٠ ـ فهرس الكتب الواردة في قسمي الكتاب	٢٦٣

Marfat.com

منشورات

مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام

الرياض ص. ب. ٤٢٢٤٨

(١) من تاريخنا ـ محمد سعيد العامودي ـ الطبعة الثالثة.

(٢) الشعر في البلاد السعودية في الغابر والحاضر ـ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ـ الطبعة الثانية.

(٣) الدين ضرورة حياة الإنسان ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.

(٤) منهج الإسلام في تربية الجندي المسلم ـ الدكتور محمد إبراهيم نصر ـ الطبعة الأولى.

(٥) الصنوبري، شاعر الطبيعة في العصر العباسي ـ صالح عبدالله التويجري ـ الطبعة الأولى.

(٦) الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية ١١١٥هـ ـ ١٣٥١هـ؛ عبدالله محمد أبو داهش ـ الطبعة الأولى.

(٧) شعراء ينبع وبنو ضمرة ـ عبدالكريم محمود الخطيب ـ الطبعة الأولى.

(٨) موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري ـ الدكتور زهدي صبري الخواجا ـ الطبعة الأولى.

(٩) حلم في نجد ـ الشيخ علي الطنطاوي ـ الطبعة الثانية.

(١٠) من نبع القرآن ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الأولى.

(١١) فاتنة الخورنق ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الأولى.

(١٢) وجوه من الريف ـ حجاب يحيى الحازمي ـ الطبعة الثالثة.

(١٣) في الأدب السعودي ـ الدكتور يوسف نوفل ـ الطبعة الأولى.

(١٤) مفكرون في السعودية ـ الدكتور يوسف نوفل ـ الطبعة الأولى.

(١٥) أجيال ضد الماركسية ـ علاءالدين وحيد ـ الطبعة الأولى.

(١٦) الاعتبار ـ أسامة بن منقذ ـ تحقيق الدكتور قاسم السامرائي ـ الطبعة الأولى.

(١٧) حصاد الدمع ـ شعر ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الثانية.

(١٨) شعر الدعوة الإسلامية في عصر النبوّة والخلفاء الراشدين ـ جمع وتحقيق عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية.

(١٩) سدّ باب الاجتهاد وما ترتب عليه ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.

(٢٠) القصص القرآني ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.

Marfat.com

(٢١) فلسطين والمواقف العربية والدولية ـ إبراهيم المسلم ـ الطبعة الأولى.
(٢٢) القضية الفلسطينية ودور الملك عبدالعزيز آل سعود ـ إبراهيم المسلم ـ الطبعة الأولى.
(٢٣) العقيلات ـ إبراهيم المسلم ـ الطبعة الأولى.
(٢٤) أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي ـ د. محمد رجب البيّومي ـ الطبعة الأولى.
(٢٥) الخيل والفروسية في الإسلام، وبه فصل خاص عن الخيل في المملكة العربية السعودية ـ د. محمد إبراهيم نصر ـ الطبعة الأولى.
(٢٦) تاريخ ينبع ـ عبدالكريم محمود الخطيب ـ الطبعة الأولى.
(٢٧) الحبل الأسود ـ قصة الدكتور محمد رجب البيّومي ـ الطبعة الأولى.
(٢٨) المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه ـ محمد جاد البنّا ـ الطبعة الأولى.
(٢٩) الفستان والرصاص ـ قصص إسلامي ـ محمد جاد البنّا ـ الطبعة الأولى.
(٣٠) قراءة في واقع الخريطة الإسلامية ـ محمد جاد البنّا ـ الطبعة الأولى.
(٣١) فتى العرب ـ قصة ـ الدكتور محمد رجب البيّومي ـ الطبعة الأولى.
(٣٢) سلسلة قصص أدبية ـ تراثنا العربي ـ إبراهيم المسلم ـ الطبعة الأولى.
(٣٣) الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين ـ الدكتور عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية.
(٣٤) في الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية ـ الدكتور عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية.
(٣٥) الشعر في ظلال دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ الدكتور عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية
(٣٦) الشعر الإسلامي في صدر الإسلام ـ الدكتور عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية
(٣٧) يوم المجد ـ قصص إسلامي ـ الدكتور رجب البيّومي ـ الطبعة الأولى.
(٣٨) شجرة الليمون ـ مجموعة قصصية ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى
(٣٩) دجال القرية ـ قصة الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الأولى
(٤٠) رسالة التلاوة أو تلاوة القرآن الكريم ـ محمد الحسيني ـ الطبعة الأولى.
(٤١) قطرة الماء/ قصة تربوية/ د. محمد إبراهيم نصر/ الطبعة الثانية.
(٤٢) المطر والنهر/ قصة تربوية/ د. محمد إبراهيم نصر/ الطبعة الثانية.
(٤٣) حبة الرمل/ قصة تربوية/ د. محمد إبراهيم نصر/ الطبعة الثانية.
(٤٤) الهمة العالية/ قصة عربية/ د. محمد رجب البيومي/ الطبعة الأولى.
(٤٥) اللغة بين الفرد والمجتمع/ جسبرسن/ ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب ـ الطبعة الثانية
(٤٦) النظم الشفوي في الشعر الجاهلي/ ترجمة د. فضل بن عمار العماري الطبعة الأولى
(٤٧) وجه في الزحام/ قصة/ عبد الكريم الخطيب/ الطبعة الأولى

Marfat.com

3793

Marfat.com